محمد كامل

بعد النهاية

رواية

KAYAN PUBLISHING

بعد النهاية

رواية

كامل، محمد.

بعد النهاية: رواية /محمد كامل.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2021.

214 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-094-2

-1 القصص العربية

أ- العنوان : 813

رقم الإيداع : 11432 / 2021

الطبعة الأولي : يونيو 2021.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني– الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

- إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى الناشرين.

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

بعد النهاية

رواية

محمد كامل

ما يتجرَّأ الرجال على فعله...!

وما قد يفعلونه...!

وما قد يقومون به يوميًّا...!

يفعلونه دون معرفة ما يفعلونه...!

Much Ado About Nothing

William Shakespeare

تلك اللحظة التي تمسح فيها صور ذكرياتك وصورة مَن تحب

هي اللحظة التي تخط فيها إعلانَ وفاة حُبك للأبد

مزق صورتها الوحيدة بلا مبالاة... وغير ملامحها السمراء

أدهم.

الأيام الأوائل من ديسمبر، ليلًا.

أذكر أنه كان مؤلمًا...

بل أعرف أنه كان مؤلمًا، مجرد النظر إليها كان مؤلمًا...

متابعتها وأنا أجلس وحيدًا في ظلام غرفتي تبتسم، تضحك، وتدفن رأسها بين أضلع رجل آخر يحتضنها في قوة، تكاد تتهشَّم من رقتها بين أصابعه، يقبِّل رقبتها في عشقٍ، وهي تغمض عينيها في دلال، تستدير لتواجهه، وهو يحاول تقبيلها، لكنها تتفلَّت من بين أصابعه كفتاة لعوب محترفة، كالماء يتسلل من بين أصابعك، أرى شفتيها تتحرك لتقول شيئًا ما، قبل أن تتحرك كغزالة رقيقة ناحية شباك غرفة المعيشة، تجذب ستائرها في قوة ناعمة، لتغلق أمامي النافذة التي تنفذ إلى عالمها، لأعود إلى عالمي من جديد.

تذكرت هذا وأنا أضع المنظار الذي كنت أتابع به غادة وزوجها الآن، لا أذكر اسمه ربما كان أحمد أو أشرف أو شيء من هذا القبيل، أتابع شجارهما الصاخب الذي لا أستطيع سماع كلماته، لكن الواضح أنه مُهين...، مُهين إلى حد أني أرى الشرر في عينيه غضبًا يكاد يشعلها من سخطه عليها،

وهي تقاوم وترد كأي امرأة في فورة غضب تحاول أن تدفعة بين الحين والآخر بقبضتيها الضعيفتين أمام ثورٍ هائج مثله.

نهضتُ من جلستي إلى البلكونة أتنشق النسمات الباردة التي يحملها أول أيام شهر ديسمبر وأتمتع بلسعتها، الحركة شبة منعدمة في الشارع لا يقطعها إلا مواء قطة يبدو مثل أنين طفل رضيع، وقط آخر يتحرش بها، وسط أكوام القمامة المكدسة على إحدى النواصي، الشوارع مبللة من أمطار طوال اليوم رغم أنها لم تكن بالغزيرة، إلا أنها قضت على الحياة في الطرقات، وآسر الناس البقاء في بيوتهم متدثرين تحت الغطاء، لمحت جاري حسن في العمارة المقابلة للمجاورة لي يهبط من سيارته المعدلة ذات الصوت المزعج، ضابط شرطة لازال في منتصف العشرينيات، منذ تخرجه وهو يحاول استعراض عضلاته بأرقام السيارة المميزة واللوحة مختلفة الشكل، والزجاج الغامق، والعسكري الذي يتناوب على خدمته أكثر من تأديته لعمله بالقسم، ابتسمت رغمًا عني وأنا أتذكر عودته يوم الثامن والعشرين من يناير العام الماضي بملابسه الداخلية محاولًا التخفي والتستر وراء السيارات المركونة والأشجار، حتى دخل بيته كالفأر المذعور، كانت الساعة تقترب حينها من منتصف الليل، على ما أذكر لم يخرج طوال شهر ونصف ربما، حتى بدأت الأمور تعود هادئة إلى حدٍّ ما بالنسبة لهم.

اقتربنا من العام أو أقل قليلًا على عزل مبارك، أو خلعه كما يفضل البعض، الاثنان سواء معي، لا فرق، تابعت ما حدث ككثيرين غيري، لم أشارك ولم أتحمس، فقط تابعت.

أعيش وحيدًا في شقة أسرتنا في إحدى شوارع مصر الجديدة، أبي وأمي يعملان في الإمارات، منذ زمن ليس بالقصير بعد أن أدركت الدنيا وهما في الخارج يكدسان الأموال، ويرسلان إلينا ما يكفينا للمعيشة والحياة، الفارق بيني وبين أخي الأكبر يقترب من عشر سنوات، تركنا ورحل إلى الغرب بعد عامين من تخرجه، وتركنى مع أختي الصغرى، التي تزوجت هي الأخرى منذ عامين وسافرت مع زوجها إلى كندا، الكل في غربة عن الوطن، وتركوني غفيرًا على هذه العمارة، فهي للأسف ملكنا، وللأسف لأن العمارة الضخمة التي يسكنها تسعُ أسر أخرى لا يتجاوز دخلها الشهري مائة وخمسون جنيهًا.

أمي أقنعت أبي قبل أن يتزوجَا بشراء هذع العمارة القاطنة في مصر الجديدة، ليكون لهما دخلٌ ثابتٌ يحفظ لهم كرامة العيش، وبالتالي أقنع هو والده وجدي ببيع بضعة فدادين لشراء كومة من الحجارة المرتبة على هيئة شقق، بالطبع مع الوقت ندما على ما فعلا، ولكن ماذا فعلا بالندم، مع أول فرصة رحلا شرقًا للإمارات في محاولات تحسين الدخل وقد كان، كنت تقريبًا حينها في الثالثة عشر من عمري، عشت مع أخي الأكبر وأختي الصغرى حتى رحيلهما أيضًا.

حياتي ضائعة بين عملي وبين أوراق الكتب والروايات، لم أستطع أن أصبح أي شيء، لم أستطع أن أصبح حتى شريرًا، لا خبيثًا ولا طيبًا، لا دنيئًا ولا شريفًا، لا بطلًا ولا حتى حشرة، أحاول أن أواسي نفسي بعزاء لا طائل فيه، قائلًا أن الرجل الذكي لا يفلح قط في أن يصبح شيئًا، وأن الغبي وحده قد

يصل إلى ذلك، أشعر بالهزيمة في حياتي ومطلوب مني جبرًا الآن التعامل مع هزيمة لا تقهر، أعيش حياتي كما لو أنها حقيقية، لكن لا أشعر بذلك، أراها من على بعد ألف نظرة، ومسافة ألف خطوة وخطوة...

لكن لا حيلة لي في السيطرة عليها.

عشت في خيالي أكثر ما عشت في الواقع، سافرت مع شخصيات، وحاربت مع أخرى، حاربت في كل الحروب ورأيت دماء الملايين مراقة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، هبطت على سطح القمر عبر فوهة مدفع، وغُصت في الأعماق عشرين ألف فرسخ تحت سطح الماء، كنتُ جوار جيمس بوند وهو ينقذ ذهب فورت نوكس، ومع السيد أحمد عبد الجواد وهو يتراقص في عوامة الست جليلة العالمة، تسللت مع أرسين لوبين، وحللت الألغاز مع شيرلوك هولمز، القراءة جعلتني غير مقتنع بالحياة الواقعية التي تدور من حولي، حتى أصبحت أشعر أن الواقع هو الخيال الذي أنتظر أن يوقظني منه شخص ما.

ليس لي أصحاب، أفضِّل أن أطلق عليهم زملاء، مجرد زملاء سواء زملاء دراسة أو عمل، في عملي أجلس في غرفة منعزلة وحيدًا تائهًا بين أرقام وحسابات وميزانيات، أشعر فقط بوجودي وأنا أعطي لهذه الأرقام كيان وحقيقة واقعة على الأوراق.

أما غادة، فأعرفها منذ سنوات، اكتشفت وجودها وأنا في مرحلتي الثانوية، لأول مرة أراها وأكتشف أنها تسكن أمامي، رغم أنها كانت تعيش هنا طوال حياتها هي الأخرى، لا أدري لماذا لم أنتبه إليها قبل ذلك؟!، كيف لم أر هذا الجمال النابض بالحياة، والابتسامة التي تملأ سماء الدنيا نورًا وأرضها، حركتها الناعمة في فستانها الوردي، وهي تتمايل في خطوات أنوثة مبكرة، كالأحمق أنا وقفت أتابعها ذلك اليوم حتى وجدتها تدخل باب العمارة المقابلة لنا، صعدت إلى غرفتي في جنون، أتلصص من خلف شيش الشرفة، فرأيتها في الشقة المقابلة، ظننتها حلَّت في زيارة على جيراننا، لكن الوقت مر، وحل الليل، وعرفت أنها تسكن جواري.

من يومها وأنا أُتابعها من الظلام في غرفتي، حاولت التقرب إليها والتعرف عليها، لكن ماذا يفعل مراهق قليل الحيلة مثلي، أمام هذا الجمال الإغريقي، كيف تعيرني حفيدة أفروديت أي اهتمام، كيف تنتبه ملكة سبأ إلى شخص من رعاع العامة، مع ذلك واتتني الفرصة حين تقابلنا في إحدى المراكز التعليمية أيام ملحمة الثانوية العامة، وياهول سعادتي حين حيتني بأن حركت رقبتها ورفعت رأسها قليلًا لأعلى لما لمحتني، حدثتني بصوت كالعزف على أوتار كمان وهي تقول:

«أنتِ معنا هنا أيضًا !! نحن جيران»

إنها تعرف بوجودي على هذه الأرض وفي هذه الحياة معها، تاهت الحروف يومها من عقلي ولساني، كأني أخرس، حركت يدها أمام عيناي، وفرقعت إصبعيها أمام وجهي وهي تقول متعجبة بابتسامة عذبة:

«أنت نمت أم لم تستيقظ بعد؟! أنت معنا هنا في الدرس».

أخيرًا أفقت، وانتبهت أن بالفعل أقف معها تبادلني الكلام، اكتشفت أنها في مثل عمري تقريبًا، ومعي في نفس العام الدراسي لكن في مدرسة للبنات فقط، ابنة وحيدة تعيش مع أمها، بعد أن توفي والدها وهي لازالت بنتَ أربع سنوات، من يومها قررت تغييرِ مواعيد كل دروسي الخاصة لتتوافق مع مواعيدها، فأصبحنا معًا في كل الدروس، لم أحاول أن أُصرِّح لها بأي إعجاب أو حب كما يفعل المراهقون في هذا السن ولا حتى تلميحًا، لم أحاول حتى بأي إشارة أو فعل يمكن أن تكشف عما يدور في صدري، أعلم من البداية أن حبي لها مستحيل، فقط الحمقى يتعلقون بما ليس لهم...

لذلك تجد أغلب العشاق حمقى...

وللأسف كنت واحدًا منهم، لكن لم يكن الأمر بيدي.

كانت متفوقة عني، أحيانًا كانت تساعدني في شرح بعض أجزاء من المناهج.بعد الثانوية العامة كان من الطبيعي أن تدخل هي كلية الصيدلة، وأتجه أنا إلى كلية الشعب، ظللنا على اتصال، أحيانًا كنت أذهب إليها في مبنى كليتها رغم أنه لم يكن بالقرب من كليتي، لكن مع الوقت كانت تنشغل أكثر في دراستها، قلَّت لقاءتُنا، وأصبحنا في النهاية... معارف...

مجرد معرفة...

لم نعد أصدقاء كما كنا، لم أستطع أن أحافظ عليها، ولم أنجح في أن أجذبها ناحيتي، لكن كنت أتابعها من بعيد، رؤيتها فقط كانت تسعدني، كنت أغار حين أراها تقف وسط زملائها يضحكون، أحدهم يقول شيئًا ما، فتبتسم، يتابع بثقة وهو يحرك يديه أمام وجهه، وهي تضحك، ماذا يقول هذا الأبله ليضحكها...!!

إنها تبتسم وتضحك في سعادة تتفتح لها الحياة، تعيش أيامها مرحة تنشر البهجة بين رفاقها، ودودة مع الكل، بشوشة، في عامها الأخير في الكلية، بدأت أراها مع شخص بعينه بمفردهما، حركاتها مختلفة، نظراتها له مختلفة، كل شيء فيها يتغير وهي جواره، كنت أشاهدها معه كأنَّ الناس والدنيا اختفوا من حولهما، كان كيانها كله موجهًا ناحيته، كأنها لا ترى من الرجال إلا هو، بل إنها بالفعل لا ترى إلا هو...

يا إلهي... إنها تحب...!!!!!

شعرت بقبضة تعتصر قلبي بين ضلوعي، بسيف ينغمس بين أحشائي يمزقها، وينفذ بين جنباتي، اهتزَّ كياني، وارتعدت فرائصي، ودارت بي الأرض من حولي حتى كدت أسقط على وجهي، عدت إلى البيت مهزومًا في معركتي الأولى والوحيدة، أحمل رايات نكستي، وألملم أذيال خيبتي.

يومها أغلقت غرفتي عليَّ وجلست في مكاني المعتاد دافنًا رأسي في عالمي من الصفحات الورقية، أذكر تلك اللحظة...، اللحظة التي تمسح فيها صور ذكرياتك وصورة من تحب...، هي اللحظة التي تخط فيها إعلان وفاة حبك للأبد، قلت لنفسي مزِّق صورتها الوحيدة بلا مبالاة، وغيِّر ملامحها السمراء، لكني لم أكن أملك لها صورة، ولم تكن ملامحها سمراء.

بعد أشهر ارتفعت أصوات الزغاريط، رأيتها تحتضن يديه وهي تلبسه دبلتها، تغرق معه في لحظات سعادة حقيقية محروم أنا منها، بعد أسابيع التقيتها، لم يكن الأمر صدفة بالنسبة لي فأنا أعلم مواعيد تسوقها في السوبر ماركت لتتبضع ما يحتاجه البيت، اعتذرَتْ عن عدم دعوتي لخطوبتها لأنها كانت عائلية «على الضيق» كما ادَّعت، سألتني عن أخباري وإن كنت أنوي أن أقلدها وأتزوج أنا أيضًا، ابتسمتُ وقلتُ لها:

«ليس الآن».

أخبرتني في طريق عودتنا عن حبيبها، المعيد في كليتها، يعمل بضع ساعات ليلًا في إحدى الصيدليات؛ ليزيد من دخله.بالطبع لن تستطيع أن تترك أمها تعيش لحالها، فقرَّرَا أن يتزوجَا ويعيشَا معًا في بيتها مع أمها، كلماتها كانت تمزقني، تطعني بخنجر حادٍّ يمزقني مع كل كلمة تنطقها عنه، مهلًا... ستتزوجه ويعيشان معًا في بيت أمها، يسكنان أمامي...!!!

هل مكتوب عليَّ أن أراها بقية عمري مع غيري...!!

يالحظي اللعين، أي قدر جلب عليَّ هذه التعاسة، إن حظي لنكد.

مرت أعوام، وتوفت أم غادة وأصبحَا وحيدين، لم ينجبا، لكن كانت السعادة بادية عليهما، بالطبع لم أحضر زفافهما حتى بعد أن دعتني مرة أخرى، كيف أقدر أن أراها وهي تساق إلى غيري، بعد زواجها قلَّت لقاءتُنا، كنت أتعمَّد الابتعاد عن فرص لقائها، حتى في عزاء والدتها، اكتفيت بعزائها على التليفون، لكن لم أكف عن مراقباتها ومتابعة أخبارها عن بعد.

من بداية زواجها بدأت هواية متابعتها بالنظارة المعظمة، ومع الوقت قلَّ حبها في قلبي، من قال إن الحب الأول أو الثاني أو حتى الأخير يعيش ولا يموت، أو تظل جذوته مشتعلة تحت الرماد منتظرة أي ثغرة لتعود مشتعلة، كل شيء ينتهي ويموت، ربما لم يكن حبًّا أو ربما كان...

المهم أنه كغيره ينتهي... على الأقل هذا ما حدث معي.

هذا ما قررت أنا حدوثه.

من يومها زاد شغفي بفكرة متابعة حياتهما وحياة غيرهم عن بعد، قصص حقيقية وأحداث واقعية أشاهدها تحدث أمامي خلف الشرفات والنوافذ المغلقة، كم تمنيت أن يكون هناك مكبر صوتي أسمع ولو همسًا ما يحدث داخل هذه البيوت، اعتدت أن أرسم حوارًا كلاميًّا يحدث لكل ما أراه، كنت أتعجب حين يخرج هؤلاء الناس في الشوارع بشخصيات مختلفة وطبائع لا تقرب لما يفعلونه خلف جدران بيوتهم.

استيقظت كالعادة في الصباح على صوت منبهي المزعج، مددت أصابعي أتحسس زرار الإغلاق لأخرسه في مكانه وأنا لازلت مغمض العينين، أعتقد أن صوت جرس المنبه في الصباح هو أسوأ شيء يمكن أن تسمعه في حياتك، حتى لو كان صوت المنبة بصوت فيروز.

كم هي هائلة وعظيمة الشجاعة التي يتطلبها النهوض من السرير كل صباح لمواجهة الأشياء نفسها مرارًا وتكرارًا...!!

جلست على فراشي أدلِّك عيناي محاولًا التخلص من آثار نوم متأرق كالعادة، أشعر بحقدٍ دفين على أولئك الذين يضعون رؤوسهم على المِخَدَّات ويسقطون في نوم عميق هادئ على الفور، أنهض من نومي كل يوم كأني خارج من أرض معركة، كأني كنت أصارع أحدهم ليلًا، ودكَّ عظامي من الضرب، نهضت متثاقلًا ناحية الحمام، اغتسلت وتوجهت بعد ذلك لصنع القهوة، جلست على الكنبة في غرفة المعيشة أرتشف من كوبي الصغير رشفات متتابعة من قهوتي المُرة مع دخان سيجارتي، كل رشفة تغسل روحي وتجذبني إلى عالم الأحياء، هززت الكوب الفارغ دائريًّا في سرعة ثم أملته على فمي سريعًا لأرتشف كل ما بقي من ثمالة القهوة في قاع كوبايتي، وضعت الكوب فارغًا على

المنضدة جواري وأشعلت التلفاز، لا أعرف لماذا يترك بعضٌ مِمَّن يشربون القهوة بقايا بن في آخر فنجانهم، يجب محاسبة هؤلاء الجاحدين على ترك هذه النعمة، ارتفع صوت مذيعة وهي تجلس في وضع حادٍّ، متأهبة كلبؤة تستعد للانقضاض على فريستها، يبدو عليها الثقة وهي تتحدث متشنجة عن أموال المخلوع مبارك التي ستعود قريبًا، والدولة التي لن تتنازل عنها، وستصرف الملايين لتستعيدها.

نفس الهراء والأيام مختلفة...!!

ارتديت ملابسي وخرجت متأنقًا كعادتي، لا يبدو عليَّ أني قضيتُ جزءًا من ليلي أتابع جارتي غادة وزوجها في شجار عائلي أقرب إلى مفاوضات السلام الفلسطينية الإسرائيلية، وشاهدت جاري العزيز المهندس إبراهيم يحاول التودد لزوجته وهي تتمنَّع عنه كأن رائحته كريهة، لو أن ما يفعله الناس من أعمال بدا على ملامحهم في اليوم التالي، لظهر الناس في قبح شديد، لكن من الصعب أن نحكم على شخصية الرجل أو حتى المرأة من ملامح وجهيهما، أو من هيئتهما العامة.

في طريقي مررت على ماري، جارتي في الشقة أسفلي، دققت جرس الباب وانتظرت حتى سمعت صوتها يدعوني للدخول، أخرجت المفتاح ودسسته في فتحة الباب، دخلت لأجدها تجلس أمام جهاز التلفزيون الملعون في غرفة جلوس مصممة على الطراز الأرميني، تتابع نفس المذيعة وقد ظهر معها شخص آخر، يقول في ثقة إن الإجراءات على أشدها وربما في خلال أيام ستعود الأموال المنهوبة المهربة للخارج، رفعت ماري عصاها تشير بها إلى التلفاز وهي تقول:

«هذا الكلام أسمعه للمرة الألف، لكن هذا الرجل يبدو عليه الثقة».

ابتسمتُ وأنا أجلس جوارها قائلًا:

«حتى أنتي يا ماري منتظرة عودة الأموال المنهوبة من الخارج وتقسيمها، هل أنتي محتاجة؟!!».

ماري جارتي في العمارة تسكن فيها من قبل أن يشتريها والدي، أرمينية، ولدها الوحيد تركها من قبل أن أولد وهاجر إلى كندا، تقول إنها كانت مغنية أوبرا في شبابها، وكان يحضر حفلاتها ملوك وأمراء ورؤساء دول، بما فيها ملك مصر والسودان مليكنا المفدَّى فاروق الأول والأخير كما تقول، أحيانًا تغني لي، لا أفهم ما تقول، لكني أتوه وتدمع عيناي وأنا أسمع صوتها، أحس بصوتها يأتي من عالم آخر بعيدًا عن عالمنا الملعون المليء بالصراعات والغباء، تقول إنها في إحدى حفلاتها ظل الجمهور يصفق لها دون انقطاع فترة طويلة، حتى أنها خرجت لتحيته إحدى عشر مرة، عمرها الآن قارب التسعين، وأعتقد أنها شارفت على المائة أو ربما تجاوزتها، لكنها تنكر، وحيدة في منزلها مثلي، تخشى أن تموت في وحدتها، فأعطتني مفتاح الشقة لأطمئن عليها بين الحين والآخر.

«شربتي قهوتك؟»

ردت وهي لا ترفع عينيها عن التلفزيون:

«منتظراك حتى نفطر معًا أولًا»

جلست في سيارتي أتابع إشارة المرور الحمراء، صوت Vera Lynn المنبعث من مشغل الأسطوانات في السيارة يحملني معه إلى النصف الأول من القرن العشرين، أشعر أن صوتها مناسب للشتاء أكثر، لا أعرف لماذا أعشق تلك المرحلة، رغم دموية تلك الفترة، والملايين التي أُزهِقت في الحرب العالمية الثانية، إلا أنني أعشق القراءة عن تلك الفترة، حتى أحيانًا يُخيَّل إليَّ أني عشت فيها بالفعل، ارتفع نفير السيارات من حولي معترضًا على تأخر تغيير الإشارة، وأنا أتابع طفلة صغيرة تدور بين السيارات تحاول أن تبيع مناديل ورقية تحملها، ناديت عليها وناولتها بضعة جنيهات دون أن آخذ منها مناديل، تغيرت الإشارة وتحركت السيارات، ابتعدت وأنا أتابع الفتاة تنظر إلى الجنيهات دون أن تتحرك من مكانها وسط السيارات المتحركة، لا يوجد بلد في العالم يحس فيه المرء بالثراء الفاحش والفقر المُدقع في نفس الوقت كما في مصر.

أدخل البنك كالعادة شاعرًا أني غير مرئي، لا أحد يرحب بي من رجال الأمن كما يفعلون مع الآخرين، الكل معروفون بأسمائهم، أما أنا فملامحي حتى ربما غير معروفة لهم، أحد الأيام وأنا عائد من فترة الغذاء استوقفني أحد رجال الأمن يستفسر عن وجهتي واستغرب لما أخبرته أني أعمل هنا، قال إنها أول مرة يراني فيها، رغم أنه يعمل في أمن الشركة منذ ستة أشهر، كنت أود أن أخبره وأنا أعمل هنا أيها الأحمق من قبلك بسبع سنوات.

جلست في غرفة مكتبي الضيقة ذات الجدران الزجاجية، بالكاد تتسع لمكتبي الصغير وكرسي أمامي، وبعض الأدراج الجانبية المكدسة بالأوراق، مرتبة جدًّا، لدرجة تثير ضيق مَن يدخل عليَّ فيها، مسحت الكرسي والمكتب ببعض المناديل المبللة كما تعودتُ أن أفعل كل يوم، وشرعتُ في عملي المعتاد، قبل الظهر دخل عليَّ كائن غريب الهيئة عَرَقُه يُغرِق ما تحت إبطيه، يرتدي رابطة عنق صفراء فاقع لونها، لا تسر الناظرين يُسمى أحمد سعفان، للأسَف رئيسي في العمل، كان يحمل بعض الأوراق، ألقاها على المكتب وهو يتحدث صارخًا عن ملفات متأخرة وقروض متوقفة وأشياء عن سندات الصرف وسندات القيد ومدفوعات شركة ما والتأكُّد من عمليَّات تسجيلها، ظللت أتابعه في غيظٍ وضيق مكتوم داخلي، وددت لحظة أن أهشم رأسه وفمه الذي يتناثر منه رذاذ لعابه، ذلك المقرف أغرق مكتبي وسأعاود مسحه، سألت وأنا أشعره أني أبدي اهتمامًا بما يقول:

«ومتى تريد كل هذا؟»

رد في سرعة مشيرًا بإبهامه لما خلفه: «أريده أمس، لا وقت».

قلت في ضيق يضغط على أعصابي:

«لكنٍ كل هذا العمل ليس من اختصاصي وحدي، وإن فعلت سيأخذ عدة أيام، الموضوع ليس بسيطًا».

كان في طريقه للخارج حين توقف واستدار وهو يصرخ:

«هل ستعلمني طريقة عملي وما أسنده لك أو غيرك؟! أنت تنفذ فقط ما أقوله...، أنــتــ...»

ارتفع صوته من جديد وتناثر لعابه كذئب أرقط، ظل يصرخ ويصرخ ويلوح بيديه وأنا جالس في مكاني أنظر إليه أتأمل ملامحه الغاضبة التي تتغير وتتموَّج، تقريبًا وقف كل من حولنا في مكانه يتابع الموقف شبه المعتاد منه مع أغلب الموظفين هنا، يشاهدونه وهو يقوم بالصراخ في وجهي وتأنيبي كأني تلميذ فاشل في مدرسة أهمل عمل واجبه المنزلي، وددت لحظة لو أني قذفته في وجهه بأي شيء أمامي، أنهى وصلته من الصراخ، وانصرف بعد أن أغلق الباب في قوة، جلست لحظات في صمت أحاول أن أتجرع ما حدث معي منذ قليل، لحظات وفتح الباب مرة أخرى، ودخل عبد الحميد فراش الشركة يحمل فنجان قهوتي التي طلبتها قبل دخول الغول سعفان عليَّ، حاول مواساتي وهو يقول:

«هاوده على قدر عقله، خد منه الكلام وافعل ما في بالك».

اقترب مني أكثر حتى شعرت بأنفاسه التي لم تتخلص بعد من رائحة الفول والبصل الذي تناولهما على إفطاره وهو يهمس:

«مدير البنك جزاه بخصم على الصبح، وأعطى له وصلة توبيخ أكثر مما فعله معك».

ابتسمت له، وسألته أن يتركني لأنهي ما أنا فيه.

يومها عدت متأخرًا على غير عادتي، قابلت في صعودي السلم أيمن بشارة جاري طبيب الأطفال، لازال على وجهه أمارات الحزن بعد أن فقد ولده الأكبر مينا منذ شهر ونصف تقريبًا في المواجهات بين بعض المتظاهرين وقوات الأمن أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون فيما يسمى هذا اليوم بالأحد الدامي، أو كما سمعت يطلقون عليه هذه الأيام بأحداث ماسبيرو.

خلعت حذائي على الباب، ونزعت عني ثيابي ووقفت تحت شلال الماء الدافئ، أغسل تعب وإرهاق يومي كما تعودت، لا أعرف لماذا يشتكي بعض النساء من عملهن في المطبخ، أمتع أوقاتي طوال اليوم هي اللحظات التي أتفنن فيها في طبخ غدائي، ربما لست ماهرًا ولكني أستمتع بتحضير طعامي بنفسي، رغم أن كل هذا المجهود ينتهي تناوله في دقائق معدودة، أجلس بعدها مسترخيًا أمام التلفاز وأنا أحمل كوب الشاي، أحيانًا أقرأ وأنا أشاهد التلفاز.

أذكر يومًا عاد فيه أبي من عمله وجدني جالسًا أمام التلفاز وفي يدي كتاب دراسي وفي اليد الأخرى شطيرة أمضغها، وفي أذني سماعات الووكمان القديم، وقف أمامي ينظر إليَّ وهو يقول متعجبًا:

«أنت لم تترك فتحة واحدة يدخل منها العلم».

ليت تلك الأيام دامت...

اليوم لا أحد ينغص عليَّ حياتي، أعيشها كيفما أرغب، منعزلًا قليلًا عن الناس، لكني أرى أن البعد عن الناس غنيمة.

الأخبار في المساء محشوة بكلام عن بدء جولة الإعادة من المرحلة الأولى للانتخابات البرلمانية المصرية، غيرت القناة لإحدى قنوات الأفلام التي تعرض أفلامًا قديمة أبيض وأسود، تناولت كتابًا كان جواري لم أنتهِ منه بعد، قرأت فيه حتى تعبت، فعدت لغرفتي واتخذت موضعي المعتاد لأراقب الشارع والجيران، شقة غادة كانت مغلقة ستائرها، لكن يبدو من خلفها ضوء باهت، لمحت فيه خيالهما يتحرك في عصبية، خلافاتهما أصبحت كثيرة بعد الثورة، فكرت أن اختلاف آراء الناس السياسية جلبت المشاكل على البيوت المصرية، وفرقت بين بعض الأصدقاء، كنت أرى غادة متحمسة في الأيام الأولى للثورة، تخرج حاملة علمها، وتشارك في بعض ما يحدث في البلد، لا أعرف كيف يظن هؤلاء أن هناك تغييرًا سوف يحدث، وقد ظهر أسوأ ما في كل الطوائف لما أصبحت قطعة اللحم دون حاكم، أعتقد أن الوضع سيبقى على ما هو عليه، وعلى المتضرر أن يخبط أم رأسه في أتخن حائط.

كنت متأخرًا في الصباح، فلم أستطع المرور على ماري، وأنا أدخل سيارتي رأيت غادة متجهة ناحيتي، رغم السماء التي تغرقنا بأمطارها الخفيفة الصباحية، يبدو عليها التوتر، تفرك أصابع يديها في بعضها البعض، وعيناها حمراوان يبدو عليها الإرهاق والسهر، استغربت لأن حديثنا المعتاد أقرب للتحية السريعة من على بعد، ترددت قليلًا ثم حيتني، وسألتني عن حالي، فأجبت أن الحمد لله، هناك شيء تريد أن تقوله أشعر برغبتها في قول شيء ما، أشعر بها تريد أن تطلب مني شيء، سألتها متوجسًا:

«ما بك؟ زوجك بخير؟»

ردت وعيناها الحمراء تحاول أن تهرب من النظر إليَّ:

«لا شيء كنت أطمئن على أحوالك».

ثم غادَرَت مسرعة، أو هَرَبَتْ... نعم، ربما تلك هي الكلمة المناسبة.

لكن من أي شيء تهرب؟!!

هُيئ لي للحظة أني من بدأ الكلام وأنها كانت تتحدث إليَّ رغمًا عنها، ثم استغلَت أول فرصة للهرب مني.

من لحظة أن دخلتُ البنك في صباح ذلك اليوم وأنا أرى العاملين يتحدثون عن شيء ما، لم أسمعهم، ولم أسأل، فالأكيد أن عبد الحميد سيأتي حاملًا فنجان قهوتي بعد قليل، ومعه كل الأخبار والحكايات.

قمت بالمسح المعتاد للكرسي والمكتب وأدواتي بالمناديل المبللة، بعد قليل دخل ووضع قهوتي المعتادة وهو يقول:

«هل عرفت ما حدث؟»

ارتشفت رشفة من الماء وأنا أقول:

«لا، في انتظار تقريرك»

مال عليَّ بنفس أنفاسه المعتادة المحملة بعبق الفول والبصل الصباحي وهو يهمس في سر حربي خطير:

«الأستاذ سعفان اتثبت في الجراج بالأمس، وأحدهم أعطى له طريحة محترمة، نقل بعدها إلى المستشفى».

كنت أرتشف قهوتي وأنا أتابعه يحكي عن تفاصيل أكيد لم يحدث معظمها؛ لأنه لم يكن هو أو غيره هناك، قبل الظهر دخل عليَّ أحد الزملاء يحمل هاتفًا محمولًا ووجه شاشته ناحيتي وهو يقول:

«هل رأيت ما حدث؟»

اعتدلت لأرى ما يعرضه لي على شاشة الموبايل، فيديو من الواضح أنه من إحدى كاميرات المراقبة، أين يضعون تلك الأشياء اللعينة؟!! فيه يبدو أحمد سعفان مديري وهو يفتح باب سيارته، يأتي من خلفه شخص لا تظهر ملامحه يرتدي هاودي على رأسه، يحدثه قليلًا، وقبل أن يلتفت إليه عاجله بلكمه في جانبه وحين استدار كال إليه عدة لكمات متتالية في وجهه وجانبيه، بوضعية ملاكم محنك، سقط بعدها كفحل جاموس ذُبح يوم عيد الأضحى على الأرض، سألت:

«هل عرفوا من ضربه؟»

رد قائلًا في حيرة «ولا عرفوا حتى ما السبب في ضربه، مَن ضربه لم يسرق منه شيئًا».

طلبت منه نقل الفيديو إلى جهاز الكومبيوتر، فمحمولي من النوع القديم لا يعرض الفيديوهات، خرج وتركني أتابع الفيديو على الشاشة مبتسمًا مرة ومرة، أحاول أن أرى أي شيء يدل على هوية أو

شكل المعتدي إلا أن وجهه لم يظهر.

في طريق عودتي فتحتِ السماء أبوابها على مصاريعها، ولم تكف الأمطار عن السقوط، ورغم ابتلالي في المسافة القصيرة بين سيارتي وباب العمارة، إلا أنه كان على الاطمئنان على ماري، كالمعتاد دققت جرس الباب، وقبل أن أسمع دعوتها للدخول، رأيت جاري صاحب الشفاتير الغليظة الذي يُدعى مصطفى يهبط على الدرج، لا أدرى لماذا لا أطيقه، لكن الأكيد أني منذ وعيت في الحياة وأنا لا أطيقه، أعتقد أيضًا أن الشعور متبادل، أظن أنه أكبر مني بعدة سنوات، ربما كان في عمر أخي المهاجر أو أصغر قليلًا، تزوج في الشقة بعد وفاة والديه، ويعيش مع زوجته التي تزوجها في سن متأخرة، نادرًا ما ألقى عليَّ السلام وهو يمر من جواري هو أو زوجته، أكره شاربه الغبي الذي يبدو عليه كمشروع فاشل لمكنسة، مر كعادته وهو ينظر إليَّ بملامحه العابسة دون كلمة، فتحت باب شقة ماري بعد أن سمعت دعوتها للدخول، كانت هناك سيدة تأتي لها مرتين في الأسبوع تنظف لها الشقة، يبدو أن موعدها كان اليوم، فالشقة تبدو عليها آثار ورائحة نضافة حديثة، أشعر بهذه الأشياء غصبًا عني، شقتها طرازها قديم، لم تقم بعمل أي تحديثات فيها ربما منذ ثلاثين عامًا أو أكثر، منذ أن وعيت على الحياة وأصبح لي ذاكرة دائمة، وأنا لا أذكر شقة ماري بغير هذا الأثاث، نفس الترتيب، نفس الوضع، نفس الصور على الحائط، والسجاد على الأرض، والذي رغم مرور الزمن عليه إلا أنه بحال جيدة، ماري لا زالت تعيش في ماضيها، على ذكريات وزمن عفا عليها، حتى مع انشغالها بما يحدث الآن، إلا أنها لم تتغير، وقفت أمام صورة أمها وهي تحملها رضيعة، التي تضعها على المنضدة الصغيرة جوارها، كم كانت أمها جميلة...!!

رغم ملامح الحزن الشديد التي تبدو عليها، إلا أنها كانت تحتضن ماري الصغيرة بنت العامين في حبٍّ شديدٍ، أخبرتني ماري أن هذه الصورة التقتطها أمها يوم أن وصلت إلى مصر بعد هروبها من مذابح الأرمن في تركيا، أو الدولة العثمانية حينها، بالتحديد في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لما ادعت الدولة العثمانية بأن روسيا قامت بإثارة الأرمن الروس المقيمين قرب الحدود الروسية العثمانية ضدها.

كعادتها تتابع التلفاز الذي لم يعد يتغير عن محطات الأخبار منذ الثورة، تركتها بعد أن اطمأننت عليها، وأغلقت النوافذ والبلكونات، التي يهتز زجاجها مع ازدياد الهواء والأمطار في الخارج، صعدت شقتي وأخذت حمامي الدافئ كما تعودت في كل مرة أعود فيها من الخارج، وعشت روتيني اليومي المعتاد الذي لا يتغير تقريبًا.

أذكر أن في البيت هنا كانت سعادة...

أذكر هنا أسرة، أب وأم مع أطفالهما يحيون في دفءٍ بين هذه الجدران...

أذكر أن حياة كانت هنا...

لا يوجد تعاسة أكبر من وجود ذكريات للحظات سعادة عشتها... وأعرف أنها لن تعود.

لم أعد أشعر بالحياة... لم أعد أتذوق لها طعمًا، حلوًا كان أو مرًّا، أيام أعيشها تمر بملل ورتابة وإيقاع بطيء يخنقني.

العالم أصبح من ورق، والعلاقات باتت من ورق، والناس كأنهم خُلقوا من ورق، كل شيء صار قابلًا للاحتراق.

نادرًا ما أخبر أحدًا إن كان لي أخ توأم توفي ونحن في العاشرة من العمر، كان مريضًا بسرطان الدم، لا زلت أذكر ملامحه حتى الآن، كانت ملامحه تتغير باستمرار أيام المرض، تارة يصير بدينًا بفعل الكورتيزون، وتارة يصير نحيلًا كالعصاة، لكن ابتسامته الصافية لم تكن تتغير، ولم تكن تغادر شفاهه، أذكر لما سمعت والديَّ يتحدثان عن إمكانية زرع نخاع، اقتحمت عليهما غرفتهما وطلبت أن أعطي من نخاعي لأخي، بكت أمي وهي تحتضنني، لكن د.أيمن جارنا أشار عليهم بالرفض؛ لأن هذا النوع من العمليات ربما لا ينجح، وإن نجح ربما يعود المرض ليهاجم أخي مرة أخرى، فنتضرر نحن الاثنين، لا زلت أذكر يوم وفاته، صراخ أمي واستغاثة أبي بالدكتور أيمن الذي أتى بملابس نومه، ليغرس حقنة كان يحملها في يده في قلب أخي، علها تعيده إلينا، دق قلبه دقتين...

ثم صمت إلى الأبد...

ومع صمته ارتفع صراخ أمي وبكاء أبي، ظللت واقفًا في مكاني أتابع الموقف كحلم غريب، أحياه وأنتظر أن يوقظني منه أحد، لكنه استمر ولم أستيقظ، تخيلت أن ملك الموت بيننا يتحرك، يصول ويجول في الغرفة، يحمل روح أخي بين ذراعيه ويرحل، يأخذه بعيدًا عنا.

احتفظت بكل صوري مع توأمي بين صفحات كتبي، حتى أراه مرات ومرات، دون ترتيب، وبالرغم من أني وزعتها عشوائيًّا بين صفحات الكتب، إلا أني بعد هذه السنوات صرت أحفظ مكان كل صورة.

بعد وفاة أخي عاش جدي معنا في البيت فترة لم تكن بالقصيرة، كنت الأقرب له عن أخي الأكبر أو عن أختي التي كانت لا تزال في الثالثة أو الرابعة من عمرها حينها، برغم كونه فلاحًا فخورًا بهذا، إلا أنه كان مثقفًا ليس فقط يجيد القراءة والكتابة، هو من علمني وحبَّب القراءة إليَّ، لا أحتفظ إلا بصورة وحيدة له، التقطها أيام شبابه، لم يخطر في بالي ولو للحظة حين رأيت تلك الصورة أول مرة، أن جدي التقطها في أول الثلاثينيات من القرن العشرين في قلب مساحة خضراء تفوح برائحة الورود والأزهار في جنوب فرنسا، جوار قبر أخيه، كانت ملامحه مكسوة بالحسرة والحزن وهو يخبرني عن أسماء مواطنين مصريين مكتوبة على شواهد مقابر فخمة محاطة بالورود وبجوارها باللغة العربية «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ثم اسم الجندي ورقم فرقته وموعد الدفن، «جندى فيلق عمال مصري توفي ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى»، مواطنون مصريون ماتوا ودفنوا في غير أرضهم بعيدًا عن أهليهم وذويهم وأحبابهم، ظل جدي بعد الحرب يسأل عن مصير أخيه أعوامًا حتى وصل به البحث إلى مكان مقبرته، وسافر إليها في جنوب فرنسا، أخوه الأكبر كان اسمه رضوان، قد أُخذ كما أُخذ آلاف غيره من المصريين البسطاء من طبقة العمال والفلاحين من القرى والنجوع،

ليُلقَى بهم في أتون حرب مشتعلة إلى السماء، أخذوا عنوة ليقتلوا في حرب بين دول وعلى أراضي بعيدة آلاف الأميال عنا، كان سنه ربما لم يتجاوز الثامنة عشر حين اقتيد مع رفاق له إلى الخدمة والعمل في بلاد قادت حروبًا لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

لم يكن جدي يعلم أن وفاة أخيه حدثت في حرب اشتعلت بدايتها من قبل ولادته ببضعة عشر سنين...

لا أحد مُخيَّر في هذه الحياة، كلنا مسيرون إلى قدرنا...

مَقَادِيرُ كل شخص جُعِلَت له من قبل وجوده، يسير في طريقها غير الممهد ثابت الخطى ليس بمقدوره التجاوز أو الحياد عنه.

من الأشياء الصعبة التي لم أختبرها في حياتي من قبل، أن أشعر بالحزن أو أفتقد بشدة شخصًا لم ألقه من قبل، لكني أحيانًا أشعر بحزن شديد على مصير أخي جدي الذي لم ألقاه.

تصفحتُ الدفتر القديم الذي خطَّ فيه جدي بخط يده بحثه عن أخيه، وعما اكتشفه في رحلته تلك...

«1917 هو العام الذي دُفن فيه أغلب الجنود في مقابر أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى، وقتها كان النفوذ الإنجليزي يفرض نفسه على مصر منذ إعلان الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤، والذي أصبحت فيه بريطانيا العظمى، أو الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، هي الحاكم الحقيقي للبلاد بعدما أعلنت الحماية على مصر، جاءت هذه الحرب فرصة لعزل كل من يعارضها في سياستها وعلى رأسهم الخديو عباس حلمي الثاني، وعينت حسين كامل بدلًا منه ومنحته لقب سلطان البلاد في إشارة منها لإنهاء تبعية مصر إلى الدولة العثمانية التي كانت ضدها في الحرب، وتولَّى وقتها حسين رشدي باشا رئاسة الوزراء.

بريطانيا سعت أيامها إلى تدعيم موقعها في مصر بشتى الطرق؛ لتكون معسكرًا لقواتها، وهو ما دفعها لإعلان الأحكام العرفية ولتكوين جيش من الجنود المصريين وكذلك الرديف، وهو عبارة عن فرق تشكلت من الجمَّالة والعمال الذين تولوا مهمة بناء الجسور وحفر الآبار في العديد من الأماكن منها شرق السويس ودول الشام ومنطقة السلوم وليبيا والسودان، وفرنسا وفالونيك في اليونان، الجنود المصريون كانت لهم مجهودات في رجحان كفة إنجلترا وحلفائها، وكذلك الرديف».

كان من الواضح أن بحث جدي كان دقيقًا، ليته فكَّر يومًا في نشره، أعتقد أنه كان يعرف أن لا أحد يهتم أو سيهتم بمعرفة مصير أولئك الشباب الذين ماتوا مغتربين دون إرادتهم، أشعر بصوت جدي يردد كلماته المكتوبة...

«... لم تكن تلك المرة الأولى، فقد اُقتيد قبلهم مجندون مصريون أثناء الحملة المصرية البريطانية على السودان، لمواجهة ثورة المهدي عام ١٨٩٢، كنت قد عرفت أن الجنود المصريين توافدوا إلى

فرنسا حتى وصل عددهم ١٠ آلاف و٤٦٣ جنديًّا، وكان يتم استبدالهم دائمًا بنفس العدد.

في نفس الوقت كانت فرق الجيش المصرى تواصل السفر إلى باقي الدول الأوروبية، وطبقًا لبيانات وتقارير سفارة بلجيكا بفرنسا عن الجيش المصري، كانت الفرقة ٧١ من نصيب مرسيليا، والفرق ٧٢، ٧٥، ٧٦ من فيلق العمال في مدينة دينكيرك بشمال فرنسا، وفي مدينة كالييه تمركزت الثلاث فرق وهي، ٧٤، و٧٧، و٧٩، وفي بولوني الفرقة ٨٠، كان من نصيب الجيش الرابع البريطاني المرابط في المنطقة الخاصة بفرنسا ٤ فرق هي: ٨١، و٨٢، و٨٣، و٨٤.

واستقبلت مدينة طنوس، ومودروس باليونان فرقة من فيالق العمال، لمساعدة القوات المحاربة هناك في إعداد الطرق، وكانوا يلقون بهم في الخطوط الأمامية، وأُرسل إلى مدينة سالونيك أو سلانيك باليونان ٦٠٠ جندي، ووصل العدد بعد ذلك إلى ٧٠٠٠ جندي، وشملت الدول التي وجد فيها الجيش المصري لمساعدتها في الحرب إنجلترا، وبلجيكا، وإيطاليا، ومالطة، وفرنسا، واليونان إلى جانب مضيق الدردنيل الذي يربط بين بحر إيجا ببحر مرمرة في شبه جزيرة جاليبولي في الجانب اليوناني من الأراضي التركية.

في مضيق الدردنيل تمركزت فرق الجنود المصريين، وأقامت التحصينات، للهجوم على الدولة العثمانية، ومكثت ست فرق من الجيش أربعة أشهر، وأظهرت بطولات فائقة تحت وابل من القنابل والنيران، واستشهد منهم الكثير في الدردنيل، واليونان، وبلجيكا وإيطاليا بسبب ظروف الحرب القاسية، والجو الثلجي القارس، وحيث الثلوج التي تكسو كل شيء، وهو مناخ غير معتاد للمصريين، إلى جانب افتقاد إهمال رعاية المرضى منهم والمصابين على خطوط النار في دول أوروبا...

كان اسم أخي رضوان ضمن أسماء مئة ألف جندي شهيد مصري رغم أن الواقع يقول أن عددهم يزيد على نصف مليون شهيد، كلهم مدفونون في المقابر الأوروبية مدون فيها الأسماء بوضوح، والفيلق الذي ينتمي إليه الشهيد، واسم المقبرة، ومكانها بدقة، وتاريخ الاستشهاد، وكل هذه البيانات مدونة على تلك المقابر في هذه البلدان الأوروبية...».

ارتفع صوت جرس الباب يقطع قراءتي، في نفس اللحظة التي انفتح فيها باب الشرفة على مصراعيه، بفعل الهواء الشديد والأمطار التي لم تكف من حينها، بل ازدادت، وضعتُ الدفتر الذي اصفرَّت وريقاته وأغلقت الشرفة وأسرعت ناحية باب الشقة متعجبًا من الأحمق الذي يدق بابي قبل منتصف ليلة ممطرة كهذة، فتحت الباب وتسمرت قدماي مكانهما...!!

كان آخر شخص أتوقع رؤيته...

ورغم الأمطار التي تهطل بالخارج، إلا أنها لم تمحُ آثارًا لقطرات من دماء تسيل على وجهها مع قطرات المطر، ولم يخفِ بلل الملابس بقع الدماء المنثورة عليها، سطع البرق في شدة فبدت ملامح الخوف والفزع والرعب مرسومة في قسمات الوجه...

وقفت ما يقرب من خمسة عشر ثانية أحاول أن أستوعب الموقف...

كانت في حالة يرثى لها...

كانت غادة.

كنت كمثل مَن يواصل التأثُّر بحلم نسيه ويجاهد عبثًا ليعيده إلى ذاكرته

دانتي الجيــيري

غادة.

أشعر دائمًا أن هناك من يراقبني...

عين تتبعني في كل مكان...

بدأ يراودني هذا الشعور منذ أن تزوجت أشرف، أحاول أن أصرفه عن بالي، وأحيانًا أتلفت حولي في محاولة لمفاجأة واكتشاف من يراقبني، لكن دائمًا لا يوجد أحد.

أعتقد أني أتمنى أن يوجد أحدٌ ذات مرة.

كانت أمي تقول إني مفرطة في الخيال وأن مخيلتي خصبة، أشرف قال لي ذلك ذات مرة ربما أنا مصابة بالبارانويا، كومة القمامة المكدسة على ناصية شارعنا، تتنبح حولها الكلاب وتموء فيها القطط، كنت أرى فيها وجوهًا مرسومة، كأنها تخبرني عن أسرار البيوت من حولنا، الأدوية المصفوفة على الرفوف أشعر أنها رُتبت لترسم وجوهًا شاحبة للمرض، حتى الماء المسكوب على الأرض التي تجره عطيات العاملة، أراها وجوه دامعة أحيانًا، هل أنا فعلًا ذات مخيلة خصبة أم أني بلهاء متشككة، مصابة بمرض نفسي جعلني أشك أن هناك من يراقبني.!

سيارة أبي العتيقة المرسيدس بنز SEL 300 موديل عام ٧٢ السوداء ذات الكراسي الجلد لون الكونياك، كما كان يصفها، التي اشتراها قبل وفاته بأسابيع، طوال عمري وأنا أفكر في كمِّ الأشخاص الذين ركبوها جوار أبي، أو قبله، أتخيل الشوارع التي مشت عليها، عجلاتها التي استبدلت على مر السنين أين ذهبت، ما كان مصيرها، أألقيت على جانب أحد الشوارع، أم رُصت معروضة أمام أحد العجلاتية لتصبح إشارة إعلانية لتصليح الكاوتشات، أقودها وأنا في طريقي للعمل يوميًّا أستمع على مسجلها الشرائط التم لم تعد رائجة هذه الأيام، ولا يخلو بالي من الرجل الشحاذ الذي مررت عليه منذ قليل يرتدي فردة حذاء واحدة، وأتساءل... تُرى أين ذهبت الفردة الأخرى؟!!.

أحيانًا كنت أترك السيارة وأتحرك بالترماي، أشعر معه أني عُدت فتاة صغيرة تحتضن كتبها على صدرها خجلًا تخفي ملامح نهديها البادئة في النمو، يهتز الترماي فيحرك ذكريات سنين راكدة في تلافيف مخي، أنظر إلى البيوت التي تتعاقب أمامي مع الحركة الرتيبة، وأتخيل الحواديت والأسرار المخبأة خلف تلك الجدران، لماذا تقف تلك المرأة تعيسة تدخن سيجارة في شرفة منزلها وهي شاردة النظرات؟!!

لا أعرف لماذا ابتعد أدهم عني بعد أن دخلنا الكلية، أنا في أشد الحاجة لصديق مثله هذه الأيام، ظننتُ بعده حينها بسبب دخولي كليه عملية يعتبرها البعض أنها من كليات القمة، وهو دخل كلية التجارة، لم أكن أفكر بهكذا منطق، كنت أشعر بانجذاب ناحيته، أعرفه من صغري ربما من قبل أن يعرفني، أصبحنا أصدقاء في معارك دروس الثانوية العامة، لم يكن لي إخوة، ولا أصدقاء ذكور من قبل، كان هو الصديق الأول في حياتي، ربما لذلك انجذبت ناحيته، أحيانًا كنت أشعر باختلاج في قلبي وهو جواري، لم يكن مهتمًّا، كنت أراه يعاملني كأي شخص آخر في حياته، ثم ابتعد...

فجأة ابتعد واختفى...

بعد افتراق مجال دراستنا ابتعد، قلَّت زيارته لكليتي في البداية، ثم اختفى، لم أعد أراه إلا نادرًا، كنت أحاول أن ألقاه من آنٍ لآخر، لكن مواعيدنا لم تكن تتفق إلا فيما ندر.

ثم قابلت أشرف...!، كان معيدًا عندنا في قسم الـ Biochemistry ، كان كلامه ساحرًا، يجذب الأذن لسماعه، والإنصات إليه، لكن لم أره كأدهم، لا في صفاته ولا في طريقته، ولا حتى في ثقافته التي كنت أشعر بها في حديثه وفي طريقة كلامه، أو حتى في الطريقة التي كان ينصت بها إليَّ، كنت أشعر أن أدهم مختلف، لكن هناك شيء يجذبني لأشرف، تودد إليَّ مرات ومرات، حتى مِلتُ إليه، أو هكذا ظننت حينها، ربما كما يقولون «الزن على الودان أمر من السحر»، تعاطفت معه لما عرفت منه أنه يتيم تربَّى على يد والدته، وأنه يعمل منذ صغره ليساعد والدته في المعيشة، وفي الإنفاق على مصاريف تعليمه، أصبحت أستمتع بحديثي معه.

كنت أستغرب من كلمة والدتي التي ينطقها باستمرار، لم يكن يتحدث عنها بأمي أو ماما حتى، دائمًا والدتي، شعرت أن هناك حاجزًا بينهما أو أنه إلى حدٍّ ما يخجل من شيء ما، ربما لأنه تربَّى على يد امرأة دون رجل، لا أعرف، لأني على العكس تمامًا حين كنت أتحدث عن أمي.

تقرب مني أكثر، وصرح إليَّ بحبه أكثر من مرة، ثم فوجئت أنه عرض عليَّ الزواج، لا أعرف إن كنت أحببته أم لا، ولم أستطع تحديد هل كان أدهم حبي الأول أم لا، مشاعري مرتبكة، عاصفة، وعقلي لا يكف عن التفكير والتوهان، ربما كان هذا هو الحب، لم أعد أدري...!، زميلاتي كن يخبرنني أنها فرصة لن تعوض، «عريس لقطة» كما يقولون، حتى أن صديقتي المقربة آية، أخبرتني أن كثيرًا من زميلاتنا يحسدنني عليه، فهو قبل كل شيء كان ذا ملامح وسيمة وجذاب، أنيق في ملبسه، ابتسامته لا تفارق وجهه، ربما لشعوري أنه مرغوب، أحببته.

أين آيه الآن لم أعرف أخبارها منذ أن تخرجنا؟!!

أشرف لم يكن لديه كثير من الإمكانيات المادية، فعرض أن نعيش مع أمي بعد الزواج، رحبت أمي بالفكرة، وشجعتني على الموافقة، وتم الزواج، فقط بعد تخرجي بثلاثة أشهر، في البداية مرت الأيام هادئة، ماتت أمي قبل أن أُتمَّ عامي الأول في الزواج، لم يتسنى لها أن تحمل حفيدها، أيام العزاء كانت حلم يصعب تصديقه، كأني كنت أتحرك نائمة وأحلم، روحي خوت، لا أعرف كيف احتملت وقوفي على غُسلها، لم أفكر أو أتخيل هذا الموقف من قبل، لم أتخيل ما حدث، حتى البكاء لم يكن يُجدي ويشفي الحزن في قلبي، أنبكي على فراق من يرحل...، أم نبكي لأنهم يسبقونا...، نبكي لأننا لم نعد نراهم...، أم نبكي لأنهم سيروا مَن سبقونا...

صوت الشيخ كان يتردد في أذني واعظًا في الحاضرين، يدعوهم إلى الاستغفار وأنا أفكر في الأسمنت الذي يغلقون به فتحة النزول للقبر على أمي، والنسوة من حولها يصبرونني بقولهم

«وحدي الله»، احتمل أشرف حزني وساندني في وفاة أمي، كنت أتوقع منه أكثر من ذلك، لا أعرف كيف لكن كنت أنتظر أكثر.لم أتوقع أكثر مما فعل أدهم، فعلاقتنا أصبحت سطحية، أو شبه سطحية.

تأخر الإنجاب كان ينغص عليَّ حياتي، كان يشعرني بنقص عن كل النساء من حولي، رغم عدم وجود عيب فيَّ أو في أشرف، دفنت نفسي في عملي، الذي حصلت عليه بعد شهور من تخرجي، في التأمين الصحي، أكوام من الأدوية على عشرات الرفوف، عشرات بل مئات التذاكر اليومية وآلاف الناس ينتظرون أدويتهم، معاناة يومية، يعانيها البشر في انتظار حقهم في الحياة، ورغم أن أغلب العاملين من المفروض أنهم خريجي كليات عملية وعلى قدر لا بأس به من العلم، إلا أنه من الواضح في تصرفاتهم تحولهم لكلمة موظفين، أصبحت حياتهم أوراق وملفات، ليس بالضروره ارتباطه بعلاج الناس ولا بمصلحتهم، بل بدولاب العمل كما يقال في الأفلام، ظننت لما قامت الثورة في البلاد ربما يتغير ما يحدث، لكن من الواضح أن الفوضى يصعب تغيير مسارها، طريقها مستقيم، أكثر من العمل الجاد، والمنفعة التي يجدها الرؤساء في فوضى العمل وفساده، ضمان لاستقرارهم ومنفعتهم، أدوية تهرب قبل حتى أن تدخل المستشفى، مجرد أرقام في دفاتر لا يراها إلا المنتفعون فقط، ونحن نسمع أخبار ما يحدث، كنت أحلم وأنا أرفع علم بلادي في المسيرات والمظاهرات بتغيير، لكنه كان حلمًا، والأيام من أسوأ إلى أسوأ، والمنتفعون من الوضع الحالي أصبح أكثر من ذي قبل، لكن مازال عندي أمل...

الدكتورة سامية غيرت نظارتها اليوم، وأتت بأخرى جديدة، هل ألقت بالأخرى في أحد الأدراج المظلمة، في بوفيه منزلها؟!!

لماذا تنتابني هذه الأفكار والخواطر المتسائلة الغريبة؟؟!

هل تقف هي الأخرى أمام خزانة ملابسها تحدق يوميًّا مثلي لصف الملابس فلا تجد ما يناسبها، أشعر أحيانًا أن ملابسي أليق بطالبة ثانوي عن صيدلانية قاربت الثلاثين من العمر، أربط شعري كيفما صار، ولم أعد أهتم بوضع أي شيء من مساحيق التجميل، التي غالبًا سأمسحها مع التراب الذي يملأ وجهي من الرفوف والكراتين المتربة.

عقلي يقذف بي في كل الاتجاهات في نفس الوقت تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال، ينأى بي بين ألف فكرة في نفس الوقت، أشعر أن عقلي سينفجر...، أكاد أُجن.

أهبط درجات منزلي كل يوم كأني ذاهبة لقتال...، أشتاق لأيام الجامعة والرحلات، الأصدقاء غير المنتفعين، الضحكات التي كانت من القلب، وأشتاق أكثر لأيام ثانوي وأيام المدارس، الأيام التي لم أحمل فيها أكثر من هم مراجعة رياضيات ٢ في المساء، أو ثقل دم درس الفيزياء في الصباح، أيام كنت أجد نرمين ذات الثلاث سنوات في طريق نزولي فألعب معها كأني طفلة في مثل عمرها، نرمين الآن لم تتجاوز الثالثة عشر ربما، مع ذلك هي في نفس هيئتي حين كنت في السنة النهائية للجامعة.

لم يكن الحال في البيت أفضل من حال البلاد والعباد، بعد وفاة أمي تغيرت طباع أشرف عما عرفته في البداية، لم يعد الشخص المرتب المنظم الذي عرفته، أشعر أنه صار شخصًا آخر، ربما كان هذا عادي أو طبع في الرجال؛ لأني أسمع تقريبًا نفس الأشياء من صديقاتي أو زميلاتي في العمل، ملابسه يلقيها في أي مكان، يأكل بنهم شديد كأنه يسعى لامتلاك كرش مبكرًا، أصبح أكثر عصبية وربما عدوانية، حتى معاشرته لي تغيرت، كان أحيانًا يحاول معاشرتي في أوضاع غريبة، فتأكدت أنه يشاهد أفلام إباحية على كومبيوتره المحمول، لم يعد يبدأ حتى بتقبيلي، كان يجذبني له في قوة يريد معاشرتي في أي مكان في الشقة، كان ينتهي مني ويسقط نائمًا كأي ثور محترم انتهى من عملية التزاوج والتلقيح، أنهض من جواره أقف تحت شلال من الماء البارد، حتى لو كنا في عز الشتاء، أتخلص من آثاره على جسدي، هل لو كنت تزوجت بآخر هل كانت العلاقة ستكون بنفس الطريقة؟!، هل أدهم كان سيكون مثله؟!... أنفض رأسي لأزيل عن عقلي تلك الأشياء...

لا أعرف لماذا ترد في ذهني هذه الأفكار...؟!!

واضح أن حياة الأزواج مملة، الكلام مكرر وممل، ربما لخلو البيت من الأطفال الذين ربما يجلبون الصخب والروح للبيوت ويجعلون لها طعمًا، ربما...، أذكر أن أدهم قال لي ذات يوم، أنتِ دائمًا متجددة، هل كان يغازلني بكلماته تلك؟!!، ربما، لكن الأكيد أنه لم يكن على حق فأنا لا أعرف حتى ما كان يعني هذا الكلام؛ لأني الآن أكيد غير متجددة، على حالي ووضعي، ثابتة، لا أستطيع حتى تغيير الجو والحياة الباهتة المملة الرتيبة في البيت، أحيانًا يتغير الإيقاع الرتيب بشجار، كان أحدهم حين ألقيت على أشرف القبض متلبسًا وهو يشاهد أحد الأفلام الإباحية، في غرفة النوم، شعرت حينها أنه يخونني مع أخرى في سريري، وبعد صراخ وزعيق ووعيد، هرب بجهازه المحمول وأنا أقذفه بالمخدة في رأسه - ليتها كانت فاز أو شيء ثقيل، لأتمتع بالانتقام ولو قليل- ليبيت في غرفة أخرى قبل أن أهشمه على رأسه، ظل يصرخ مدافعًا عن نفسه بكثير من الهراء، حتى أغلقت باب الغرفة في قوة لأرتاح من صراخه.

بعد حصول أشرف على الماجستير لم يزد مرتبه كثيرًا، ولم يعد يقدر على العمل المسائي الذي كان يقوم به في الصيدلية، أغلب ما كنت أحتاجه، مع بعض طلبات البيت كنت أقضيها من مرتبي، على الدخل الذي كنت أتحصل عليه من فوائد وديعة صغيرة تركها لي أبي، لم تكن الحياة مع زوجي سهلة أو بسيطة، لم تكن حياتي كما تمنيت.

في فترة ما بعد يناير اكتشفت أنه يتاجر مع زميلين آخرين في الأدوية المستوردة، أعرف كثيرين يقومون بهذا، لكن لا أعرف هل يكسبون أموالًا كثيرة كما يفعل أشرف؟!!، أشعر أنه مال كثير، ربما أكثر من اللازم؛ لأنه صار يصرف ببذخ على نفسه، يغير هاتفًا محمولًا كل شهر أو شهر ونصف على الأكثر، ملابسه أصبحت من ذوات الماركات العالمية، روائح غالية بمئات الجنيهات، حتى أن قنينة منها أعجبني شكلها، فسألته: «ما سعرها؟»

فرد في لامبالاة كأنه أمر عادي تعوَّد عليه:

«على ما أذكر كانت بـألفين من الجنيهات».

شهقت في قوة منزعجة، من فترة قصيرة ربما من عام مضى كان يشكو من ضعف دخله بعد اضطراره لترك عمله المسائي في الصيدلية، واليوم أجد معه زجاجة كولونيا بألفين من الجنيهات، لم أجد ما أفعله غير وضع القنينة بقوة، وأنا أقول همسًا: «محدث نعمة».

نظر لي وهو يكمل عقد ربطة عنقه وابتسم ساخرًا، أنهى ارتداء ملابسه وغادر، فكرت في الذهاب لطبيب نفسي، لا أعرف لماذا، لكن هكذا يفعل الناس المنطقيون المتعلمون، حين يشعرون بصعوبة في الحياة، يمكن أن يكون هذا غريبًا، لكني لن أفكر كالجهلاء الذين يربطون الطبيب النفسي بالجنون، إنني متوترة كثيرًا، صرت غير قادرة على النوم بطريقة جيدة في الآونة الأخيرة، ربما أيضًا التحدث مع شخص آخر غريب لا أعرفه سيجعلني مرتاحة أكثر، فكرت قليلًا في أدهم، لكن ماذا أقول له، أخجل من أن أحدثه في مشاكلي أو أموري الخاصة، سأجد صعوبة في التحدث مع أي شخص يعرفني، سأذهب...

وبالفعل بعد أيام من البحث السري للأسف، لأني خجلت أن أخبر أحدًا أو أستشيره في الفكرة، وجدت نفسي أنتظر في عيادة طبيب نفسي، أتصفح مجلة كانت موضوعة أمامي، غالبًا أداري بها وجهي حتى لا يتعرَّف إليَّ أحد، أشاهد في الأفلام الأجنبية الطبيب أو حتى المعالج النفسي يحدد مواعيد وتكون الجلسة محددة الوقت منذ البداية، بل من قبلها، لكني أشعر أني أجلس في عيادة أطفال بالتأمين الصحي، البعض لا يتجاوز الخمس دقائق بالداخل، بدأت أشعر بالضيق من طول الانتظار، فكرت أن أقوم لأخبر الممرضة أني أجلس هنا من فترة ليست بالقصيرة، ردت عليَّ وهي تلوك لبانة كبيرة في فمها بطريقة مستفزة:

«كله بالدور يا حبيبتي وأنتِ كما ترين الزحمة كبيرة، لو تحبي ادفعي مستعجل».

مستعجل!!!!، هنا...!! في عيادة طبيب نفسي يوجد كشف مستعجل، بدأت أشعر أني في عيادة أسنان، وأن «نفسيتي» تؤلمني بشدة فلذلك يجب أن أدفع أكثر لأكشف أسرع، رغم أن ثمن الكشف الأولي كان مئتي جنيه، هل يكسب الأطباء كل هذا؟! بدأت أشعر بالحقد وأنا أفتح حقيبتي وأسألها في نفاد صبر: «كم؟».

ردت سعيدة لنجاحها في إتمام البيعة كأي رجل مبيعات محترم:

«١٠٠ جنيه إضافية».

وضعَت المال أمامها، وأنا أعرف غالبًا أن هذه المئة جنيه ستذهب إلى حقيبتها، بعد دقائق نادت عليَّ، دخلت وأنا أتوقع صوتًا هادئًا منخفضًا يدعوني للاسترخاء وسؤالي عن شكواي، لكن الطبيب كان عمليًّا أكثر من اللازم، الحجرة بالداخل كانت أفخم بكثير من وضع العيادة المزري بالخارج، دعاني للجلوس أمامه على كرسي عادي، وأسفاه... توقعت كرسيًّا مريحًا على الأقل لا شيزلونج،

ورجل بلحية يبدو عليه العمق والحكمة، لكن الواقع كان صادمًا، سألني باستعجال بدا في نبرات صوته:

«ما شكواكي؟».

شكواي!! فكرت ماذا أقول، أنا لا أعرف ما شكواي، أنا فقط أعاني من أرق، وصعوبة في النوم ومشاحنات مع زوجي، كرر من جديد...

«أيوة يا هانم، مما تشتكي؟».

أجبت في تردد...

«في الفترة الأخيرة أجد صعوبة في النوم، وأشعر بأرق في بعض الليالي، رغم أني أكون مجهدة».

حك ذقنة الحليقة في حكمة وهو يسأل:

«هل تشتكين من شيء عضوي؟».

أجبت بلا، خط بضع كلمات على ورقة أمامه وناولني إياها وهو يقول:

«الدواء الأول تتناوليه صباحًا ومساءً، والثاني قبل النوم، وأراكي بعد أسبوعين».

نظرت في الورقة وأنا أتساءل:

- هل انتهينا؟ مهدئ ومنوم؟!!

استغرب من معرفتي بالأصناف التي كتبها فسأل:

«أنتى طبيبة؟».

جاوبت في ضيق:

«لا، صيدلانية، كنت أتوقع أكثر من هذا، شيء آخر».

تراجع في مقعده الجلدي الفخيم أكثر مسترخيًا وهو يضع مؤخرة القلم على شفاتيره:

«شيء آخر؟ دواء آخر مثلًا؟ أو ربما صنف أو اثنان أكثر».

نهضت من مقعدي المتعب وأنا أضع ورقته في حقيبتي قائلة:

«لا أكثر ولا أقل، شكرًا».

غادرت المكان عازمة على ألا أعود إليه من جديد، تمنيت لو أستطيع انتزاع المائة جنيه، بل الثلاثمائة جنيه من أعينهم، هبطت السلالم ولم أنتظر المصعد، وفور خروجي الشارع وجدت آية زميلتي السابقة في وجهي، كل ما جال بخاطري لحظتها أن الحمد لله أننا لم نلتق داخل العيادة، فقد اكتشفت منها أنها مندوبة دعاية متأنقة لإحدى شركات الأدوية، وأنها قادمة لزيارة ذلك السمكرى النفسي بأعلى، تحججت بأني أتمشى قليلًا، وتبادلنا أرقام الموبايلات وسألتني:

«أنتِ على الفيسبوك؟».

أجبت في ثقة:

«بالطبع من زمان».

ضحكت بصوتٍ عالٍ ربما مبالغ فيه وهي تقول:

«لا أنا عضوة جديدة، فقط من بعد الثورة لم أكن أعرف عنه أي شيء من قبل، لكني عندي الآن ما يقرب من ألفي صديق، حتى أني وجدت صفاء وهند زميلاتنا من أيام الجامعة عليه».

رن جرس هاتفي المحمول، أشرف يتصل ليخبرني أنه سيتأخر قليلًا، غريبة...!!، ليست من عاداته أن يفعل ذلك، ليس خبرًا أريد سماعه في هذه اللحظة، أشعر بالتوتر... شعرت بالتوتر طيلة اليوم، وازداد بعد أن رأيت آية وشعرت أنها أفضل مني، رغم أنها لم تكن من قبل، هل دفنت نفسي في العمل الحكومي؟!! آية متأنقة ومتألقة، لا أستطيع المحافظة على هدوئي، لا أستطيع البقاء هادئة، هل أنا في حاجة إلى عودة زوجي إلى البيت لتهدئتي؟!، أم أن وجوده ربما هو ما يثير المشاكل، الأفضل أن أقضي بعض الوقت بمفردي، لا أعتقد...، دماغي يكاد ينفجر من كثرة التفكير، أعرف أن ليلتي ستكون مثل سابقيها بدون نوم، أو نوم متأرق، أشعر بضربات قلبي مضطربة، مثل عصفور حبيس يحاول الطيران والهروب من محبسه داخل قفص، سرت في الشارع، لم تكن الساعة تجاوزت السابعة، لكن الشوارع شبه فارغة بسبب الجو البارد والأمطار، أتابع السائرين في الشوارع، سائرون نيامًا، ربما عائدون من أعمال متأخرة، أو يهتمون ببعض الأمور الشخصية، الكل غارق في عالمه، وأنا مرهقة، عقلي مرهق قبل جسدي، هل أشعر بالنعاس...؟! لا أظن، أعتقد أنه شعور بالبرد أكثر، فلم يكن في مخيلتي أني سأتأخر حتى هذه الساعة...

أشعر بوخزات البرد عبر الجلد... كآلاف الإبر على جلدي المتحفز.

أشعر وكأن شيئًا دخل في عيني، الأضواء كثيرة من حولي كأنها لا تحتاج إلى مكان يقيدها لتنمو فيه، كأنها لا تحتاج إلى الموت ولا الموت يسعى إليها... هناك لغز في حياتي أشعر به لكني لا أراه، لا أفهم هذه الحياة من حولي وأظنها لا تفهمني أيضًا ولا تريدني أن أفهمها، أشاهد الوقت يتسرب من

بين أصابعي والدم ينزف من سني حياتي، من على بعد ألف ألف نظرة، أتلفت بعيني في الطريق، أرى الفتيات شابات يافعات يسرن من حولي، كالمهرات الصغيرات، لا يزال في عيونهن نظرات أمل، لا يدرون أن الفرص قليلة، ربما أحتاج لمزيد من الوقت للتفكير، مع ذلك احتمالية الوصول لحل أو نتيجة صعب.

مطلوب مني جبرًا الآن التعامل مع هزيمة لا تقهر، أعيش حياتي كما لو أنها حقيقية، لكن لا أشعر بذلك، أراها من على بعد ألف ألف نظرة، ومسافة ألف خطوة وخطوة...، لكن لا حيلة لي في السيطرة عليها...

لماذا لم يسألني أشرف أين أنا؟! لم يقلق عليَّ، ولم يفكر في سؤالي لم تأخرت، امممم... ، هو لم يعد أيضًا حتى الآن وأغلب الظن يعتقد أني في البيت، لم لا أجلس على أحد المقاهي كما كنت أفعل من قبل، أشعر بلسعة البرد تزداد على وجهي وتخترق ملابسي لتصل إلى ذراعي، لم أتردد...، اخترت أقربها إليَّ، سقطت على أقرب طاولة للباب... طلبت كاكاو ساخنًا، جلست أحدِّق في مَن حولي، أغلب الطاولات فارغة، احتضنت مشروبي الساخن بين أصابعي، أشعر ببخاره الدافئ على وجهي، أراقب قطرات المطر التي بدأت تسقط في الخارج، وتسيل على جدران المقهى الزجاجية، كل هذا المطر ولا زلنا في آخر أيام الخريف، كيف سيكون الأمر حين نبدأ في فصل الشتاء؟ كم أعشق مصر الجديدة، هل يخونني أشرف؟! ما الذي ذكرني به الآن؟ كيف أعرف إن كان يخونني؟ وإن كان... ماذا أفعل؟ هل أطلب الطلاق؟ هل أطرده؟ وكيف أكتشف؟ أعتقد أن زمن طلاء الشفاة الأحمر على ياقات القمصان، أو على المناديل القماشية انتهى، لماذا اختفت المناديل القماشية، أعتقد أنها كانت أفضل من الورقية الآن، هل تكون رسالة نصية؟ أو رسالة على الفيسبوك الذي اخترق حياتنا بلا هدف أو داع، ذلك هو السائر هذه الأيام، تلك هي النسخة المعاصرة من أحمر الشفاة، لا بد للخيانة أن تواكب التكنولوجيا الحديثة، هل أشرف يغلق هاتفه الجديد بكلمة سر؟ لا أعتقد... أنا لست خبيرة في تكنولوجيا الموبايلات الحديثة التي يغيرها كل يوم لكنني أجيد التعامل معها، أنا لم أبحث خلفه من قبل، لا أظن أنه يضع كلمة سر، هل لو يستخدم، أيكون عيد زواجنا؟ أو عيد ميلادي؟ لو كان لدينا أطفال، كنت اعتقدت أنه سيستخدم أحد أعياد ميلادهم، لماذا سيتأخر أشرف اليوم؟! ولماذا اتصل ليخبرني؟ هل لأنه سيعود متأخرًا جدًّا فلا يثير قلقلي، لكنه يثير ريبتي، لست من الزوجات الشكاكات، اللواتي ينقبن في أجهزة أزواجهن أو جيوبهن، أشعر بالغضب لمجرد تفكيري في هذه الأمور، سأقتله لو كان يخونني، سأتصل به وأسأله أين هو، ضغطت على شاشة الموبايل في عصبية، ثم تراجعت لا لن أفعل، سأعود إلى البيت، هل أسافر إلى عمتي في الإسكندرية؟ أنا لم أرها منذ وفاة أمي تقريبًا، سأركب القطار كما تعودت في سفري، نعم... أتحرك الآن إلى محطة مصر ربما ألحق آخر موعد للقطارات، خرجت مسرعة ولوحت إلى أقرب تاكسي، فمر دون أن يقف، ذلك الأحمق... ألم ير أني في عجالة، أشرت إلى آخر فأبطأ من سرعته ووقف بعد أن تجاوزني بعدة مترات، أسرعت وأنا أضع حقيبتي على رأسي بعد أن زاد المطر، أغلقت الباب والتقطت أنفاسي في سرعة ووجهت كلامي للسائق قائلة في ضعف يكاد يبكيني:

«شارع...، مصر الجديدة لو سمحت».

أمضيت أمسيتي جالسة على الأريكة أمام التلفاز في ترينغ شتوي ثقيل طويل الكمين ووضعت غطاءً للرأس آيس كاب على شعري، وفي قدمي جورب صوفي أبيض اللون بخطوط ملونة، بعد أن وقفت فترة طويلة تحت الدوش، قللت حرارة الماء تدريجيًّا حتى أجعلها أكثر برودة، ثم أكثر، سيكون صادمًا لو وقفت تحت شلال الماء البارد دفعة واحدة في هذا الجو، أشعر أن مخي يغلي من الأفكار المتلاحقة والمتصادمة داخله، سيكون الأمر صادمًا لو وقفت مباشرة تحت الماء البارد دفعة واحدة في هذا الجو، ربما يحدث لي brain freeze، الماء البارد يريح الجسد ويرخي الأعصاب، أرى البعض في الأفلام يملئون حوض الاستحمام بمكعبات الثلج مع الماء ويغوصون فيه، لكني لا أجرؤ على هذا، الماء البارد تدريجيًّا أفضل.

غُصت بجسدي في الأريكة وأنا أضع في رأسي قوائم بأفكار واستراتيجيات لما أريد أن أفعله، سأواجهه وأسأله، أشعر بالإثارة، الأدرينالين يتدفق في عروقي، أحس بالنخز في جلدي، والشعر انتصب واقفًا في قفاي كالدبابيس، ما هذا المجلس الاستشاري المكون من ٣٠ عضوًا الذي يتحدث عنه هذا المذيع!!

أكان تفجير خط الغاز الذي ينقل الغاز إلى إسرائيل والأردن للمرة السادسة أم السابعة؟

لا أبدو بخير...

عقلي يتربص بي ليلقيني من على أول أعلى حافة يلقاها للجنون، لماذا لم أسأل آية إن كانت تزوجت أم لا؟ لا... لا أعتقد أنها متزوجة... يبدو عليها أنها سعيدة، السعادة تُترك على باب الزوجية، أسمع صوت سلسلة المفاتيح ثم أحدهم يخترق كالون الباب، لقد عاد السبع... سبع البيت، بعلي، سأهاجمه ولن أترك له فرصة، نهضت لأستقبله، لماذا لم أتحدث مع أدهم؟!! ما هذه الصناديق الورقية المرصوصة جوار الباب؟ يبدو أنها أدوية، سألت وأنا أشير بعصبية إلى الصناديق متوسطة الحجم التي يرتبها جوار الباب:

«ما هذا؟».

أكمل ترتيب الصناديق دون أن يرد عليَّ إلا بعد أن انتهى وأغلق الباب في ضيق وبابتسامة سخيفة قال:

«مساء الخير أولًا يا حبيبتي، ثانيًا هذه كراتين أدوية سيبقوا معنا هذه الليلة فقط، وسأوزعهم غدًا».

رددت في عصبية:

«لماذ تكلمني بهذة الطريقة المستفزة، ثم بيتي ليس مخزنًا، ولماذا تأخرت؟ وما هي هذه الأدوية؟».

سألته وأنا أتوجه إلى الصناديق أفتحها، فوقف أمامى حائلًا بيني وبينها، وهو يحاول أن يجذبني للداخل قائلًا:

«تأخرت لأني كنت في انتظار الرجل الذي أحضر لي هذه الأدوية، كان قادمًا من دمياط وتأخر بسبب المطر والجو، وقبل أن تسألي كنت في انتظاره مع د.أحمد برهان ود.ناصف سند، إن كنتي تحبى أن تتصلي بهما لتتأكدي من حديثي».

أفلت ذراعي من بين يديه، وعدت للصناديق مصممة على أنا أفتحها، وأنا أقول:

«أنا لم أسألك مع مَن كنت، ولا بد أن أعرف ما في هذه الكراتين».

حاول أن يجذبني مرة أخرى فدفعته عني، وحاولت أن أستدير فارتطمت بالصناديق المرتبة فوق بعضها، فانقلبت الأولى من أعلى الرصة وانفرطت الشرائط المجمعة مجموعات بأساتك على الأرض، لطمت على صدري كما يفعل النساء في تلك المواقف صارخة:

«ترامادول؟! أحضرت ترامادول معاك للبيت؟!! تتاجر في الترامادول... مخدرات... في بيتي مخدرات».

أمسكني من ذراعي الأيسر وجذبني للداخل وهو يحكم قبضته عليَّ - ذلك اللعين قبضته قوية - دفعني أمامه دفعًا إلى غرفة الاستقبال، وتركني كأنه يلقيني، وهو يصرخ فيَّ بصوته الغليظ وقد اتسعت عيناه:

«أخفضي صوتك لا تفضحينا في العمارة... مخدرات إيه... هذه تجارة... تجارة أدوية».

كنت أحاول أن ألكمه بقبضتي الضعيفة في صدره العريض وكرشه الذي صار ضخمًا، فكانت تطيش في الهواء، لو أصابته لكمة سيردها عليَّ بواحدة تقضي عليَّ، قلت في غضب:

«لا... جدول أول... تبقى مخدرات... وأحضرتها للبيت متأخرًا كي تتستر بالليل، لو كنت...».

قاطعني ملوحًا بيديه:

«بلا كنت بلا لم أكن... دعيني أقلها أنا لكي، نعم... أنا أتاجر في الترامادول... أتاجر في المخدرات... عندك التليفون بلغي عني... وأنتِ شريكتس لأن الشقة ملكك».

ثم تركني ودخل غرفة النوم وأغلق الباب خلفه في قوة، وقفت مشدوهة... حائرة... أكثر توترًا من قطة يتحرش بها قط أجرب بين أكوام القمامة، ماذا فعلت؟ هل أنا غاضبة بسبب نوع الدواء الذي يتاجر فيه...؟ ترامادول!! أعرف أنه مخالف للقانون، لكن هل هو سبب شجاري، أم هو سبب للتمرد على وضعي وحياتي الرتيبة، وضيقي منه، لماذا صرخت وانفعلت؟ لماذا أنا وحيدة؟ لما لم

ألجأ إلى عمتي من قبل؟ لم لم ألجأ إلى أدهم؟ نعم... سألجأ إليه، غدًا أفعل، أتحدث معه كصديق، سيظن أني مجنونة، أكاد أشعر بملامح وجهي تصيح أنا مجنونة، أنا متوترة... ماذا أفعل، ليست أول مرة أتشاجر مع أشرف وفي كل مرة أشعر بقليل من ندم أو تسرع، لماذا لا يشعر هو بذلك أيضًا، هل يشعر لكنه لا يبوح، أم مكتوب عليَّ فقط ذلك، ليلة نابغية أخرى أقضيها متأرقة، تفكير... عناد... غضب... دموع... تراجع... ندم... بكاء... رفض... لا هو المخطئ... كل مرة هو المخطئ، هل كان الكاكاو الساخن الذي شربته بالخارج أفضل مما أحضره في البيت؟!!

يبدو أنني أهلوس، أشعر بالإرهاق... أنا متعبة... أريد أن أنام، يجب أن أنام...، لم أنم منذ أيام، أكره هذا، أكره الأرق أكثر من أي شيء آخر، أكره استلقائي على السرير دون فائدة، وذهني يدور ويتحرك في كل مكان، كان من الأفضل أن أشتري منومًا فعلًا، أو مهدئًا على الأقل، الزاناكس كان ليعتبر حلًّا مضمونًا في هذا اللحظة.

إنني لا أتعلم أبدًا...، استيقظت مع ذلك الإحساس الساحق بأنني فعلت شيئًا خاطئًا أو غبيًّا، ذلك الإحساس بالـ...!! بالعار، لقد فعلت شيئًا غبيًّا، لا لم أفعل... ألا يهدأ عقلي قليلًا، فمي جاف كصحراء الربع الخالي، أنقلب إلى جانبي الأيسر ليصير وجهي قبالة النافذة، الستائر مسدلة، ينفذ من خلالها ضوء الصباح، أضغط على أجفاني بأصابعي أدعكها لتخفيف ما بعيني من ألم، وقفت أمام المرآة في الحمام، عيناي حمراوان من بكاء الأمس وتأرقه، فنجان القهوة ونضارة شمسية رغم الجو الممطر والسماء الملبدة بالغيوم سيخفون آثار السهر والعينين الحمراوين.

انتظرت حتى موعد نزول أدهم، تحرك في سرعة ناحية سيارته على غير العادة، لكني لحقت به وهو يدخل سيارته، أفرك في أصابعي كطفلة مراهقة وأنا متجهة ناحيته، ماذا أفعل؟ ما الذي أتى بي في هذا الموقف، يا إلهي لقد نسيت ارتداء النظارة الشمسية، سيعرف من شكل عينيَّ أني كنت أبكي طوال الليل، ماذا أقول؟ ماذا أقول؟ نعم... أقول كما يفعل الناس في الصباح:

«صباح الخير، كيف حالك؟»

أجاب في سرعة:

«الحمد لله».

يبدو أنه على عجلة من أمره، هل هذا وقت مناسب، هل أطلب منه وقتًا آخر أتحدث معه فيه، عماذا سأتحدث؟ عن الترامادول أم عن ضيقي من حياتي، أم عن الضغط العصبي الذي أشعر به باستمرار، أم عن الأرق والتوتر الذي أحيا معهما ويعيشان معي كأوفى الأصدقاء، أم عن... ماذا أفعل هنا...، قاطع سيل أفكاري المضطربة سائلًا:

«ما بكِ؟ هل أنتِ بخير؟ زوجكِ بخير؟».

هاه... زوجي، لا بد أن أهرب من هذا الموقف الذي وضعت نفسي فيه، لماذا لم أذهب لمعالج نفسي بدلًا من طبيب نفسي، ربما كان سيستمع لي، جاوبته في سرعة محاولًا إنهاء الموقف والهروب منه:

«لا شيء كنت أطمئن على أحوالك».

انصرفت وأنا أشعر بنظراته المتعجبة من حماقتي كأسهم تضربني في ظهري، يالغبائي، ماذا فعلت؟... ماذا فعلت؟ أخرجت النظارة من حقيبتي وارتديتها، سأذهب بالترماي للعمل اليوم، لا أستطيع القيادة.

هل يقف الترماي في إشارات المرور؟ لماذا لم أنتبه إلى هذا الأمر من قبل... أظنه يفعل...!!

مضى الترماي قدمًا في بطء، عجلاته تكشط القضبان الحديدية من تحته مصدرة صريرًا محببًا إليَّ، أسندت رأسي إلى نافذة العربة، ورحت أنظر إلى العمارات التي تظهر وتختفي أمامي، صوت موبايل يرتفع رنينه من حولي، ما هذه النغمة؟ لماذا تأخر صاحب الهاتف في الرد؟ صوت أغنية غريبة يبدو على مغنيها أنه سعيد، لم لست سعيدة مثله؟ الشمس ظهرت أخيرًا من وسط الغيوم، أنا لست الفتاة التي كنتها من قبل، أشعر أني منفرة، ليس لأني ازداد وزني قليلًا، بل أشعر أن الناس يرون الضياع والتيه الذي أشعر به داخلي، يرونه في ملامحي، في تصرفاتي، في حركاتي، أنا هشة... ضعيفة... وحيدة رغم وجود بشر من حولي، أشعر أني على حافة الانهيار أو الانفجار، تتساقط أيامي فارغة مليئة بالفشل، لا أدري كيف وصلت إلى هذه المرحلة، وما الذي أوصلني إليها؟

في صيدلية المستشفى الكل ينظر إليَّ...

من الواضع أنه مكتوب على وجهي أمرٌ ما، ربما يعتقد بعضهم أن عقلي صار مختلًّا، لأني أرى ذلك على ملامحي في المرآة، أهرب بعيني من نظراتهم التي تحاول أن تقحم نفسها في حياتي، أشعر برغبتهم في السؤال عما بي، ليس للاطمئنان... أعرف ذلك، إنه الفضول...

اقتربت مني إحداهن سائلة:

«هناك شيء مختلف فيكي اليوم، ما بك؟ ولماذا نضارة الشمس بالداخل هنا؟!!

أرى الفضول يخرج من عينيها، يكاد يقتلها لتعرف لماذا؟ أكاد أرى التفسيرات من نظراتها، زوجها ضربها وعينها زرقاء، وجفونها محمرة من البكاء طوال الليل، رددت في ضيق:

«لا شيء».

تابعت في إلحاح:

«أكيد هناك شيء ما، يبدو عليكي...».

اعتدلت صارخة في غضب وأنا ألوح بعلبة دواء كانت في يدي أقاطعها:

«قلت لا شيء... لا شيء... لا شيء...».

فابتعدت خائفة من أن أرميها مباشرة في رأسها بما في يدي.

الكل يحب أن يعرف أسرار من حوله دون أن يكشف أسرار نفسه، إنهم يعشقون سماع أخطاء وخطايا غيرهم، ليحوقلوا ويبسملوا ويتعجبوا من إرادة الله، لماذا لا يبقى كل شخص في حياته، يريدون سماع مشاكل غيرهم ليصفون حلولًا غبية يعتقدون بها أنهم العارفون ببواطن وخبايا الأمور وأسرار الحياة.

إيقاع العمل رتيب ممل، أعين المرضى لا تختلف عن أعين زملائي في العمل، «هل أنتِ بخير يا أبلة؟!» وما شأنكِ بي أنتِ إن كنتُ بخير أم لا، هل أصبحت من بقية عائلتكِ لأني أصرف لك دواءً، ثم أنا لست بأبلة، ما الذي أفعله هنا، ما الذي أتى بس في هذا اليوم، لم يكن من المفروض أن آتي اليوم، لم يكن من المفروض أسي شيء، تركت مكاني وخلعت معطفي الأبيض وألقيت به على أقرب منضدة، وتوجهت لمديرة الصيدلية، أشكو تعبي ورغبتي في الرحيل مبكرًا، لم تتردد في القبول، ولم يكن لها حرية الاختيار؛ لأنها لو رفضت سأرحل رغمًا عنها ورغم رفضها.

خرجت إلى الشارع، سرت في خطوات بطيئة بساقين كأنهما من رصاص تحت السماء التي امتلأت بالغيوم، وتحت قطرات المطر التي بدأت في النزول، ربما تطفئ الأمطار الحنق بداخلي والغضب المستعر بين ضلوعي وفي حنايا نفسي، أين أذهب؟ لا أريد العودة للبيت، أود أن أركض... أهرب... أبتعد عن الناس والحياة التي أحياها، أتمنى لو يختفي العالم كله من حولي، أريد الهدوء، أحتاج أن أشعر بهدوء العالم من حولي ربما ينفذ ذلك داخلي، وأحصل على السكينة والهدوء الذي أتمناه، أتمنى لو يصمت عقلي، لو تقلّ حدةُ المشاعر المضطربة بداخلي، ذلك حلم صعب المنال، وجدت نفسي على مقعد الترماي عائدة للبيت، وفي الترماي جائتني الدموع، لم أعبأ بأن ينظر الناس إليَّ، ربما يتحسَّر عليَّ البعض، وربما يظن آخرون أني أذنبت ذنبًا عظيمًا، لم أستطع منع ذهني من الذهاب هنا وهناك، أقلب في صفحات حياتي، أحزن على أشياء مضت لن تعود، وأشياء لم تحدث كما أردت، وأشياء كنت أتمنى حدوثها، أشعر بالضياع طيلة الوقت، بفقدان الاتجاه أمضي وقتًا أطول من اللازم داخل رأسي، عقلي لا يكف عن التفكير، في حلقي غصة صلبة كأنها حجر... معاندة، بالكاد أستطع ابتلاع ريقي، لا أستطيع الكلام، ولا أريده... لا أحد أتكلم معه، مرهقة أنا كعصفور مريض مبتل في يوم عاصف بارد.

غلبني النعاس لحظات، أظن أني تجاوزت محطتي، سأعود مشيًّا، لست في شوق على أية حال للعودة إلى بيت أجلس فيه وحيدة، أو أغسل فيه الأطباق، أعرف أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشر بعد دون أن أنظر لساعتي، أعرف من ضوء النهار، هناك صوت دراجة آلية صوتها يعلو ويعلو يصم أذني، في الشارع امرأة تدفع عربة أطفال أمامها، لم أستطع المرور بجانبها على الرصيف، فنزلت إلى الشارع، كادت تصدمني سيارة جاءت مسرعة من خلفي... لم أرها أبدًا قادمة، ولم أنتبه

إليها قبل نزولي عن الرصيف، أطلق سائقها نفير السيارة في قوة وهو يسبني بأفظع ما في قاموسه، كان قلبي يخفق في سرعة، أشعر بانقباض في معدتي كما يحدث عندما أتناول قرص دواء وأنا موشكة على التقيوء، إحدى هجمات الأدرينالين التي تجعل المرء يشعر بالغثيان والإثارة والخوف معًا، تابعت طريقي جريًا وأنا أسمع صوت المرأة يبتعد وهي تسألني في خوف واهتمام...

«هل أنتِ بخير؟ هل حدث لكِ شيء؟».

تلاحقت أنفاسي مع الجري وسالت دموعي على خدي من تحت النظارة الشمسية الكبيرة التي أرتديها، هل لأني كدت ألقى ربي منذ دقائق، أم بسبب مشاكلي، أم بسبب تأرقي وتعبي الجسدي والنفسي... أم لكل هذا معًا.

أنا في حاجة للراحة... لكن أين هي؟!!

دخلت البيت، أغلقت الباب خلفي وأسندت رأسي عليه، ودموعي تبلل وجنتي، الصناديق الورقية لا زالت في مكانها، كنت أتمنى أن يكون البيت ملاذًا سعيدًا ألجأ إليه بعد تعب يومي، أجلس فيه مع زوجي، نشاهد التلفاز، نأكل أمامه بعض الأحيان، لا مانع من ممارسة الجنس بعد الظهيرة، لماذا دائمًا يرغبني زوجي فقط بالليل؟! أجلس على أريكتي دافئة غير راغبة حتى في الخروج للسير في الشارع، أو الذهاب للعمل... أنا لا أحب عملي من الأساس، لكن كل هذا لم يحدث، أفتقد عيشة وحياة لم أرها إلا في مخيلتي.

اتصلت بالصيدلية وطلبت منهم علبة زاناكس، رفض في البداية متشككًا، ربما لأن صوتي مضطرب وبالتأكيد يحمل الكثير مما في داخلي، لكني ذكرته بنفسي، فقد كانت أمي معتادة طلب كل أدويتها من تلك الصيدلية، فأخبرني أنه سيرسل لي شريطًا واحدًا فقط، انتظرت حتى أتى عامل التوصيل، ثم وقفت تحت شلال الماء البارد المنهمر عليَّ، أحاول أن أستمتع بالماء المتدفق على جسدي، ربما يزيل بعضًا مما في صدري، زدت الماء البارد تدريجيًّا كما أحب، لكن هذه المرة كنت أغلق الماء الساخن، حتى أصبحت المياه كشلال متجمد يرتطم بقمة رأسي، أشعر بالدم في يأفوخي يكاد يتجلط، وبأطراف أصابعي تبيض، خرجت من تحت المياه وأسناني تصطك في فمي ببعضها، ألقيت جسدي على أريكتي وأمسكت قرص الزاناكس الوردي الباهت بين أصبعي، نصف جرام من البرازولام (Alprazolam) ينتمي إلى عائلة البنزوديازيبين مثبط للجهاز العصبي المركزي، لماذا لازلت أذكر تلك الأشياء في تلافيف عقلي رغم أني لم أعد أستخدمها منذ تخرجي؟!

ابتلعت القرص بقليل من الماء وجلست أتابع رشدي أباظة في التلفزيون يحاول تركيب فاتح الفم للبنى عبد العزيز، عقلي لن يحتمل أي أخبار مهما كانت تافهة، سأجلس أمام الفيلم حتى أنام.

مرت الدقائق رتيبة أكاد أسمع حركة الساعة المعلقة على الحائط رغم صوت التلفاز، عيناي ثقيلتان، مع ذلك لا أنام، أمسكت العلبة وقرأت التركيز عليها، ثم تأكدت من أن الشريط ينقصه قرص، لقد

أخذت القرص بالفعل، قذفت آخر إلى بلعومي وأتبعته ببعض الماء وبدأت أتابع فيلمًا آخر يبدأ، يبدو أن إسماعيل ياسين اتخذ القرار الصحيح باختياره الحياة داخل مستشفى المجانين في هذا الفيلم.

انتصف الفيلم وانتصفت الساعة الرابعة بعد العصر، وأنا لازلت جالسة، وعيناي على وضعهما الثقيل، لا ينغلقان ولا أقدر على فتحهما، هل الدواء مغشوش، بدون تفكير أخرجت قرصين آخرين من الشريط وابتلعتهما دون ماء.

هناك شخص يصرخ بالخارج ينادي على أحدهم، صوت المطر شديد يكاد يخترق النوافذ المغلقة، يبدو أنني غفوت، رغم أني لا أشعر بأي راحة في جسدي أو حتى في عقلي ولم يخف ثقل جفناي، لا بد أن الوقت بات ليلًا، أعرف ذلك من الظلام الذي يبدو خلف الستائر، قناة الأفلام الكلاسيكية مستمرة في عرض أفلامها الواحد تلو الآخر، ألمح خيالات تتحرك على شاشة التلفاز الذي لم يغلقه أحد، رأسي يؤلمني، ريالتي جافة على فمي وشفتي، وكثير منها سال على الأريكة بجانب رأسي، الدوار يغلف رأسي رغم أني في وضع مائل على الأريكة، أشعر ببرودة شديدة في أطرافي، وكتفي، أصابع يدي اليمنى تحت رأسي مخدرة أكاد أفشل في تحريكها، أسمع صوت حركة قادم من المطبخ، يداهمني الدوار من جديد وأنا أحاول أن أنتصب واقفة، سيقاني رخوة كقنديل البحر لا تكاد تحملني، سرت متسندة على أثاث البيت وجدرانه، أرتطم بها أحيانًا وأنا أدعك جبهتي بيدي الأخرى علّني أنتبه أو أفوق قليلًا، رأيت أشرف في المطبخ يفعل شيئًا ما لم أستوضحه، سألت:

«ماذا تفعل؟»...

دارى ما كان في يده ربما كانت علبة متوسطة الحجم أو شيئًا يشبه ذلك في دولاب المطبخ في سرعة، وهو يلتفت صارخًا في انزعاج:

«أليس من المفروض أن تكحي قبل أن تفزعيني هكذا؟ غبية».

ماذا يقول؟! هل يسبني أنا...!!

«كيف تجرؤ على سبي هكذا؟ وما الذي أخفيته؟»

صارت لهجته أكثر حدة وهو يقول:

«لا شأن لكِ بما أفعل أو أخفي... اهتمي بنفسك أولًا... انظرى كيف صرتي... أنتِ سكرانة؟ ضاربة حاجة... إياكي أن تكون أخذتي من الترامادول».

ضربته بقبضتي في وهن على صدره، وأنا أكاد أرى الصورة أمامي مهزوزة مشوشة...

«أنا... ترامادول!! يا تاجر المخدرات...، أريد أن أرى ماذا أخفيت».

أمسك كلا ذراعي في سهولة ودفعني للخلف، ثم أمسكني من شعري يهزني في قوة، دارت لها الدنيا من حولي أكثر، وهو يقول في استخفاف...

«سئمت منك ومن غبائك... من تحكمك ومن توهانك المستمر... اهبطي إلى الواقع وانظري كيف تعامل النساء أزواجهن، امرأة غيرك كانت تقبل يدها بل وتقبل قدمي لأني أستحملها».

كل الرجال يقولون نفس الكلام، يرون أنهم يفعلون كل شيء كما ينبغي، والتقصير والفشل من نصيب المرأة فقط، وكل أخطاء الحياة تحملها على عاتقها دون أن يكون لها حتى حق الرد أو الدفاع عن نفسها.

ظل يهزني ويطوح في رأسي حتى ارتطمت بإحدي رفوف المطبخ، دارت بي الدنيا أكثر، تسندت على الرخامة الكبيرة وأنا مترنحة على طاولة المطبخ، شقت يدي طريقها عليها تتحس الرخامة حتى اصطدمت بسكين كبيرة موضوعة في الحامل الخاص بها، نزعتها وأنا ألتفت أطوح بها في وجه الرجل الذي يُفترض أنه زوجي، طوحت بها يمينًا ويسارًا أمامي وأنا تقريبًا لا أكاد أبصر، رأيته يتراجع، أصابه الجُبن من رؤية السكين في يدي، رأيته يتقهقر خطوتين أكثر للخلف وهو يمسك رقبته التي خرج منها شلال متدفق من الدماء، هل أصيب، ظل يتراجع حتى اصطدم بباب المطبخ، وهويت أنا على الأرض في مكاني.

الأرض بارده جدًّا، أطرافي تكاد تكون متصلبة، أشعر بشيء ما... شيء غريب... شيء سيء، كان هناك شجار، أصوات مرتفعة، صراخ، قبضات، حدث شيء ما... أشعر أنه حدث، هل كنت أحلم؟! أشعر بجرح في شفتي، أكاد أتذوق طعم الدماء... نعم، أشعر بوجود طعم الدم في فمي، فتحت عيني بصعوبة لأرى سكينًا بين أصابعي عليه دماء، ألقيته في سرعة وخوف وأنا أسند على كوعي لأرفع جسدي قليلًا على الأرض، وشعري منثور على وجههي، لمحت قدمي أشرف أمامي، كان جسده هامدًا، قدمه ناحيتي داخل حدود جدران المطبخ، وبقية جسده خارج حدود غرفة المطبخ غير ظاهرة، وقفت بصعوبة وأنا مترنحة لا أعرف إن كان من بقايا أثر الزاناكس أم من هول الموقف الذي أصبحت فيه، ملتُ على جسد أشرف أهزه في رفق، فلم يستجب، تحركت من الناحية الأخرى، كان وجهه نائمًا وسط بركة صغيرة من الدماء، دماؤه...، وعيناه شاخصتان تحدقان في اللا شيء، وضعت يدي على فمي أكتم شهقتي، لم يكن حلمًا...، لم يكن حلمًا...، لقد قتلته، تراجعت للخلف فسقطت، تراجعت للخلف زاحفة حتى ارتطمت بالحائط... أنفاسي تتلاحق، ماذا أفعل؟! لقد كنت أدافع عن نفسي، نهضت مسرعة من مكاني، وقفت لحظات تائهة ثم جريت لغرفة النوم سحبت اللحاف من فوق السرير وعدت به وألقيته على الجثة، دون أن أدري لما فعلت هذا، ثم خرجت إلى الشارع، جريت تحت الأمطار حافية القدمين في خطوات مترنحة، وقفت لحظات أدور حول نفسي وقطرات المطر تغرقني، ثم عبرت الطريق الخالي من أي حياة في تلك الساعة إلى بيت أدهم...

أشعر أن المسافة صارت عدة كيلو مترات دفعة واحدة، وقفت أمام باب شقته أحاول التقاط أنفاسي، رفعت يدي كأنها تحمل خطايا تاريخ الأرض كلها وضغطت جرس الباب.

مصطفى...

أكره الشتاء والمطر وهذا الجو البارد الخانق، الذي يملأ الأرض طينًا ومياه متسخة، يجعل سيارتي قذرة تشمئز منها الحيوانات، لماذا نحن فقط الذي تتسخ شوارعنا مع الشتاء والمطر، ولسنا مثل أوروبا نجد الشوارع غُسلت والأمطار زادتها بهاءً ولمعانًا، أسمع منذ صغري الناس يقولون إن المطر يأتي بالخير... لكني لا أراه، لا أشعر بهذا أبدًا، أين هذا الخير؟! والمطر يحبسنا في بيوتنا والبرد يجعلنا متدثرين بنصف ملابسنا، وخروجنا يصبح في هذا الجو معاناة.

وما زادنا خبالًا ما حدث في العام الماضي ومازلنا نعاني من آثاره حتى الآن، يوم أن خرج بعض الرعاع الفاشلون ينادون بحرية، أي حرية يريدونها وهم لا يدرون معناها، كل شخص فيهم ينادي على مصلحة شخصية له، متدثرًا بعباءة الوطنية وحبه للوطن، أغلبهم كانوا عاطلين وفي ظرف عدة أشهر أصبحوا ميسوري الحال وأصحاب مكاسب مالية واجتماعية، يتاجرون بدم من ماتوا، ليحصلوا على المزيد والمزيد، تحت شعار الثورة مستمرة، لعنهم الله وأخذهم، دمروا أحوال البلد المستقرة، وزادوني أنا اضطرابًا وخوفًا كل يوم أعود فيه للمنزل، خاشيًا أن يوقفني أحد اللصوص ليسرقني ويسرق سيارتي وكل ما معي.

كالمعتاد لم تحضِّر نادية أي طعام للغداء، تقريبًا تعودنا على طلبات الطعام الجاهزة، طلبنا الطعام من ساعة ونصف تقريبًا، ورد عليَّ شخص ما هناك، وأكد لي أنه سيصل في نصف ساعة، وبعد ساعة أخرى أكد لي من جديد أن ما طلبته في الطريق وسيصل أيضًا في نصف الساعة.

مضت ساعتان حتى دق جرس الباب ففتحت غاضبًا، ورددت في سخط كلمات تحمل ضيقي وسخطي على عامل التوصيل:

«ساعتين حتى تصل بالطعام، كان أسهل عليَّ أن أنزل وأحضره بنفسي، لن أستلم هذا الأكل».

ظهرت علامات فزع قليلًا مصحوبة باضطراب على ملامح الفتى الشاب وهو يقول:

«أعتذر عما حدث، التأخير لم يكن بسببي، والطرق أيضًا كانت مزدحمة، سيخصمون هذا الطلب من».

جذبت كيس الطعام من يده في غضب أكثر، وفضضت الأوراق من حولي، وتحسسته، فوجدته باردًا، كومت الكيس من جديد ودفعته إليه مرة أخرى وأنا أقول:

«الطعام أيضًا بارد... بارد، كيف أستلمه بهذا الشكل؟!!».

أخرجت هاتفي المحمول وطلبت رقم المطعم، وصرخت في وجه من هاتفني فور أن رد عليَّ:

«طلبت طعام منذ أكثر من ساعتين، وقلت لي ثلاث مرات أن الطعام سيصل في نصف ساعة، ولم يحدث، ولما وصل وصل باردًا، سأعيد لكم ما طلبته مع عامل التوصيل ولن أدفع مليمًا أحمر».

رد عليَّ من يحداثني في الطرف الآخر في هدوء مستفز:

«أمامي موعد طلبك للطعام وهو من أقل من ساعة تقريبًا، أي تقريبًا لم يصل ما طلبت متأخرًا كما تقول».

زادتني طريقة ردِّه عليَّ غضبًا:

«إذن أنا كاذب».

«عفوًا لم أقل هذا، لكن توقيت ساعة الطلب مدونة أمامي».

طريقته زادتني استفزازًا فصرخت فيه ثم أغلقت الهاتف في قوة، ودفعت عامل التوصيل أمامي من الباب وخرجت وأنا أغلق الباب خلفي، لم أنتظر أن أطلب المصعد، هبطت على السلم مباشرة، رأيت أدهم يقف أمام باب السيدة ماري العجوز، لم ألق عليه التحية، لم أعتد ذلك، ولسنا بأصدقاء لأفعل، هبطت الدرجات في سرعة واتجهت لسيارتي، ركبتها وأغلقت الباب في قوة، أدرت موتورها وضغطت على دواسة الوقود منفعلًا لأنطلق في قوة كما يقولون بحركة أمريكاني، ربع ساعة وكنت أقف بسيارتي أمام المطعم، دفعت بابه في غضب ودخلت أهتف:

«أين صاحب المطعم، أريد المسئول هنا».

أتى ناحيتي في سرعة أحد العاملين مرتديًا بذلة وببيونا أسودين، حاول تهدئتي وطلب مني ألا أرفع صوتي احترامًا للمكان والزبائن الجالسين، رفعت صوتي أكثر وأنا أطلب صاحب المطعم، تجمع ثلاثة أو أربعة من النادلين حولي مع صاحب الببيون الأسود، مرت دقائق قليلة حتى ظهر رجل ضخم الجثة، ذو شارب يملأ نصف وجهه، وعينين حمراوين، ونطق في صوت أجش ربما مما يتعاطه من حشيش قائلًا:

«نعم يا بك، أنا صاحب المطعم، ماذا تريد؟ أي خدمة؟».

حكيت له ما حدث من أول الأمر، وأخرجت هاتفي وأريته التوقيت الذي طلبتهم فيه لأطلب الطعام، وما حدث من تأخير، ومن وصول الطعام باردًا، أنهيت كلامي وحديثي الغاضب وهم مازالوا حولي، رد علي من ادعى أنه صاحب المطعم قائلًا:

«وماذا تريد الآن؟».

للحظة توقفت وقلت لنفسي ماذا أريد؟ ما الذي جعلني أخرج من بيتي وآتي إلى هنا؟ نطقت مترددًا:

«هاه!! ماذا أريد؟!!... أريد أن تحترموا مواعيدكم وزبائنكم».

رد عليَّ في لامبالة صاحب الصوت الخشن الأجش:

«هذا نحن، وافعل ما تريد...».

تابع وهو يدفعني بظهر كفه في كتفي:

«دعني أخبرك أيضًا... أعلى ما في خيلك اركبه... أخرك افعله... هيا مع السلامة طريقك أخضر».

دفعني صاحب الببيون الأسود مع صبيانه الندلاء خارج المطعم وأنا أصرخ فيهم مهددًا ومتوعدًا:

«أنتم لا تعرفون مَن أنا، سأغلق لكم هذا المطعم، يا مجموعة لصوص يا أولاد الحرامية يا أوساخ».

دفعوني دفعًا، تقريبًا ألقوني للخارج ناحية سيارتي، تحركت بها مبتعدًا وأنا أشتعل من داخلي، أخرجت هاتفي وطلبت العميد هاني المليجي صديقي، رد عليَّ متثائبًا، دخلت في الحديث مباشرًا وحكيت له ما حدث معي، حتى انتهيت، طال صمته ولم يرد عليَّ، فسألت:

«هاني هل مازلت معي على الخط؟؟».

رد في هدوء:

«نعم... نعم معك على الخط، ماذا تريد الآن؟».

رددت متعجبًا:

«ماذا أريد؟!! أريدك أن تحضر لي حقي من هؤلاء الرمم الذين أهانوني».

تنهد في ضيق وهو يقول:

«هو في حق هذه الأيام؟! ألا ترى البلد كيف أصبحت، أنا نفسي لم أعد أستطيع أن أطالب بحقي، الناس ترمينا ببقايا الطعام ونحن في عربات الشرطة، أتريدني أن آتى معك إلى المطعم حتى يضربونا معًا، لو كنا من سنة مضت كنت أرسلت أهيف أمين عندي وأغلقت لك هذا المطعم، لكنك تعرف ما آلت إليه أحوال البلاد، هدئ من نفسك وعد إلى البيت وانس ما حدث، سلام الآن وسأتصل اطمئن عليك فيما بعد حين تهدأ».

عدت إلى البيت غير مصدق ما تعرضت له، قابلتني نادية مستغربة من هيئتي الرثة، وسألتني ماذا حدث؟ فرددت في ضيق:

«لم يحدث شيء، صرخت فيهم ولعنت أهاليهم وتركتهم وعدت».

دخلت غرفة نومي وخلعت ملابسي، وأشعلت سيجارة أمتص دخانها في شبق، عله يملأ صدري ويخرج ما بي من ضيق وتوتر، لحقت بي نادية تسأل:

«لماذا لم تحضر معك طعامًا؟ لا يوجد أي طعام في البيت».

«جهزي أي شيء أنت سيدة البيت، اقلي بيضتين، افتحي علبة تونة، اتصرفي».

هتفت متبرمة:

«سيدة البيت!!! أي بيت؟!! ألم يكفيك أني تحملتك الفترة الماضية لقد وعدتني بحياة أفضل ومستوى معيشي أفضل، ولم تنفذ أي مما وعدتني به، حتى عمك الغني اكتشفت بعد زواجنا أنه لا يعطيك سوى مرتبك، الذي لا دخل لك غيره، لقد خدعتني لكني تحملتك على أمل أن يتحسن حالنا يومًا ما، أو حتى يموت عمك وترثه، ولم يحدث شيء، والآن تقول لي أنتِ سيدة البيت اتصرفي، لا لن أتصرف... أقل لك ما هو أفضل... سأترك لك البيت وكن أنت سي السيد فيه بمفردك، لن أبقى معك دقيقة واحدة...».

اختفى صوتها من حولي وأنا أسبح بين دخان سيجارتي المشتعلة أمام عيني الذي أشعر فيهما باحتراق داخلي، الحياة تثير حنقي كل يوم عن اليوم الذي قبله، لا أعرف ماذا جنيت لأستحق كل هذا الذي يحدث لي، لما أضاع أبي ما ورثه عن جدي وتركني على بقايا إرثه، وعمي البخيل غارق في أمواله دون أولاد، ولا يعطيني سوى مرتبي الذي لم يعد يكفيني لمنتصف الشهر منذ أن تزوجت نادية.

أعرف أن ملامحي ليست بالجاذبية اللازمة لتجذب لي فتاة متوسطة الجمال، ولست حتى صاحب قوام رياضي أو ممشوق لأجذب فتاة متوسطة الجمال حتى تتزوجني، لم أكن أبدًا ضمن حسابات أي فتاة قابلتها من قبل طوال حياتي، كنت مجرد شخص موجود في الصورة أمامها، ليس لي صفة، أفقت من شرودي على صوت نادية التي لم تكف عن صياحها تصرخ في:

«أنت سمعنى؟!!!»

أجبت شاردًا دون قصد:

«نعم يا حبيبتي أسمعك».

جذبت حقيبة يدها من على السرير، وهي تقول:

«أنت لا تسمعني ولم تسمعني من قبل... كان الأفضل لك ألا تتزوج وتعيش وحيدًا، حتى لا تهين بنات العائلات معك».

اتجهت ناحية الباب غضبى تواصل صراخها، وأنا أهرول خلفها في فزع من فكرة أن تتركني وترحل، تلك المرأة تعرف أنها تحكم قبضتها على قلبي، كل مرة نتشاجر فيها وتغادر البيت أذهب لأصالحها وتعود معي في نفس اليوم، لكن انفعالها كان أكثر هذه المرة، وأنا أحبها، بل أعشقها وأعشق تفاصيلها، أخاف من أن تكون جادة وتتركني للأبد، قلت وأنا أمسك ذراعها أستوقفها وهي تتفلت من بين أصابعي:

«أرجوكي يا نادية لا تتركيني، أنا في أشد احتياج إليكِ، ستتحسن الأمور، أعدكِ أنها ستتحسن، لا تتركيني من فضلك، لم أعد أستطيع تخيل حياتي بدونك، ولا هذا البيت دون وجودك فيه، سأجهز أنا الطعام، لا، سنخرج نتغدى بالخارج، وندور بالسيارة في الشوارع».

استدارت ووضعت يدها في وسطها وهي تقول:

«ثم ماذا؟ ماذا سيحدث غدًا أو بعد غد؟ ما الجديد الذي ستقدمه لي؟ أنت لم يكن يأتي في مخيلتك وأنا بجمالي هذا أرضى أن أتزوجك، لكني فعلت أملًا في الحياة الأفضل والمستوى الأعلى الذي وعدتني بهما، لكن النتيجة أنه لم يحدث شيء ولن يحدث شيء، وعمك لن ترثه حتى، بل غالبًا هو من سيرثك».

فتحت الباب في قوة ليرتطم بالحائط خلفه في قوة، وتسقط الفاز على العمود الخشبي الموضوع جواره، تتكسر وتتناثر أجزاؤها الفخارية على الأرض، وقفت أنظر إليها وهي تفتح باب المصعد وتغلقه خلفها في قوة، وتنزل به وتختفي عن أنظاري...

ربما للأبد.

أدهم.

لم يجل بخاطري في تلك الخمسة عشر ثانية أي محاولة تفكير عن سبب الدماء التي على ملابسها، أو سبب خروجها مهرولة في تلك الساعة تدق عليَّ بابي، أو حتى سبب احمرار جفونها المنتفخة، كل ما جال بخاطري في تلك اللحظات، كيف ستدخل غادة بقدميها الحافيتين المتسختين إلى شقتي، تدهس بهما أرضيتي وسجادي النظيفين...؟!!

خلعت الخف من قدمي ووضعته على عتبة الباب وأنا أدعوها للدخول، حالتها مزرية، قطرات المطر تبلل الأرض من أسفلها، تقدمت مترنحة في خطوات بطيئة، ترددت أن أمد يدي إليها ألتقطها

أو أسندها، لسنا كالغربيين في تعاملاتنا مع النساء، جسدها يرتجف ويرتعش، كعصفور مبتل في يوم عاصف بارد ممطر، لا حول لها ولا قوة، أسرعت إلى غرفتي أُحضر بطَّانية، وضعتها على كتفيها، جذبتها في رفق وأجلستها على أريكتي، كانت الأفكار قد بدأ محركها يدور صاخبًا في رأسي، ما الذي...؟! وكيف...؟! ولماذا...؟! وهل...؟!.

جلست على الكرسي أمامها أنظر إليها، جالسة لا زال جسدها يرتعش، حدقتا عينيها متوترة، زائغة قليلًا، رغم أنها تبدو شبه ناعسة أو ربما مسطولة، تشنك بأنفها بين الحين والآخر، لا أدري إن كانت تلك دموع على وجهها، أم قطرات من المطر الذي أغرقها وبلل شعرها المكشوف وملابسها، مضطربة، تدعك أطراف أصابعها لتبعث الدفء فيها أو ربما بسبب توترها... لا أدري.

سألتها «ما بكِ؟».

لم ترد، تابعت في هدوء يحمل بعض الإصرار لعلي أعرف ما بها...

«هل حدث لكِ مكروه؟».

«هل أنتِ مصابة؟».

«ما هذه الدماء على ملابسكِ؟».

ظلت على وضعها وحركاتها الرتيبة، ثم انتفضت من مكانها ورفعت رأسها ناحيتي لما سألتها...

«هل زوجكِ بخير؟».

علا صوت نحيبها المكتوم، يبدو أن ثمة شجار حدث بينهما، لكن لماذا تلجأ إليَّ؟ ما ذنبي أنا في مشاكل زوجية ليست لي بها صلة، لقد نأيت بنفسي عن الزواج وعن الأصدقاء، أبتعد عن كل ما قد يسبب أي توتر بسيط لحياتي الهادئة، لا أريد أن يعكر إيقاعها الرتيب أي شيء... ما دخلي أنا بشجاركِ مع زوجكِ، سندت ظهري للكرسي وأنا أتابع:

«هل حدث شجار بينكما؟».

فهزت رأسها الثقيلة موافقة، بدت وكأنها تحمل رأسها فوق كتفيها بمعاناة واضحة...

سألتها في تردد «هل ضربك؟»

هزت رأسها من جديد أن نعم...

كانت ارتجافة جسدها تزداد، بالطبع مع ملابسها المبتلة لن تشعر بأي دفء، دعوتها للنهوض ودخول الحمام لأخذ دش دافئ، ترددت قليلًا ثم وقفت وتحركت في بطءٍ تتبعني وأنا أقودها ناحية الحمام، قلت لها:

«خذي دوش ساخن حتى تفيقي وتشعري بالدفء».

صمتٌ لحظة، ثم تابعت في تردد:

«اتركي ملابسك المبتلة بالداخل في سلة الغسيل واتركي الشبشب أيضًا في الحمام».

أعرف أن كلامي يبدو غريبًا، لكن ماذا أفعل في تلك الوساوس التي تعتمر عقلي، تابعت متوترًا:

«سأذهب للبحث عما يناسبك في ملابس أختي، لا أدري إن كان هنا ما يناسبكِ أم لا، سأرى».

تركتها وذهبت للبحث عما يمكن أن ترتديه، فلم أجد، اضطررت لإحضار تريينج خاص بي ووضعته مع منشفة على كرسي خشبي أمام الحمام وأنا أرفع صوتي متحدثًا:

«تركت لكِ منشفة وتريننج أمام الباب...».

لم أسمع ردًا، ولم أنتظر، عدت للمطبخ وأشعلت نيران الموقد ووضعت عليه براد الماء، ووقفت بجانبه أتلمس الدفء المنبعث من النيران، شعرت بخروجها من الحمام إلى الصالة، إحساس غريب أن أشعر بصوت شخص آخر معي في البيت بعد أن تعودت طوال سنوات على صمت وحدتي وهدوءه، كان أي صوت آخر في الشقة بالنسبة لي يعني وجود فأر متسلل لشقتي، وهذا لم يكن بالأمر سهل التحمل والتعايش معه بالنسبة لي، كان هذا يعني حربًا ضروسًا ومحاولات مستمرة لطرده من البيت وتنظيف آثاره، عدت إلى الصالة حاملًا الصينية عليها كوبي الشاي يتصاعد منهما البخار الدافئ، سألتها عن سكرها، ثم ناولتها كوبها، أخذت كوبي وجلست أمامها، أرتشف منه ببطء، وأنا أتابعها ترتشف شايها، لم يُزَل الخوف الكامن في حركاتها أو عينيها التي تبدو حائرة زائغة النظرات، لا أعرف إن كانت مرهقة أو مخدرة، التوتر لا زال يسود كل خلجاتها، بادرت بكلماتي:

«لا بد أن أعرف ماذا حدث؟ ولماذا اعتدى عليك زوجكِ بالضرب؟ وكيف تركك تخرجين من البيت في تلك الساعة بتلك الملابس وفي هذا الجو؟».

خرج صوتها ضعيفًا، فسألتها أن تحاول رفع صوتها قليلًا، بدأت تحكي في نبرة مضطربة متوترة قلقة عن شجار وصراخ وضرب وإهانة، كلماتها غير مفيدة، أكاد أفهم منها بالكاد ما حدث، واصلت حديثها بنظرات زائغة بلسان ثقيل:

«ظل يصرخ فيَّ ويجرني من شعري ويضرب رأسي في دولاب المطبخ، لم أدر بنفسي إلا وأنا أضربه».

ابتسمتُ متهكمًا وأنا أسألها:

«وبما ضربتِه؟ بعصا المقشة!!».

ترددت قليلًا ثم قالت بصوت خفيض مرتعش، لكنه اخترق أذني كألف طلقة مدفع هاوتزر بيون ذاتي الحركة...

«بسكين...».

انسكب بعض الشاي على صدري وأنا أقف في فزع صارخًا:

«ماذا؟!!... بما ضربتِه؟!!... بسكين؟!! كيف؟!!».

توترت أكثر مما كانت وانسكب منها الشاي أيضًا، حاولت توزان نفسها وهي تقول باكية وهي تشنك بأنفها بين الحين والآخر:

«لم أقصد... كنت أدافع عن نفسي... لم أكن حتى أدري ماذا أفعل».

دون قصد التفتُّ ناحية الحمام، ملابسها الغارقة في دمائه عندي في حمامي، وفي منتصف الليل، القصة النموذجية للعشيق وقتل الزوج، أي شخص راسب في سنته الخامسة في مرحلته الابتدائية سيدينني معها، ما تلك الليلة الغبراء التي أرسلت لي تهمة من العدم، وأنا جالس أتصفح ذكرياتي وصوري، رأسي كانت تتحرك بينها وبين باب الحمام، كان الطبيعي أن أكون مرتعبًا الآن، لكني تمالكت أعصابي في قوة، ووجدت نفسي أسألها في هدوء:

«وأين هو الآن؟».

وضعَتْ كوب الشاي على المنضدة وقالت برأسها المنخفضة:

«في البيت... حين أفقت خرجت هاربة... لم أفكر... وجدت نفسي قادمة إليك... لم أجد من ألجأ إليه غيرك».

ثم رفعت رأسها تنظر إليَّ في خوف ورجاء تسأل:

«هل ستبلغ الشرطة؟».

حاولت أن أجعل صوتي مطمئنًا لها وأنا أقول:

«أنتِ لا تعلمس في أي مأزق وضعتيني... لكن رغمًا عني لن أستطيع أن أتركك، دعيني أفكر لحظات».

تحركت يمينًا ويسارًا لدقائق وأنا أفكر وأحاول أن أعصر خلايا مخي عما يجب عليَّ أن أفعله الآن، ثم التفتُّ إليها وقلت:

«أول شيء يجب أن أرى ماذا حدث هناك، ربما لا يزال على قيد الحياة... سأرتدي ملابسي وآتي معك».

اتجهت لغرفتي، ثم توقفت في طريقي واستدرت إليها قائلًا:

«وللأسف لن أستطيع الاتصال بالشرطة، وأعتقد أنها ليست في حال يسمح لها بالاهتمام بتلك الأمور».

خرجنا مسرعين تحت الأمطار بعد أن ارتديت ملابسي، وأنا أتلفت حولي حذرًا، دفعت باب الشقة الذي تركته غادة خلفها مواربًا، التلفاز كانت شاشته تضيء المكان على حسب ما يعرض على الشاشة فكانت الإضاءة مضطربة مزعجة، تهتز معها الإضاءة في المكان، تزيد أحيانًا وأحيانًا أخرى تكون أهدى، وصوته كان كافيًا لإلقاء الشعور بأن أحدًا ما هناك معنا داخل الشقة ينتظرنا، تقدمت في خطوات بطيئة متحسبًا لأي شيء مفاجئ يواجهنا وهي تتبعني بعد أن أغلقت باب الشقة خلفنا، فكرت لحظة وأنا أدعو... ربما لم يلقى ربه بعد، أضاءت غادة نور الصالة، فهتفت بها:

«لا، أطفئيه».

أسرعت أغلق الستائر أولًا ثم أعدت إشعال النور مرة أخرى.

أعرف أنه في المراحل الأولى من انخفاض درجة حرارة الجسم، يحاول الجسم توليد الحرارة بواسطة الارتعاش، عندما يفشل في ذلك، ينخفض تدفق الدم إلى الأطراف، ثم تتباطأ عملية الأيض في الجسم، إنه الموت لكنك لا تدري بعد...، في المرحلة الأخيرة يحدث التنفس مرة أو مرتين فقط في الدقيقة بعدها... يصبِح الإنسان في حالة من الحياة المعلقة، حينها رأيت جسده ملقى على الأرض بين دمائه، ومُغطًّى بلحاف، فقط امرأة هي التي تغطي جثة إذا فارقت الحياة وخلا منها النفس بلحاف منزلي، لقد لاقى الرجل ربه، وربما بدأ حسابه.

عله يكون عسيرًا.

قعدتُ متكئًا على ركبتي جوار جسد القتيل وغادة واقفة على بعد، أقرب لباب الشقة من الجثمان، تحسست قبضتي وتذكرت مديري في الشركة الذي طرحته أرضًا بالأمس بعد عدة لكمات أفرغت فيهم ما بداخلي من غضب كامن، كنت أظن أني بلغت الحد الأقصى المسموح به من الشر، لكن لم أتخيل أن أجلس القرْفصَاء جوار قتيل في هذا الهدوء، يبدو أن في داخلي شر أكثر مما كنت أتوقع، دارت الأفكار في عقلي، صعب أن نتصل بالشرطة، سينتهي مستقبل غادة إن فعلتُ، بل ستنتهي غادة نفسها، ليست فتاة مثلها يمكنها أن تعتاد حياة السجون، المشكلة الآن أني تورطت معها لما سمحت لها بدخول شقتي والاغتسال فيها، وترك آثار الجريمة على ملابسها في حمامي، أنا متهم معها بأي حال من الأحوال، ولا مبرر ولا مهرب لي.

في الروايات والأفلام الأمريكية هناك طرق كثيرة للتخلص من الجثث، يا لحظهم الشديد في كل شيء...، لديهم حتى رفاهية التخلص من الجثث بسهولة، فعندهم حتى المساحات الشاسعة التي تساعد في هذا، وأيضًا الخصوصية التي تسمح بذلك، بالطبع هنا لا يمكنك أن تدفن جثة في حديقتك وتزرع فوقها شجرة، أو تضعها في أحد حوائط القبو وتغلق عليها بالأسمنت؛ لأننا ببساطة لا نملك قبوًا ولم تعد لدينا حديقة، تذكرت فيلم rear window لألفريد هيشتكوك، لما قطَّع المجرم زوجته بالساطور، وألقى جثتها على مراحل حاملًا إياها في حقيبة سفر كبيرة كان يستخدمها في بيع الحلي والمجوهرات، فكرة جيدة، لكن أنا لا أجرؤ على جر جثة آدمية إلى الحمام وتقطيعها إربًا بالساطور والسكين، من المفروض أني أشبه جيمس ستيورات بطل ذلك الفيلم الذي يتابع جيرانه بالمنظار، لكني أتابعهم دائمًا وليس نتيجة كسر ساقي كما كان الحال معه، الآن انتقلت رغمًا عني لمرحلة الجاني وليس الشاهد، ربما لو لم نكن تخلصنا من المستنقعات التي كانت موجودة حول القاهرة لكانت ذا نفع الآن.

استدرت لغادة أسألها...

«هل عندك مشمع؟»

نظرت إليَّ في حيرة مستفسرة، يبدو أن الدش لم يفلح في إفاقتها، أكاد أشك في تعاطيها شيء ما، لكن منعت نفسي من سؤالها، فاستطردت:

«مشمع... مشمع غسيل... بلاستيك».

أجابت بنعم وهي تهز رأسها، ثم ذهبت لتأتي به، خلعت معطفي الذي أرتديه ووضعته على الآريكة في الصالة وعدت لأنزع الملابس من على جثة أشرف، عادت غادة تحمل المشمع البلاستيكي وتصلبت لما رأتني أنزع ملابس الجثة وسألت مفزوعة بلسانها الثقيل الذي بدأ يضايقني:

«ماذا تنوي أن تفعل؟».

أجبت وأنا أفرغ ما كان في الجيوب كأني أمارس عملًا معتادًا:

«سترين».

وضعت كل ما كان في جيبه بما فيه هاتفه المحمول على طاولة المطبخ، بعد أن نزعت عنه ملابسه عدا ملابسه الداخلية، الجثة متصلبة وحركتها صعبة لقد حدث الصَمَل المَوتِي أو التخشب الموتي يبدو أن ما روته لي غادة قد حدث تقريبًا من ست أو سبع ساعات، بصعوبة عدلت وضع الجثة، ربما تكسرت عظمة أو أكثر في ساعديه وأنا أُعدل من وضعه، لا أستطيع أن أحدد، لكن الصوت كان واضحًا.

فردت المشمع ووضعت الجثة عليه، ولففته عدة مرات، وقفت وأنا أشعر بالآم شديدة في ظهري لإنحنائي على الجثة، طُفت بعيني في أرجاء الشقة، وغادة تسألني وهي تتلفت معي:

«عماذا تبحث؟!!».

ثبتت عيني على السجادة المفروشة في الصالة، أشرت إليها وأنا أقول:

«أبحث عن شيء مثل هذا، أعتقد أنه من الممكن أن تتقبلي فكرة التخلي عن بعض الأشياء المنزلية الخاصة الآن».

ساعدتني غادة في تحريك الأثاث بعيدًا عن السجادة وأطرافها، جذبت الجثة المغلفة بالمشمع ووضعتها على حافة السجادة ثم طويتها والجثة بداخلها.

غريب أمري فعلًا... أتعامل مع الجثة كأنه أمر تعودت على فعله كل خميس وجمعة ربما، غادة كانت تتابعني وأنا ألمح في نظراتها استغرابًا يحمل الكثير والكثير من التعجب والرغبة في سؤالي:

«هل فعلت هذا من قبل؟».

ربما فعلت هذا في مخيلتي يومًا ما، والخيال معي أقرب للواقع من الواقع نفسه، عمومًا أسماك القرش تجيد السباحة منذ ولادتها لا أحد يعلمها السباحة أو الفتك، وأنا انتظرت اللحظة المناسبة لأكتشف إمكانياتي وقدراتي المجهولة، وها قد جاءت ربما، يبدو أنه أمر كان بداخلي ولم أعلم عنه إلا الآن.

لكنها سألت سؤال آخر:

«ماذا تنوي أن تفعل الآن؟».

ألقيت جسدي على الأريكة الصغيرة ألتقط أنفاسي قائلًا:

«الجو ليل وممطر... لا أعتقد أنني سألتقي بأحدهم، ولا شرطة في الشوارع هذه الأيام، سأحضر سيارة أبي من الجراج... حقيبتها الخلفية متسعة أكثر من سيارتي... سأضع فيها الجثة وسأتخلص منها في أبعد مكان أستطيع أن أصل إليه على الطريق الدائري».

ارتسمت على ملامح غادة الاستغراب...

«بهذة البساطة؟!!!».

أجبت...

«نعم، بهذه البساطة... الوضع الأمني في البلاد مضطرب والشرطة لم تعد كما كانت، والجو سيساعدنا، أعتقد أن الطريق الدائري ربما يكون مناسبًا، المهم ألا يوقفني أحد اللصوص عليه».

صمت قليلًا ثم تابعت:

«عليكي أنتِ أن تمسحي آثار الدم في الشقة وعلى أجزاء المطبخ، سأنهض الآن لأحضر سيارة أبي».

عدت مسرعًا لشقتي أحضر مفاتيح سيارة أبي ال station، وذهبت للجراج تحت المطر الذي لم ينقطع بعد، وإن كان صار أقل شدة وعنفوانًا، خطواتي هادئة رغم عقلي الذي يدور داخل جمجمتي كالموتور، لا يكف عن التفكير في أشياء من هنا وهناك، يتخيل كل ما يمكن أن يحدث لي في الساعات القادمة وربما ينتهي بي الأمر معلقًا من رقبتي أتأرجح على حبل المشنقة، مع خبر متوسط في أحد الجرائد عن رجل قتل زوج عشيقته.

ظللت أنادي على عم عبده المسئول عن الجراج، خرج وهو يسب ويلعن في الشخص اللعين الذي أخرجه من تحت الغطاء الدافئ بجانب زوجته التي تحتل ثلاثة أرباع السرير، ليخرج في هذا البرد والمطر، دعكَ عينيه وهو يتأكد من وجودي للمرة الرابعة ربما وهو يسأل:

«خير يا أستاذ أدهم، هل هناك شيء؟».

«طبعًا هناك شيء ولم آت إلى هنا في هذه الساعة لأطمئن إن كنت متدثرًا بغطائك جيدًا أم لا...!!، أريد أن أخرج بسيارة أبي».

تدلَّى فكه الأسفل في بلاهة وهو يقول:

«في هذه الساعة، على فين العزم يا باشا؟».

أجبت وأنا أتوجه ناحية السيارة «مشوار مهم بس متأخر».

دعوته ليزيل غطاء السيارة المكوم عليه الأتربة وأنا أقول:

«بهدوء حتى لا تتطاير كل هذه الأتربة علي».

أعدت وصل البطارية، وأدرت السيارة، ثم انتظرت قليلًا حتى تسخن وتصل لدرجة حرارة مناسبة في هذا الجو، غادرت الجراج وعم عبده يحمل غطاء السيارة ومعه الكثير من الاستغراب، لكن بالطبع لن يصل خياله أني أخرج في هذه الساعة، لألقي جثة جاري على الطريق.

دلفت بظهر السيارة لمدخل العمارة وعدلت وضع الكنبة الأخيرة، ثم صعدت للشقة وأنا أتلفت حولي أنظر ناحية الشقق والعمارات، لا أعتقد أن مجنونًا سيقف الساعة الثالثة صباحًا يتفرج على ما يحدث في الشارع، وقد خوى إلا من سكون موحش لا يبدده إلا مواء قطط تئن كأنها غارقة في آلامها ونباح كلاب متشردة يأتي من بعيد تَهيَّج على كل إنس وجان، سلم العمارة كان مظلمًا لكن صوت المصعد القديم كان كالجرار في منتصف الليل، دخلت الشقة وفوجئت بغادة قد سقطت فريسة النوم على الأريكة في الصالة، زفرت في ضيق، بتُّ أعتقد أني أصبحت متعهدًا التخلص من الجثة وآثارها هذه الليلة والهانم تأخذ قسطًا من الراحة بعد أن ذبحت زوجها، أخذت سلسلة المفاتيح من وسط الأشياء التي أخرجتها من جيب زوجها الفقيد، وبدأت في سحب جثته، وزنه ثقيل ربما اقترب من المائة، مع ذلك سحبته حتى دخلت المصعد، عانيت وأنا أجعله يقف، فالمصعد أضيق من أن يحمل جثته نائمًا، صرير الأسانسير مزعج يكاد يوقظ الميت في تلك اللحظة، دائمًا في لحظات التوتر نسمع الأشياء التافهة والضعيفة أوضح مما ينبغي، ربما ذلك بسبب الأدرينالين الذي يتدفق في عروقي ويشعرني بالحر، حتى أني بدأت أشعر بعرق بدأ يتصبب على جبيني ويغزو مؤخرة عنقي رغم برودة الجو، خرجت بالجثة الملفوفة بالسجادة تحت الأمطار تكنس مدخل العمارة حتى أدخلتها حقيبة السيارة الخلفية، أدرت السيارة ثم بدأت التحرك في هدوء، وأنا أحمد الله أني لم ألقَ شيئًا يمنعني أو شخص يكشفني حتى الآن، اتخذت أول مخرج للطريق الدائري، الحركة شبه منعدمة، وبالطبع لا يوجد أثر لأي سيارة شرطة في هذا الوقت، أظن أن قطاع الطرق يفضلون الاستمتاع بالدفء في تلك الليلة الممطرة، الرؤية صعبة في هذا الجو، واحتياطيًّا لم أتجاوز السبعين كيلو متر سرعةً، المطر كان يرتطم بقوة في زجاج السيارة في نبضات كنت لأستمتع بصوتها ربما في وقت آخر، ودون مقدمات ارتطمت بيضتين بزجاج السيارة...!! ارتفع بعدها صوت موتسيكل يسير خلفي.

يبدو أن ما كنت أخشاه على وشك الحدوث، وأن بعض اللصوص من قطاع طرق القرن الحادي والعشرين في طريقهم لنهبي، كانوا متخفين في الظلام منتظرين في الظلام صيدًا أحمق خرج في هذا الجو مثلي.

الأمطار مع البيض كانوا كافيين لتشوية الرؤيه أمامي، اقترب مني فردان ملثمان على الموتسيكل صيني الصنع يرتديان جواكت جلدية، كانوا في استعداد من البداية للطقس السيء، تحركا أمامي وأحدهم يخبط في قوة على غطاء محرك السيارة الأمامى، أبطأت السرعة أكثر لا إراديًّا حتى لا

أصطدم بهم، لم أعد أرى ما أمامي، وقفت على جانب الطريق وخرجت من السيارة أقف جوارها على جانب الطريق، توقف الرجلين على بعد أمتار مني وتركا محرك الموتسيكل دائرًا، واقتربا مني في بطء يحملات ما يبدوا أنها أسياخ أو عتلات حديدية، يالحظهم التعس أنا لا أحمل في جيبي جنيهًا واحدًا ولا حتى هاتفي المحمول قديم الصنع، لا أحمل معي إلا جثة بشق في وريدها الوداجي، تقدما ناحيتي في خطوات حاولا جعلها مخيفة، قال أحدهم في صوت مكتوم من خلف الوشاح الذي يغطي وجهه آمرًا:

«ابتعد عن السيارة وأخرج ما في جيبك».

تحركت خطوتين للخلف، وأنا أقول:

«لا أحمل أي شيء في جيب».

ضاقت عينا الرجل الآخر، يبدو أنه كان يبتسم وهو يقول:

«سنكتشف هذا بأنفسنا، وربما نكتفي بالسيارة وما فيها».

لم أتوقع هذا...!!

ربما تكون وسيلة جيدة للتخلص من الجثة، لكن ليس بضياع السيارة مني، سيكون من الصعب استردادها مرة أخرى، حتى لو طلبوا مبلغًا من المال مقابل إعادتها، نطقت في طريقة حاولت جعلها متلهفة:

«لا، ليس ما فيها اتركوا أشيائي التي في حقيبتها، لن أستطيع أن أحصل على مثلها مرة أخرى».

لمحت اللمعة في عين اللصين، واقتربا في سرعة وتوجه أحدهما خلف السيارة يفتح الحقيبة الخلفية والآخر جواري متحفزٌ بعتلته الحديدية بعد أن دفعني قليلًا للخلف، وقف الأول لحظة متعجبًا أمام حقيبة السيارة المفتوحة:

«ما هذا؟!! سجادة؟».

جاوبت في سرعة:

«نعم لكنها أصلية وغالية الثمن ونادرة أيضًا».

أزاح الرجل طرف السجادة وبدأ في فكها، ولما وقعت عيناه على الجثة ارتد مصعوقًا للخلف مبسملًا، حتى أنه سقط على الأرض، اضطرب الآخر في قوة وهو يقول:

«ماذا هناك يا علي؟ ماذا رأيت؟».

هتف الآخر في رعب: «قتيل».

اشتدت قبضة الثاني الذي يقف جواري على العتلة وقد زاد رعبه وتوتره: «ماذا تقول؟».

أمسكت بالعتلة من الطرف الآخر في سرعة بيدي اليسرى، وأنا أقول:

«يقول لك قتيل».

لكمته بيدي اليمنى في قوة وأنا أجذب منه العتلة، ثم ضربته بها على ظهره، حاول الآخر الابتعاد زحفًا، فلم يكن قد نهض من على الأرض بعد، جريت عليه وجذبته من ياقة جاكتِه الخلفي وسحبته على الأرض وأرقدته جوار زميله الذي يحاول أن يعتدل وأنا أركله بقدمي، تسنَّد الأول على كفي يديه وابتعد خطوتين لكني ألقيت العتلة على قدميه فوقع مرة أخرى، لكنه استطاع أن ينهض من جديد ويجري ناحية موتسيكله، وخلع الآخر جاكتَه عن جسده واستطاع أن يفلت مني تاركًا جاكته في يدي، ليلحق بزميله يركب خلفه وينطلقا هاربين في فزع، تلفتت حولي وأنا أحمل العتلة في يد والجاكت في اليد الأخرى، ألقيتهم على جانب الطريق وتحركت من جديد بالسيارة بعد أن مسحت زجاجها الأمامي حتى وصلت لمنطقة شعرت أنها نائية، وقفت بالسيارة لحظات أتابع الطريق لا توجد سيارات حولي، كل ثلاث أو أربع دقائق ربما تمر سيارة، من كل أربعة منهم ثلاث عربيات نقل كبيرة...

سمعت صوت فرامل قوية فجأة تأتي من مسافة ليست بعيدة، تلفت حولي فلم أرَ شيئًا، نزلت مسرعًا قبل أن تظهر سيارة أخرى، أخرجت الجثة بقوة فارتطمت رأسها في الأسفلت بقوة، رفعت طرفها من ناحية الرأس بصعوبة على الحاجز الأسمنتي على حدود الطريق ثم رفعت الطرف الآخر ثم دفعتها لتتدحرج في الناحية الأخرى مبتعدة عدة مترات، تمزق الرباط حول السجادة فخرجت الجثة الملفوفة في المشمع متدحرجة خلفها على الرمال المبتلة، ثم سمعت صوت نباح قطيع من الكلاب في المنطقة فتراجعت عن الفكرة التي جالت بخاطري للف الجثة مرة أخرى أو دفعها أكثر، ربما تتكفل بها تلك الكلاب، عدت للسيارة التي لم أطفئ محركها وانطلقت مسرعًا عائدًا للبيت، وقفت تحت البيت ونظرت في الشنطة الخلفية فوجدت فيها بعض بقع من الدماء، فمسحتها بفوطة السيارة الصفراء، كنت أغسلها تحت المطر وأمسحها، فكرت ألا أعيدها للجراج قبل أن أذهب بها للمغسلة، لأزيل أي أثر أو رائحة ممكن أن تلتصق بها، لكن ذلك سيكون في الصباح.

كدت أعود إلى بيتي لكني وقفت مترددًا قليلًا، ثم عبرت الشارع مرة أخرى وصعدت لشقة غادة، لا زالت نائمة كطفل رضيع أنهى رضعته لينعم بنوم هادئ، نظرت للفوضى أمام باب المطبخ وداخله، حينها فقط لاحظت أن البيت كله تعمه الفوضى، بقايا طعام في حوض المطبخ وأواني لم تنظف يبدو عليها أنها في ذلك الحوض ربما من يومين أو أكثر، هناك ملابس ملقاة في الصالة بفوضوية، وأحذية ملقاة بإهمال جوار الباب رغم وجود جزامة في مدخل الشقة.

بدأت في البحث عما يمكن أن أنظف بها آثار تلك المذبحة الدموية الصغيرة، الحمام كان مزريًا، كيف لإناس يعيشون في تلك الفوضى وذلك الكم من الإهمال، سكبت بعض الماء والمنظفات في الجردل القذر الموجود وبدأت في إزالة الدماء من على الأرض، بعد أن ألقيت اللحاف الذي كان على الجثة مع ملابس أشرف في البانيو وأغرقته في الماء، ثم استخدمت قماشة يبدو أنها كانت لباس لصاحب البيت الفقيد ومسحت بها الدماء المنثورة على أجزاء المطبخ الخشبية، انتهيت وسقطت متهالكًا على أحد الكراسي وغادة لازالت نائمة، أشعر بضيق من ملابسي مع شعور بعدم نظافتي بعد كل ما عانيته، رغم أني مواظب على أدويتي إلا أن معاناتي مع وساوسي القهرية اللعينة لم تنتهِ وغالبًا لن تنتهي، فهي تزيد في بعض الأحيان مع زيادة انفعالي أو توتري من شيء ما، تركت غادة على نومتها فوق الأريكة، بعد أن ألقيت عليها بطانية أحضرتها من غرفتها، أخذت معطفي الذي كنت نسيته، وعدت للبيت، الأمطار تقريبًا توقفت والنهار بدأت تظهر خيوطه الأولى، لن يكون هناك عمل اليوم، إجازة عارضة ستتكفل بالموضوع.

خلعت حذائي وجوربي بالخارج، ودخلت للحمام فورًا، نزعت ملابسي وغسلت كل ما كان في جيوبي بالماء والصابون حتى مفتاح وريموت السيارة غسلتهما، وقفت تحت الدش الساخن أفكر فيما حدث في الساعات القليلة الماضية، واضح أن الشر يكمن في النفوس لكننا لا نعلم، أم ما فعلته ليس بشر؟!!

الشر كامن داخل النفوس لكن ينتظر اللحظة المناسبة ليخرج من قمقمه، لم أشعر بأي خوف أو توتر مما فعلت، كنت أتعامل مع الموضوع كأنه أمر روتيني، تعودت عليه، تقلبت قليلًا في السرير متململًا رغم التعب والإرهاق الذي أشعر بها في عظامي وعضلات ظهري وذراعي، أفكاري تتخبط في بعضها كبحر هائج متلاطم الأمواج حتى باتت أمرًا مثيرًا للضيق، ما أنفك أبدًا في فكرة حتى أنتهي إلى أمر آخر...

إن عقلي لمستبد...

الغريب أن الأفكار لا تأتي بغزارة إلا ساعة النوم على الفراش، فهل على فراش الموت أيضًا تولد الأفكار؟!!!

هل جال في خاطر أشرف لحظة موته وهو يلفظ أنفاسة الأخيرة أي أفكار؟! هل فكر فيما هو مقدم عليه في أخرته؟! أم فيما حدث له في دنياه؟! أم كان يفكر في زوجته التي تقف أمامه بسكين يحمل دمائه وروحه تتصاعد من حلقه؟! لو قال لي أحد يومًا ما أني سأشارك في جريمة قتل وأتخلص من جثة وأنظف آثارها لما صدقت بالطبع، لكني فعلت، ظلت الأفكار تحيط بى حتى صرعني النوم، غاب عقلي وسقطت في بئر عميق مظلم وسط تفكيري، لحظات ثم انتبهت على صوت المنبه الذي نسيت أن أغلقه، ثم عدت للنوم من جديد، لكن هذه المرة استيقظت على صوت جرس الباب، نظرت في الساعة وجدتها لم تتجاوز العاشرة، مَن هذا اللعين الذي يوقظني الآن، المفروض أن أكون في

عملي في ذلك الوقت، فمن ذاك الذي يدق بابي، نهضت أجر قدماي وأنا ألعن من أخرجني من دفء الغطاء، فتحت الباب مغمض العينين تقريبًا، كانت غادة.

ومن سواها...!!

يبدو أنها تعهدت بإقلاق راحتي هذه الأيام، وقفت صامتًا لحظات، واضح أنها كانت تبكي رغم محاولاتها ألا تبدو أنها كانت تفعل، نطقت هي في تردد:

«ممكن أدخل؟».

انتبهت لحظتها فقط أني كنت قليل الذوق؛ إذ لم أدعُها للدخول بعد، طلبت منها خلع حذائها وأعطيتها شبشب ترتديه داخل المنزل، تبدو أكثر استيقاظًا اليوم، بالطبع نالت عدة ساعات مريحة من النوم، وأنا تكفلت بالمصائب والتعب طوال الليل، جلست في اضطراب أكاد ألمح الكلام المحبوس في حلقها على طرف شفاهها يعاني حتى يخرج، لكنها نطقت في خجل:

«لا أعرف ماذا أقول لك؟ هل أشكرك على ما فعلت معي وعلى وقوفكَ جواري في هذا الموقف، أم أشكرك على التستر عليَّ، أم أعتذر لك على توريطي لك في تلك المصيبة».

جلست مبتسمًا في وهن وأنا أدعك عيني اليمنى لأزيل ما عليها من غشاوة:

«لا عليكِ لقد سبق السيف العذل، ونحن أصدقاء منذ زمن، وهو الصاحب له عند صاحبه إيه؟».

ردت في استفسار: «إيه؟».

«هاه؟!!».

استغربت من ردها لكن تابعت في سرعة:

«لا شيء تلك مجرد مقولة سخيفة تقال في تلك المواقف، أقرب للدعابة ربما».

تابعت هي في خجل متوتر...

«في الحقيقة أنا لم أكن أشعر بأغلب ما كان يحدث بالأمس، منذ أيام وأنا أعاني من أرق شبه مزمن، وإذا نمت استيقظ بعد أقل من ساعة ونصف وأحيانًا ساعة، أمس تناولت عدة أقراص من الزاناكس جعلت رأسي ثقيلة رغم أنها جعلتني أنام إلا أنه كان نومًا متعبًا، بأحلام مزعجة، لا أذكر ما كان سبب شجاري مع أشرف ولا ما حدث بالضبط أذكر فقط أنه صار ملقًى على الأرض يحاول وقف نزف الدم بيديه، ثم فجأة وجدت أني نائمة على أرضية المطبخ وهو صار جثة هامدة، عقلي كان مغيبًا لا أعرف كيف أفكر ولا ماذا أفعل، جريت للشارع، ثم جئت أنت على بالي، أعلم أن علاقتنا

شبه مقطوعة منذ زمن، لكن لم أجد غيرك ألجأ إليه، كنت أنت الأقرب إليَّ في تلك اللحظة، كنت أول من جال في خاطرى...».

قاطعتها بعد أن بدأ الانفعال يظهر في نبرات صوتها:

«اهدأي، أنا أعلم أن أغلب جرائم القتل تحدث مصادفة دون ترتيب، لا أحد يقتل من أجل الاستمتاع بالقتل، ذلك لم يحدث إلا مع أشخاص محدودين معروفين بالاسم مثل تيد باندي، أو جون واين جايسي، وكما قلت لكِ من قبل، لقد حدث ما حدث، لن نستطيع العودة للوراء، المهم الآن ماذا سيحدث، هناك من سيلاحظ اختفاء زوجك خصوصًا أقاربه وزملائه في العمل».

لمحت اتساع عينيها في توتر وهي تسأل:

«وماذا نفعل؟!».

ثم تابعت: «أنا لا أعرف له أي أقارب».

رددت لنفسي من الواضح أنها الآن تعتبرني شريكًا أساسيًّا في العملية، فهي تسأل ماذا نفعل؟ وليس ماذا أفعل؟ جال بخاطري لوهلة أنها تعمدت توريطي معها في ذلك الأمر.

«دعينا نشرب قهوة أولًا حتى نفيق ثم نقرر، قهوتك سادة؟».

عدت بعد قليل بقهوتي السادة وقهوتها الزيادة، جلسنا نرتشف منها في بطء، وأنا أقول:

«اليوم ستذهبين للقسم تبلغين أن زوجك لم يعد منذ الأمس؟».

اضطرَبَت من قولي ووضعت قهوتها وهي تقول في انزعاج واضح في صوتها:

«أذهب للقسم أبلغ عن زوجي أنه مفقود، وأنا أعلم أني قتلته».

أجبت في بساطة...

«لكنهم لا يعلمون».

سكتُّ قليلًا ثم تابعت وأنا أرتشف رشفة جديدة من قهوتي...

«كما قلت لك الأوضاع في البلد لا تسمح بالبحث عن المفقودين، هناك مئات ربما آلاف يُفقدون كل يوم، في المظاهرات أو في الأحداث التي تحدث في الشوارع، البعض منهم لا ذنب له إلا حظه التعس الذي أتى به في المكان غير المناسب، في اللحظة غير المناسبة، كل برنامج إخباري مليء

بجرائم القتل وأخبار عنها، حتى أصبح الخبر عنهم مجرد شيء عادي نسمعه ونحن نتناول كوب الشاي ساعة عصاري بعد الغذاء، أصبح القتلى والمفقودون مجرد رقم، لا أشخاص، وما دام الكل جالسين في منازلهم الآمنة فلن يشغل بالهم تلك الأمور، والشرطة لن تبحث؛ لأنها مضطربة ومشتتة ومقيدة، وربما مطاردة من المتظاهرين والإعلام والتهم التي تُلقى عليهم ليل نهار، البلاغ سيكون مجرد ورقة في القسم، وأغلب الظن لن يكلف أحد نفسه بالبحث، وحتى لو كانت الأمور هادئة، فالمفقود رجل بالغ وليس طفلًا صغيرًا».

صمتت وعلى وجهها ملامح الاقتناع بما قلت، فتابعت موضحًا:

«بالمناسبة أنا لست معتادًا على تلك الأمور والبلاغات والشرطة والتخلص من الجثث، أنا أقصى ما يربطني بالداخلية هو تجديد رخصتي القيادة والسيارة، أنا لست من معتادي الإجرام».

هزت رأسها موافقة وهي تُتمتم:

«بالطبع أعلم هذا، أنا أعرفك منذ الصغر».

وضعت فنجاني على المنضدة وأنا أستطرد:

«قلتي إنه ليس له أقارب؟».

«نعم».

«حسنًا... يبقى زملائه، لو سأل عليه أحدهم ستقولين أنه لم يعد منذ أيام وأنك أبلغتي الشرطة، ولننظر ماذا سيحدث».

هزت رأسها مؤيدة، لكنها ظلت على جلستها القلقة، كأن هناك شيئًا آخر، قاطعت أفكارها بسؤالي:

«ما بك؟ هل هناك شيء آخر؟».

سألت في خوف:

«أتعتقد أن أحدًا من الممكن أن يعثر على الجثة ويتم التعرف عليها؟».

صمتُّ لحظات أفكر:

«لا أعتقد، الجثة بملابسها الداخلية لا تحمل أي أوراق أو إثبات شخصية، وأعتقد أن ملامحها ستتغير قبل العثور عليها، هذا إن حدث، وربما الحيوانات ستتكفل بتغيير ملامحها... ربما، ولا أعتقد أنه أُدين من قبل في أي قضية وله فيش وتشبيه في الداخلية...!!!».

اعتدلت في جلستي وأنا أسأل باهتمام «هل له؟».

ردت في سرعة:

«لا... لا أعتقد».

صمتَت لحظة ثم تابعت «على حد علمي».

وترتني فكرة أنه ربما يكون مدانًا سابقًا، حاولت أن أكون واقعيًّا أكثر وأنا أقول:

«سنفترض أنه ليس له أي إدانة سابقة، وصعب أن يتم التعرف عليه بال DNA أو حتى ببصمة الأسنان فهم غير مسجلين عند أي جهة هنا في مصر، دعينا ننظر ماذا يمكن أن يحدث في الأيام القادمة، المهم أن تفعلي كما قلت لكِ».

كانت عيناها حائرة تحمل الكثير والكثير من الخوف، فسألت مجددًا:

«هل هناك شيء آخر؟».

هزت رأسها من جديد وهو تقول في تردد

«الحقيقة أني منذ استيقاظي ولم أقدر على البقاء في شقتي فخرجت للشارع أتمشى ثم جئت إليك، لا أستطيع البقاء في الشقة بعد ما حدث، أكاد أرى أشرف في كل زاوية يريد أن يقتلني، أشعر بأن هناك شيئًا يحوم حولي، حتى ظننت أن روحه معي في الشقة تريد أن تنتقم، لم أتحمل كل هذا فخرجت، أخشى العودة هناك من شدة الموقف، فكرت أن أذهب إلى فندق أو حتى أسافر إلى عمتي بضعة أيام و......».

قاطعتُها في سرعة:

«لا لا تفعلي ذلك، حتى لا تثيري شك أي شخص، عليكِ أن تتحملي وتضغطي على نفسك قليلًا، يجب أن تكوني قريبة من البيت، ربما تكون هناك أقاويل وأساطير عن عودة الأرواح وأشباح القتلى لملاحقة قاتليهم أو مَن تورطوا في قتلهم، وأن المكان الذي شهد الواقعة يظهر فيه شبح القتيل يلاحق قاتليه، أو حتى سكان المكان الذين يأتون من بعدهم أي نعم، لكن غالبًا هذا يحدث في الأفلام فقط، ربما هناك حوادث غريبة وفريدة من نوعها حدثت لكنها نادرة، أنا لا أعتقد أنها تحدث إلا داخل عقل من يحكيها، تكون أقرب لوهم يعيش فيه الشخص ويقتنع به لدرجة التصديق، يتصرف مع تلك الأفكار كأنها حقيقة فعلية تحدث حوله، سأحاول أن أفكر لكِ في حل...».

صمتُّ لحظات مفكرًا، بعد أن خطرت ببالي فكرة، نهضت قائلًا:

«سأغسل وجهي وأرتدي ملابسي ونذهب عند ماري».

مستفسرة في تعجب:

«ماري!!! ماري من؟؟!!!».

وقفت غادة جواري وأنا أدق جرس الباب حتى سمعنا صوت ماري من الداخل يدعوني للدخول، فتحت الباب بمفتاحي ودخلنا معًا، ماري كانت على جلستها التي تقريبًا لا تغيرها، دعوت غادة للجلوس وأنا أقدمها لماري:

«هذه غادة جارتنا في العمارة المقابلة، أتعرفيها؟».

فحصتها بعين متفرسة ثم قالت: «لا أعرف ربما رأيتها من قبل مرة أو مرتين... لا أذكر».

تابعت قائلًا:

«غادة زوجها مسافر يومين، وهي تخشى البقاء بمفردها، تقول إنها ترى فيها عفاريت، وليس لها أقارب هنا، ففكرت أن أدعوها تبيت معك ليلة أو اثنتين على الأكثر، حتى يعود زوجها، وحتى تكون لك ونيسًا ولو لعدة ساعات، بدلًا من جلستك وحيدة».

تكلمت غادة في خجل:

«أتمنى ألا أزعجك أو أكون ضيفة غير مرغوب فيها».

ردت ماري في ترحاب:

«لا يا بنتي، أدهم وأصدقاء أدهم على الرحب والسعة، تأنسي وتشرفي، فرصة أجد من أتكلم معه بدلًا من الفرجة على التلفاز الممل الذي لم يعد يحمل سواء أخبار المظاهرات والقتل والدماء والاضطرابات، لم أعد أتحمل كل هذا الغم، أنا أحب الغناء، أحب أن أكون سعيدة، هل أخبرك أدهم أني كنت مطربة أوبرا؟».

أجابت غادة مبتسمة:

«لا لم يقل لي».

تابعت ماري في سعادة كما تكون دائمًا حين تتحدث على ماضيها:

«كنت مغنية أوبرا شهيرة، غنيت في أغلب دول أوروبا، وغنيت أمام الملك مولانا فاروق المعظم الأول والأخير...، هيييه ذكريـــات...، في إحدى الحفلات ظل الجمهور يصفق لي دون انقطاع، خرجت لتحيته ثلاثة عشر مرة، نعم... ثلاثة عشر مرة، أم كانت إحدى عشر، لا أذكر بالضبط، كانت أيام...، أتظنون أنكم تحيون حياة في هذه الأيام، زمان كانت الحياة لها طعم مختلف، كنا فوق، أنا أرمينية الأصل لكني مصرية حتى النخاع، كل شيء في مصر كان جميلًا ونظيفًا، رائحة الشوارع كانت جميلة، أيام الملك كانت الشوارع تغسل بالماء والصابون».

ابتسمت غادة، فعقدت ماري حاجبيها في ضيق وهي تقول:

«تظنيني أقول أي كلام، أقسم لكِ هذا كان يحدث، بل وأكثر من ذلك، القصور الملكية هنا كانت أفخم من قصور أوروبا، الكل كان ينبهر بها، خصوصًا ملوك وأمراء العرب، أحد شماشيرجية الملك قال لي مرة، أن أحد أمراء السعودية حين دخل قصر عابدين لأول مرة، خلع حذاءه على باب القصر، ووضعه تحت إبطه، انظري الآن كيف أصبحت مصر...».

قاطعت حكاياتها قائلًا:

«الحديث هذا سمعته من قبل عدة مرات، سأترك لكِ غادة فريسة لحكاياتك وذكرياتك، وأصعد لشقتي».

تركتهما وصعدت لشقتي، اغتسلت وارتديت ملابس البيت، وقمت بمسح كل ما لمسته غادة في شقتي حتى أني مسحت مكان جلوسها، ثم غسلت فناجين القهوة، عدت إلى السرير محاولًا الحصول على قسط آخر من النوم، لكن لم أستطع، ظل ما حدث يجول بفكري، كأنه حلم استيقظت منه، لكنه كان حقيقة، لا أعرف لم عودة غادة في حياتي ذكرتني بتخيل دانتي لعودة بياتريس له في لافيتا نوفا، أنا لم يعد للحب مكان في حياتي أو عقلي، لم تعد حتى الحياة تستهويني لأبدأ حياة جديدة مع امرأة أو فتاة، أكره البدايات، لماذا أفكر في بداية جديدة وأنا لا يستهويني حتى حاضري، ربما أعشق ماضيَّ وذكرياتي، لازلت أحيا بعقلي وسط أيام عشتها، أتخيلها من جديد، بل أحيانًا أبكي شوقًا إليها، بالضبط كما قال دانتي:

«كنت كمثل من يواصل التأثُّر بحلم نسيه ويجاهد عبثًا ليعيده إلى ذاكرته».

لم تكن تلك هي الحياة التي تمنيتها وأنا صغير... لا أعرف ماذا حدث... لكنه لم يكن بإرادتي...، الحياة تسير على غير إرادتنا، تمنحنا ما لا نرغب وما لم نرغب، وتمنع عنا كل ما نرغب فيه.

المحصلة أننا نجد أنفسنا نعيش في دنيا لا نحبها وليس لنا الرغبة في أن نكملها، البعض وهم قلة يكون عندهم القدرة على اختيار الرفض ويتخلصون من حياتهم بإرادتهم، لكن البقية أجبن من أن يتخذوا هذه الخطوة، مكتفين مثلي بحياة مملة ليس منها فائدة، أيام تمر ونفس الهراء يتكرر معنا كل يوم، ربما هذا ما جعلني أحب دائمًا الحياة بين ذكرياتي هاربًا من واقعي وحياتي، ربما أحيانًا أخرى بين صفحات رواية أو حتى فيلم أرى فيه ما لم أستطع أن أعيشه لكن على الأقل أتوه في مشاهدته لعدة دقائق، بل أحيانًا أجد نفسي أحن لأيام قديمة وأحداث لم أعشها من قبل، لكن الأكيد... أن ذكرياتي التي أحملها بداخلي وأعيش عليها أفضل من كلِّ ما يمكن أن يحدث لي من جديد، صعب أن أجد عزاءً لذكرياتي في أيام قادمة.

أكره لحظات الأرق والفكر التي تمر عليَّ وأنا ملقى على السرير، أكون فيها هدفًا سهلًا تكيل له اللكمات والرفصات، تطرحني أرضًا وتصعد بي إلى أعالي السماء، تشعلني غضبًا وأحيانًا تكاد تبكيني، أتقلب في فراشي محاولًا نفض تلك الأفكار المسعورة عن عقلي، لكنها كالأسد الجريح المفترس لا يريد أن يتركني حتى ينتهي مما بقي من عقلي، فكرت للحظات إن كانت غادة تدعي ما فعلت، وأنها قتلت زوجها متعمدة، ولكن هذا البغل الإيطالي ليس بالسهل التربص به والقضاء عليه، في كل الأحوال، غادة دعتني للتورط معها، وأنا قبلت دعوتها بغباء، آثار جريمتها لا زالت تقبع في حمامي، اعتدلت من رقدتي دفعة واحدة حين تذكرت ذلك الأمر، نهضت مسرعًا إلى الحمام، وضعتهم في الغسالة الأتوماتيكية، بالطبع لم أضع معهم ملابسي، لم أدرِ لماذا، لكن فضلت ألا أخلط ملابسي معها، ضغطت زر التشغيل، وجلست أمام الماء الذي يرتفع أمامي ظاهرًا في باب الغسالة الزجاجي، وهو يتحول ببطء إلى لون وردي باهت من آثار الدماء على ملابسها، وقفت أمامها أتابع

دوران الملابس، بالطبع سأفردها على كراسي السفرة، لا أستطيع نشرها على حبالي ليراها جيراني، ثم تذكرت السيارة، ارتديت ملابس نظيفة ونزلت مسرعًا، أدرت السيارة وتحركت بها ناحية مغسلة السيارات القريبة، أتمنى ألا أكون نسيت شيئًا آخر، من نصف ساعة كنت أتقلب في فراشي محاولًا النوم والآن أقف في المغسلة أتابع عملية تنظيفها من الداخل والخارج، في المعتاد أشعر أنهم يقومون بتوزيع التراب والقذارة داخل السيارة ولا ينظفونها، تلك الأشياء توترني أكثر مما ينبغي، ربما لا أحد غيري ينتبه إلى هذه الأشياء إلا إذا كان مصابًا بوسواس قهري مثلي، ذلك اللعين الذي ينظف سيارتي يعبث بأنفه ثم يواصل تنظيف سيارتي بعد أن مسح أصبعه في ملابسه، أشعر بشيء يكاد يعصرني من الداخل، لم أتوتر وأنا أغلف جثة بالمشمع أو ألقيها في الصحراء ولكني توترت لدرجة الغضب أو الفزع - صعب عليَّ أن أقرر - وأنا أشاهد هذا القذر يعبث بأنفه داخل سيارتي، ويطأها بملابسه التي مسح فيها قذارته.

عدت بالسيارة إلى الجراج وأحضرت بخاخة رغاوي - فووم - من منظفات السيارة وأعدت مسح الكراسي الداخلية والتابلوه وشنطة السيارة، وقفت أتأملها مرة أخرى، لا أعتقد أن هناك شيئًا يبدو عليها، كنت أزيل أثر ذلك الذي ادعى أنه نظف سيارتي بأكثر من محاولة إزالة أي أثر ربما بقي من الجثة، لا أعتقد أن هناك من سيبحث عن شعرة أو جزء من قطرة دماء فيها.

«لم كل هذا حضرتك؟ وأنت ستركنها وتفصل بطاريتها؟ هل ستستعملها الفترة القادمة؟».

انتفضت في وقفتي، وفزعت من صوت بواب الجراج الأجش، أحباله الصوتية تحمل آثار آلاف من أحجار الشيشة المقدسة لديه، مزيج من المعسل والحشيش وأقراص الميجرانيل التي يفركها على الفحم المتقد، لم أنتبه إليه وهو يقترب، كنت منهمكًا في إخفاء أي آثار للجثة التي رقدت فيها منذ عدة ساعات.

«لا تشغل بالك بما أفعل، أحضر غطاء السيارة وغطها بعد أن أفصل البطارية».

عدت لشقتي واستحممت مرة أخرى كما تعودت كل ما عدت من الخارج، تلك الوساوس تقضي عليَّ يومًا بعد يوم، تناولت أقراصي التي اعتدت عليها حتى بت أظن أن لا فائدة منها، ليت لتلك الوساوس مسكن يقضي عليها أو حتى يقللها كأقراص الأسبرين للصداع.

لم أشأ أن أمر على ماري وضيفتها غادة، فضلت أن أتركهما فترة، ربما حتى تنتهي ماري من حكايتها، وينتهي توتر غادة وخوفها أو يقل على الأقل، دخلت المطبخ أبحث عما يمكن إعداده في سرعة.

لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، وأنا أحتسي ما بقي في قاع فنجاني من الشاي حين دق جرس الباب، أصبحت أتوتر من صوت هذا الجرس، لقد دق اليوم وليلة الأمس أكثر مما ينبغي، وكل مرة يحمل معه مشكلة، لم يكن يدق هذا الجرس أكثر من أربع أو خمس مرات في الشهر تقريبًا، أغلبهم لدفع فواتير الماء والكهرباء والغاز، تُرى ماذا وراء الجرس هذه المرة.

هناك أيام سيئة... يليها دائمًا أيام أكثر سوءًا، لم يعد هناك أيام حسنة أو معقولة، كلها أيام سيئة مُرة بامتياز.

صوت الأمطار عاد منذ قليل يضرب النوافذ الزجاجية، كنت أريد الاستمتاع بهذا الطقس وأجواء البرد والشتاء، وأنا مستقر في حياتي الروتينية الرتيبة المملة ربما، لكني أحبها وأفضلها هكذا، الآن لم تعد مملة أبدًا، فتحت الباب في بطء لأرى واحدة من أسخف الابتسامات السخيفة في حياتي مرسومة على شفتين غليظتين يعلوهما شارب سخيف مستفز.

الموت هو نهاية كل حكاية...

معي كان بداية كل الحكايات.

غادة.

انتفضت من رقدتي من جديد، أشعر بثقل هائل في رأسي، وصداع يكاد يقتلني، وهو يغزو ما فوق حاجبي الأيسر، ويدك أركان عقلي المترجرج داخل جمجمتي، هذه المرة كنت على أريكتي في صالتي، للحظات عاد إليَّ إحساس أني كنت أحلم، لكن عدم وجود السجادة المفروشة في الصالة، أفاقني، وطرد كل أثر لحلم أو لنوم في عقلي وعيني، نهضت مسرعة ناحية المطبخ، لم يكن هناك أي أثر لجثة أو لدماء، كل شيء كان نظيفًا، ربما أنظف من مطبخي في الأيام المعتادة، حتى مع وجود تلال من الأواني غير النظيفة في الحوض وعلى جانبيه، رغم أن كل شيء لم يعد له أثر إلا أني أشعر بتوتر يملأ كياني، وارتجافة تهز جسدي، كأني أرى جثة أشرف ملقاة أمامي في دمائها، جلست على أحد الكراسى ودفنت وجهي بين يدي، صداع نصفي يكاد يشق رأسي نصفين، بالأمس كنت أحلم بأشرف يطاردني طوال الليل، كل مرة كان هو من يطعنني، شاهدته وهو ينهض من على الأرض ويطعني بنفس السكين، ملامحه الغاضبة لا زالت تخيفني، لماذا لم يظهر أدهم في أحلامى لينقذني؟!.

ليته فعل.

ذهبت للحمام أغسل وجهي، فوجدت اللحاف الذي ألقيته بالأمس على الجثة وملابس أشرف، موجودتان في حوض الاستحمام، الحمد لله أن اللحاف من الفايبر الذي يمكن غسله، خلعت ملابس أدهم التي عليَّ ووضعتها في الغسالة، لأغسلها قبل أن أعيدها إليه، غسلت وجهي بماء بارد، فتحت عيني لأرى أن هناك شخصًا ما يقف خلفي في المرآة، التفتُّ في سرعة، فلم أجد بالطبع أحدًا، شعور أن هناك من يراقبني يكاد يقتلني، الآن يبدو أنه سيزداد بعد ما حدث، ارتديت ملابسي على عجل، كل لحظة تمر كنت أشعر معها أن هناك أحدًا ما معي في الشقة، شيء ما حولي، هل أرواح القتلى تحوم في مكان مقتلها كما يقال.

خرجت للشارع، تحت نور الشمس المتسرب من وسط سحب كثيرة غامقة، تحمل الكثير من الأمطار للساعات القادمة، أشعر أن وزني أخف وعقلي يحمل الكثير والكثير من الأفكار وصدري ممتلئ بالخوف والرعب مما حدث ومما سيحدث، درت في الشوارع، أشعر بخطواتي ثقيلة، أسير في بقع مياه الأمطار المنتشرة في الشوارع، حاولت أن أفعل أي شيء يزيل أو يقلل من توتري، فلم أستطع التفكير، عقلي مضطرب، وأفكاري مشتتة، لازلت لا أستطيع التركيز على أفكار محددة، لقد صرت قاتلة وورطت معي صديقًا قديمًا دون قصد، مع ذلك أشعر أن كل هذا حلم، هل أصبح صعبًا عليَّ التفريق بين الحلم والحقيقة؟ حاولت تركيز أفكاري لأعرف ما الذي وصل بي لهذه المرحلة فلم أستطع، مرت ربع ساعة بالكاد وأنا أدور في الشوارع شبه الخالية، صوت أقدامي على الرصيف تكاد تفزعني، شعرت بخطوات أحدهم تقترب مني من الخلف ففزعت، هل اكتشفوا الأمر ويطاردوني الآن؟ ثم سألت نفسي مَن هم الذين اكتشفوا؟!! أم أن أشرف نفسه هو من يطاردني؟! أشعر بخطواته تقترب مني في سرعة، أسرعت الخطى حتى لا يلحقني، كدت أتعثر، أنفاسي تتلاحق، زدت من سرعة خطواتي حتى صرت أجري، لكنه كان أسرع، مر من جانبي في سرعة وتجاوزني دون حتى أن ينظر إليَّ، لم يكن يطاردني أو يتعقبني، كان صبي أحد المكوجية يحمل بعض الملابس ويسرع بها لصاحبها، وقفت تائهة لحظة ثم انفجرت باكية، لازلت متعبة، ضعيفة، هشة، وحيدة.

عدت في خطوات بطيئة ناحية عمارة أدهم، لم أنظر إلى العمارة التي بها شقتي كأنها غير موجودة، أو كأني لا أقطن في هذا الشارع، مسحت دموعي حتى لا يظهر عليَّ أني كنت أبكي، للحظة شعرت أنه يتأملني حين فتح الباب، أشعر أنه يقرأ ما بداخلي، أو أني أنطق بمكنوني دون صوت، كنت مضطربة في جلستي، كطفلة صغيرة تريد أن تشكو من العفريت الذي يظهر لها في دولاب ملابسها، حدثني عما يجب أن أفعله من تبليغ للشرطة، وافقته رغم تخوفي من ذلك، فحالتي ستفضح أمري ربما، شربت القهوة التي وضعها أمامي، سألني عما في خاطري، أجبت متوترة عن رغبتي في الرحيل لخوفي من الشقة والمبيت فيها، أو حتى الجلوس فيها نهارًا، انتهى بنا الكلام وأنا أجلس معه في شقة ماري، سيدة عجوز لطيفة، صوتها يبعث على الطمأنينة، ويبث الراحة في صدري، ذكرتني لحظات بجدتي التي لم تعش معنا أكثر من أشهر ثم ماتت، لماذا دائمًا يرحل من نحب قبل أن نكتفي من بقائه معنا، لماذا تنتهي لحظات السعادة في سرعة؟ ربما من الصعب أن نكتفي بالجلوس مع أشخاص نحبهم ونشبع من لحظات السعادة معهم حتى لو طالت.

غادرنا أدهم وتركني في رعاية ماري، رغم حركتها البطيئة إلا أنها كانت تتحرك في قوة تحسد عليها في مثل سنها، دعتني لمطبخها، لتجهيز ما يمكن تناوله على الإفطار، طراز شقتها قديم، أركانها تبعث على الدفء، ذكرتني بأفلام ليلى مراد وأنور وجدي، وضعت إسطوانة سوداء من الطراز القديم في جرامافون عتيق وثبتت الإبرة لتصدر صوت خربشة قوية، ثم علا صوت امرأة تغني بطريقة إوبرالية، ابتسمت وهي تقول:

«هذه أنا».

تابعت أثناء سيرنا للمطبخ وأنا أحاول أن أمسك ذراعها لتستند عليَّ:

«لقد غنيت أمام ملوك وأمراء ورؤساء دول، وزراء ومسئولين كبار من كل الدول، لما زار تشرشل مصر سنة ١٩٤٣ بعد الحرب العالمية الثانية دعاني مولانا الملك فاروق لأغني أمامه في حفل أعدَّ خصيصًا له، كنا في الفيوم، والملك عبدالعزيز آل سعود كان موجودًا حينها، مدعوًا بالطبع، لكنه رفض الاستماع للغناء، قال لي أحدهم يومها أن رجال البروتوكول السعودي أبلغوا اللورد كيلرن أن ابن سعود لن يسمح بالتدخين أو شُرب الكحول في حضرته، وأن هذه تعاليم دِين الملك عبدالعزيز، فأبلغ كيلرن تشرشل بدوره فردَّ تشرشل أنه إذا كانت هذه تعاليم دين الملك، فإن تعاليم دين تشرسل تُصرُّ على شعائر الشراب والتدخين، ومع ذلك حتى يتم اللقاء في هدوء دون خلاف مع الملك البدوي أمر تشرشل بتقديم أصناف الويسكي والصودا في أقداح ملوَّنة، واصفين إياها بأنها دواء، ملكنا المعظم فاروق لم يكن يشرب الخمر لكنه لم يكن يمانع من شرب ضيوفه».

كان واضحًا في حديثها حبها وتبجيلها لشخص الملك فاروق وليس فقط مكانته، تمنيت لحظات لو أني عشت معها في تلك الأيام التي تبدو من حديثها أنها كانت سعيدة، تستحق أن تُعاش، أشعر بهذا حتى في أفلام ما قبل ثورة ٥٢، أشعر فيها بالمودة والحب بين الناس، حتى شرير الفيلم في تلك الفترات كان رجلًا متأنقًا يبدو عليه الرقي في التعامل وأحيانًا شرف الخصومة والعداوة، وليس مصحوبًا بأثر لمطواة في وجهه كما يفعلون في أفلام هذه الأيام، لكن كنت أظن أحيانًا هذا ما يظهر في الأفلام فقط، وليس ذلك كان واقعهم الحقيقي، لكني الآن أشعر بهذا في حديث ماري ووسط كلماتها.

جلست على كرسي في المطبخ وماري تخرج بعض الطعام من الثلاجة، وتسخن بعض أرغفة الخبز الذي اعتادت تجميده، الشقة كانت تمتلئ بصور طفلتين صغيرتين مع أمهما على ما يبدو، وأحيانًا طفلة واحدة منهما في سن أكبر مع نفس المرأة، سألتها:

«أنتِ إحدى الطفلتين في الصور؟».

جلست في مواجهتي، وهي تخرج الصور من إطارها العتيق:

«هذه أنا وأختي الكبرى وأمي بعد وصولنا مصر بعدة سنوات، آني أختي ماتت بعد تلك الصورة بشهر واحد، مرضت في شدة ولم تكن أمي تملك ما يمكنها من علاجها، أمي كانت تجمعنا تحكي لنا المآسي التي واجهتها في هروبها من المذابح حتى وصلت لمصر، كنت رضيعة حينها، أتعرفين... بعد أربع سنوات ستمر مائة عام كاملة على المذبحة، منذ سنوات... في كل عام تدق أجراس الكنائس الأرمينية في الرابع والعشرين من أبريل إحياءً لذكرى المجزرة التي ارتكبتها الدولة العثمانية بحق الأرمن، كانت حربًا للإبادة، حرب بمعنى الكلمة، كأننا كنا جرادًا يجب القضاء عليه، أو وباءً على البشرية يجب التخلص منه وإنهاء نسله، بدأوا الأمر بإعدام المثقفين والسياسيين الأرمن والتحريض ضدهم بشكل عام بطريقة أقرب للقتل المتعمد والمنهجي خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، ولم يكتفوا بهذا فقط، بعد ذلك بفترة وجيزة بدأ الجيش العثماني في عهد السلطان عبد الحميد

الثاني في إعدام الرجال والشباب، ودفع النساء والأطفال والعاجزين من الرجال باتجاه الصحراء السورية في مسيرات للموت... مسيرات للرعب والفزع والخوف والموت، طرق الأتراك باب منزل جدي أرتين، طالبين منهم الخروج من البيت، كانوا في الصباح كما حكت لي أمي، خرجت العائلة كاملة، جدي وجدتي وأخوايَّ الصبيان أكبرهما في الخامسة عشر والثاني في الثالثة عشر، أمي تحملني رضيعة وتمسك أختي الصغرى في يدها وهي في الثالثة من عمرها، بعد أن هرب أبي من نافذة البيت الخلفية، وقفنا في الخارج مع بقية جيراننا، قتل الجنود الأتراك الجميع ما بين رميًا بالرصاص، وطعنًا بالسكاكين، وضربًا بالفؤوس بمن فيهم أخواي الصغيران، أمي نجت بعد أن كادت تموت اغتصابًا هي وأمها، مع أختي، وخرجوا بجدي المصاب في طريقهم مع من عاش من جيرانهم هاربين، خلال الستة أسابيع التالية شاهدوا أبشع الفظائع تقترف بحق الآلاف، أصعب من أن يوصف ويُحكى في كلمات، كان عدد الأرمن الهاربين من كل البلاد والنواحي ما يقرب من ستمائة ألف أرمني دون مأكل أو مشرب، الجنود كانوا يتعقبونهم ويضربونهم بالسياط لدفعهم للمغادرة، كانوا يطاردونهم ويصطادونهم كالحيوانات ليزيدوا من عدد الضحايا، وصل الآلاف منهم إلى سوريا ولبنان، ومن هناك رحل بعضهم للأردن وفلسطين خلال موسم الحج المسيحي، أمي فضلت الابتعاد أكثر بعد أن فقدت في الطريق أمها التي دفنتها أسفل شجرة توت وأبوها وزوجها الذي هو أبي وولديها الذكرين من قبلهم، أتت بنا إلى مصر».

تنهدت وواصلت سرد حكايتها في شجن...

«كانت أمي تصف لنا رغم صغرنا كيف عذَّب الأتراكُ اللاجئين الأرمن وخاصة الفتيات، كانت تصف لنا أصوات بكاء الأطفال ومعهم أختي وأنا بالطبع بسبب الجوع، ولم تنس أبدًا مشهد انتحار أم وابنتها، بعدما ربطتا شعرهما ببعضه البعض وانتحرتا بالقفز من صخرة عالية خوفًا من الاغتصاب، كما سمعت عن أُخرتين رمتا بنفسيهما في نهر الفرات».

نهضت من جلستها، غارقة في شجونها تُخرج الخبز من الفرن وهي تتابع:

«ضحايا الأرمن قاربوا المليون وربما المليون ونصف، وتركيا لا زالت ترفض وصف ما حدث بالإبادة الجماعية، وتقول إنها مأساة لكلا الطرفين، وأن ما حدث كان تهجيرًا احترازيًّا ضمن أراضي الدولة العثمانية في ذلك الوقت بسبب عمالة عصابات أرمنية للجيش الروسي، قتلونا وشردونا ثم اتهمونا بالعمالة والخيانة، ما حدث كان هولوكستًا».

تنهدت تنهيدة قوية تحمل الكثير والكثير مما تخفيه رغم أنها لم تعش ما حكته إلا من خلال حكايات أمها، وهي تقول:

«افطرى قبل أن يبرد الخبز».

أمضينا بقية النهار جالسين في غرفة جلوسها الأرمينية الطراز، تواصل سرد حكايتها تارة وذكرياتها في الغناء تارة أخرى، تناولنا القهوة التي أعدتها على السبرتاية الخاصة التي ورثتها عن

أمها مرتين، حتى غلبها النعاس جالسة مكانها، جذبت عليها غطاءً كان جوارها، ظللت أنظر للتلفاز الذي لم يغلق من لحظة أن دخلت، رغم أنه لا عين نظرت إليه أو أذن استمعت لما يحدث فيه، ارتفع صوت جرس هاتفي المحمول، أخرجته في فزع وسرعة، رقم غريب يتصل بي، ترددت لحظات ثم استجمعت قواي وأجبت، سمعت صوت رجل في الطرف الآخر يسألني إن كنت مدام غادة أم لا، فأجبت بنعم، تابع موضحًا:

«أنا أحمد برهان... دكتور أحمد برهان زميل دكتور أشرف، الحقيقة أنه لم يأتِ اليوم للعمل وكان هناك موعد بيننا أيضًا بعد انتهاء العمل ولم يأت، ولا يرد على هاتفه المحمول، هل هو موجود عندك؟».

حبست أنفاسي المضطربة داخل صدري، ووضعت يدي على الهاتف حتى لا يسمع صوت دقات قلبي الصاخبة، التقطت أنفاسي في توتر وسرعة ثم أجبت بصوت خرج متوترًا مبحوحًا رغمًا عني:

«أشرف لم يعد للبيت منذ أمس، ولا يرد عليَّ أنا أيضًا، حتى أني شعرت بالقلق وفكرت أن أذهب لإبلاغ الشرطة».

رد عليَّ بصوت يحمل الكثير والكثير من التعجب...

«غريب هذا الأمر، عمومًا إن عاد أو اتصل بكِ أرجوكِ أخبريه أن يتصل بي ضروري أو بدكتور ناصف سند».

شعرت بالارتياح لحظات بعد أن أنهيت المكالمة، ثم بدأ الخوف يغزوني من جديد، حتمًا هذا الرجل سيسأل عن أشرف مرة أخرى في الأيام القادمة وربما صديقه الآخر، ماذا قال اسمه، نعم... ناصف، أعتقد أن عليَّ تبليغ الشرطة كما قال أدهم، لكن ماري نائمة وليس معي مفتاح للشقة وأخشى إزعاجها، أنا مجرد ضيفة، وأدهم لم يأتِ مرة أخرى... وأكاد أشك أنه لن يأتيَ اليوم، لقد ورطته وأزعجته بما فيه الكفاية ليلة أمس واليوم.

ظللت في مكاني حتى اقترب منتصف ليل القاهرة وأنا جالسة في مكاني لم أتحرك وماري نائمة في مكانها، الدقائق ثقيلة تزحف أبطأ من أي سلحفاة في العالم، الوقت مع التفكير والتوتر الذي يملأني، كأنه سم يغزو خلاياي في بطء، المشاهد تتحرك أمامي على شاشة التلفاز لا أتابعها ولا أعرف ماذا يدور فيها، لم أحاول حتى رفع صوته ليؤنس الوحدة التي أجلس فيها مع أفكاري وهواجسي وخوفي الذي يكاد يقتلني، للحظات فكرت هل من الطبيعي أن تنام ماري كل تلك الفترة، ترددت لحظة ثم بدأت أنادي عليها بهدوء فلم ترد، رفعت صوتي قليلًا وبدأت في وكزها في كتفها في خفة، فلم تستجب، اقتربت من أنفاسها كانت بطيئة، لكن محسوسة، هل ستصاب بشيء ما وأنا موجودة معها، المصائب لا تأتي فرادى، ليس أمامي غير أدهم أطلب مساعدته، هو من أتى بي هنا وهو المسئول عنها من الأساس، تركت باب الشقة مواربًا وهرولت أدق جرس شقة أدهم في سرعة ولهفة، مرت

الثواني قبل أن يفتح أدهم، تحدثت في سرعة وأنا ألهث من فرط توتري، فلم يفهم من حديثي أي كلمة، أشار إليَّ أن ألتقط أنفاسي...

«اهدأي ماذا حدث؟».

التقطتُ أنفاسي في صعوبة وأنا أقول:

«يبدو أن ماري بها شيء».

ظهر من خلفه رجل ملامحه سمجه بشفتين غليظتين وشارب رفيع يبدو سخيفًا على ملامحه، دفع كتف أدهم ليمر من جواره ويخرج وهو يقول:

«سأتركك الآن ونكمل حديثنا في وقت لاحق».

توقعت أن يهبط السلم نازلًا، لكنه ارتقى درجات السلم وصعد لأحد الأدوار العليا، لم أشعر براحة تجاهه، ولا براحة من نظرات أدهم التي لاحقته ولم أفهمها، حاولت أن أعرف مَن هذا الشخص فأجاب:

«أحد جيراني».

ثم تابع في لهفة بعد أن نسيت ما أتيت بسببه للحظات:

«عودي وابقي جوار ماري، سأذهب لأحضر الدكتور أيمن من الدور العلوي».

عدت مكاني جوار ماري، وما هي إلا دقائق حتى دخل أدهم من الباب الذي تركته خلفي مفتوحًا ومعه رجل تجاوز الخمسين من العمر ممتلئ الجسد يحمل حقيبته في يده، مال على ماري وفتح حقيبته ليكشف عليها، وقف أدهم جواري وهو يقول:

«لا تتوتري... ليست تلك أول مرة».

لم تنفع تلك الكلمات في تهدئتي، ودارت عيناي بين وجه ماري الذي لا يبدو عليه أي انفعال وأدهم والطبيب الذي يحاول أن يفيقها، لكنه اعتدل فجأة وقال:

«أعتقد أننا يجب أن ننقلها المستشفى هذه المرة».

سألت في توتر:

«هل هو أمر خطير؟».

أجاب في هدوء الأطباء المستفز:

«لا... أمراض شيخوخة، ليست أول مرة تصاب بتلك الغيبوبة، لكن أُفضل أن تدخل عناية مركزة».

سألت أدهم:

«هل أطلب الإسعاف».

لمحت ابتسامة باهتة على شفتي دكتور أيمن، وأدهم يجيب:

«لو طلبنا الإسعاف لن يأتي قبل الفجر، وربما لن يأتي، سأحملها في سيارتي ونذهب بها».

صعد لشقته جريًا وعاد مرتديًا ملابسه ومعه مفتاح السيارة في يده، ناوله إياي، وحمل ماري على ذراعيه بعد أن دثرها ببطانيتها، ودكتور أيمن يقول:

«سأبدل ملابسي وألحق بكم في المستشفى؟ ستذهب لمستشفى...كالعادة؟».

أجاب أدهم ونحن أمام المصعد يلتقط أنفاسه «نعم».

جذبت باب الشقة ونزلت معه في المصعد أراح ماري على كنبة السيارة الخلفية، ثم أخذ مني المفتاح وطلب مني أن أجلس جوارها في الخلف وانطلق في سرعة، الشوارع كانت هادئة بالنسبة لهذا الوقت، ربما بسبب البرد الذي أقعد الناس في بيوتهم، أو الأمطار التي ما أن تكف قليلًا حتى تعاود الكرة من جديد، رائحة الشتاء كانت تملأ الجو، وقطرات المطر التي غسلت الشوارع تتساقط بهدوء على زجاج السيارة، لا يقطع الصمت داخل السيارة إلا صوت مساحات الزجاج الرتيب، وأصوات ألات التنبيه المزعجة الذي يصدرها بعض السائقين حولنا رغم أن الطريق شبه خال.

المستشفى كانت هادئة، لكنهم تحركوا في سرعة فور دخولنا، كأنهم كانوا على علم بوصولنا، ربما اتصل بهم أدهم وهو يرتدي ملابسه أو ربما فعل دكتور أيمن بشارة، أحضروا سريرًا خاصًّا لنقل المرضى جوار السيارة ووضعوا عليه ماري، وعاد أدهم ليوقف سيارته بعيدًا عن مدخل المستشفى، كان واضحًا أن ماري وأدهم معروفان هنا، فلم يسألهم أحد عن البيانات أو أموال كما يفعل الكل في المستشفيات الخاصة حتى دخلت غرفة العناية المركزة وأوصلوها بالأجهزة، بعدها طلب منه أحدهم أن يتوجه لإملاء البيانات، ففعل وتحركت معه حتى انتهى من كل تلك الإجراءات.

وقفنا من خلف الزجاج نتابعها راقدة على السرير في حجرة هادئة الإضاءة، حواليها الأجهزت التي تتصل بجسدها، وتنبعث على شاشتها إشارات لعلاماتها الحيوية، لم أتجرأ على قطع الصمت الذي ساد بيننا، لكن أدهم فعل، قال في هدوء ربما لتعوده على هذه الزيارات للمستشفى كما فهمت:

«هل أخبرتك أنها غنت في قصر البارون؟».

نطقت بصوت خرج مني خفيض:

«لا، لم تفعل».

أكمل كلامه كأني لم أتكلم، نطق بصوت رغم هدوئه إلا أنه كان يخفي كثيرًا خلفه، لا أدري إن كان انفعالًا أم شجنًا وحزنًا:

«هي التي اختارت هذه المستشفى، وحددتها لي بالاسم منذ اليوم الذي أعطتني فيه مفتاح شقتها وطلبت مني أن أنقلها لهذه المستشفى إن حدث لها شيء استوجب نقلها للمستشفى، بعد أول مرة سألتها فردت وهي سعيدة لأن الغرفة التي تبيت فيها ترى منها قصر البارون، بالطبع لم تكن غرفة العناية تلك، بل قصدت الغرفة التي سيتم نقلها إليها حين تفيق».

سألت في استغراب:

«فقط لأنها غنت فيه؟!».

ابتسم وهو يقول:

«بالطبع لا... بل لأنها قابلت هناك حبها الأول».

صمت لحظة ثم تابع:

«حبها الأول الذي لم يكتمل بالطبع».

سألت في اهتمام:

«ولمَ لمْ يكتمل؟».

أجاب: «لأنه كان من ذوي الدم الأزرق».

نطقت في تعجب «دم أزرق؟!».

ابتسم حتى بانت أسنانه:

«معقول لا تعرفي من هم ذوو الدم الأزرق، أقصد أنه كان من العائلة المالكلة the royal family».

حاولت أن أعرف منه تفاصيل أكثر فسألته في اهتمام:

«ألأنها...!! أقصد مسيحية؟».

هز رأسه على جانبيه في سرعة دلالة على الاحتمالي وهو يقول:

«ربما... محتمل أن يكون هذا أحد الأسباب، لكن الأهم أنها كانت غير ذات أصل، لا حسب لها ولا نسب، أرمينية متشردة، وحيدة، صعب أن تقبل بها أسرة متيسرة الحال، فما بالك بأفراد العائلة المالكة».

تنهد في قوة قبل أن يكمل:

«لم تحك لي تفاصيل عن شخصيته لكني أظنه كان ذا شأن، وإلا كان تزوجها في السر كما يفعل البعض، لكنها حكت لي أنها في ذلك اليوم كانت مدعوة كأي شخص آخر، لم تكن مدعوة للغناء، لكنها بعد أن تعرفت على أميرها وتبادل معها الحديث وأحست بجذوة الحب تشتعل تحت رماد حزنها وماضيها الأليم، وَجَدَتْ نفسها تطلب من عازف البيانو أن يعزف لها أغنية أسقنيها، مرات كثيرة كانت تغنيها أمامي كانت تسرح بعينيها في المنتهى كأنها فتاة يافعة لم تتجاوز الثامنة عشرة، أحلامها وعمرها لا يزالان أمامها وهي تغني بصوت عذب يخرج من بين تلافيف قلبها وحنايا صدرها...

صبها من شفتيك في شفتيَ

ثم غرِق ناظريك في ناظريَ

واختصر ما عليك أو عليَّ

أن تكن أنت أنا

وجعلنا الزمن قطرة في كأسنا».

لمحت الدمعة تتسرب هاربة من طرف إحدى عينيه، كأن كلمات الأغنية تلك لامست شيئًا داخله، أو ربما تذكره بلحظات لمح فيها السعادة مرسومة في عين ماري الراقدة أمامنا في غرفة العناية، أو حتى تذكره بها وهي مستيقظة تملؤها الحياة، حاولت أن أبعد به عن شجونه فسألت:

«من صاحب تلك الأغنية، لم أسمعها من قبل؟».

«صاحبة الأغنية وليست صاحب، هذه إحدى أغاني أسمهان».

«لم أسمع لها من قبل».

ثم استطردت حتى لا يظنني جاهلة:

«لكنني أعرفها بالطبع... وأعرف أنها ماتت صغيرة كذلك».

مال عليَّ وهو يبتسم قائلًا:

«طيب وهل تعرفين أنها كانت أخت فريد الأطرش».

تفاجأتُ مما قال وأنا أرد:

«لا لم أعرف... فعلًا كانت أخته...؟ شقيقته؟».

أجاب بنعم وهو يتابع...

«كان حواليها الكثير والكثير من الشائعات عنها وعن علاقاتها المتعددة، وأنها كانت تعمل جاسوسة أيضًا».

ابتسم متابعًا «مثل ماتا هاري».

أجبت «الحقيقة لم أكن أعرف هذا ولا أعرف ماتا هاري أيضًا».

جذب يدي بعفوية لأسير معه مبتعدين عن غرفة العناية المركزة وهو يقول:

«هذا موضوع يطول شرحه، ربما أحكيه لك في وقت آخر».

في طريقنا لنجلس في الأماكن المخصصة لجلوس أهل المرضى، قابلنا دكتور أيمن بشارة، لم أنتبه إلى ملامحه من قبل، لكن يبدو من خديه المترهلين قليلًا أنه كان سمينًا ممتلئ الجسم، ثم فقد الكثير من وزنه دفعة واحدة، حتى أن ملابسه تبدو واسعة عليه، وغير مناسبة، كان جواره أحد أطباء المستشفى، حياني بإيماءة من رأسه، وتبادل بعض الكلمات مع أدهم تدخَّل فيها طبيب المستشفى عدة مرات، يطمئنونه على حالة ماري واستقرار حالتها الصحية وأنهم ربما ينقلونها لغرفة عادية في مساء الغد.

ابتعدت عنهم بضع خطوات وجلست على إحدى كراسي الانتظار، لحظات نسيت فيها مشاكلي النفسية وتوتري، والأرق الذي يغزو ليلي يوميًّا ويقتل أملي في الحصول على النوم بل كدتُ أنسى أشرف نفسه ومقتله الذي جرى على يدي، يبدو أني كنت في احتياج شديد أن أنشغل بأشياء أخرى تحدث خارج مجرى حياتي، من الأكيد أن كل شخص يحتاج لحظات يكون فيها متفرجًا على الحياة،

على ما يحدث فيها وهو بعيد عن دائرة الحدث والخطر والاهتمام، ربما يتدخل برأي أو حتى بفعل، المهم ألا ينعكس عليه أي شيء، مشكلة كل إنسان أنه يرى نفسه البطل الوحيد في هذه الدنيا وعلى هذه الأرض، وأن مَن حوله، كلٌّ من حوله يؤدون أدوار الكومبارس من أجله، لا يخطر في باله لحظة أن يتوقف وينظر ويشعر أنه أيضًا كومبارس في حياة الآخرين، وأن هؤلاء الآخرين هم أبطال حياتهم.

بعض الأحيان ربما من الأفضل أن أكون كومبارس لأبطال آخرين، أن أشعر بوجودي وأهميتي لكن دون خطر عليَّ أو تقلبات حياة تطحنني.

أود الآن ألا أكون حتى محور حياتي...

أتمنى لو عاد كل شيء لأصله...

لو عادت روحي لما كانت عليه من قبل...

لو عاد إحساسي بالحياة والأمل في الغد...

لو عادت لحظة أرتمي فيها في صدر أمي تخفيني بين ذراعيها عن العالم من حولي...

لو اُنتزع الهم من داخل صدري، وعدت طفلة أجري وألعب في شارعنا أو في حديقة بيت عمتي، وهواء البحر هناك يتخلل شعري المنسدل على كتفي، أحلام وأوهام تسللت داخلي أبعدتني عن كل ما أنا فيه، انتزعتني منها يد أدهم لما وضعها على كتفي متسائلًا:

«نمتي؟».

اعتدلت في جلستي: «لا لم أنم، تهت في أفكاري».

جلس جواري وهو يقول:

«أعلم أنك متعبة ولم تحصلي على قدر كاف من النوم، الساعة الآن تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وربما لم تتناولي غذاءك وتشعرين بالجوع، هيا سنذهب للبحث عن أقرب مطعم نتعشى فيه ثم تعودين لشقة ماري لتنالي قسطًا من النوم إذا كنتي لازلتي تخشين العودة لشقتك».

هززت رأسي رافضة:

«لا... لا... سأعود لأبقى هنا مع ماري حتى تفيق ثم أعود لشقتي، يجب أن أتعود».

وقف محفزًا إياي:

«كما تودين... المهم أن نأكل الآن، أنا شخصيًّا أشعر بالجوع».

لم تمض نصف ساعة حتى كنا جالسين في أحد محلات البيتزا، لم يكن بعيدًا عن المستشفى، حتى أننا سرنا إليه مشيًا ولم نركب السيارة، المطعم كان ممتلئًا بالزبائن رغم الشوارع الخالية والبرد والأمطار، الناس لا تكف عن الأكل في أي وقت، بعد أن انتهينا شعرت برغبة ملحة في السير على الأقدام في هذا الجو بعد الشعور بالشبع والدفء رغم برودة الجو التي لم تقل، لحظات كنت أريد أن أعود فيها إلى الأيام التي كنت أسير فيها مع أدهم ونحن عائدين من أحد الدروس أو متجهين إليها، طلبت منه ذلك فلم يمانع، بالطبع لم أصرح له أني أرغب في استعادة ذكريات الأيام الخوالي، سرنا دون أن نحدد هدفًا نسير إليه، لم نتبادل أي حديث أو كلام، التزمنا الصمت كأنه عهدٌ علينا، خطواتنا على الأسفلت لها إيقاعٌ جميلٌ، نسمة البرد التي ترتطم بوجهي تشعرني برجفة لذيذة، كأنها يد حانية تداعب خدَّيَّ، في ظروف أخرى مماثلة كنت احتضنت ذراع من جواري، وملت بكتفي على ذراعه، وسندت رأسي على كتفه، لكن ذلك كان حلمًا صعب المنال الآن، السنين مرت ولم أعد كما كنت ولم يعد أي شيء كما كان، حتى أدهم وهو جواري يساندني أشعر أنه بعيد عني بآلاف الأميال، السنين والأيام تحول وتقف بيننا، وبيني وبين ذكرياتي التي بهتت ألوانها، فأصبحت مجرد خيالات، صورٌ حفظناها في عيوننا، وتحولت لحنين عظيم محبوس بين ضلوعنا، أحاول أن أفتش بين ثنايا الضحكات القديمة عن سعادتي أين تاهت، أرى ثوانٍ من أيام مضت حفرت أثرًا على وجهي قبل أن تحفره في أعماقي وفي داخلي، لكن رغم مضيها لا تزال نفس المشاعر تسكنني، لكن للأسف مقاعدنا لم تعد تحوي دفء حكاياتنا، محاولتي لاسترجاع ذكرياتي أنتتي على هيئة أوجاع.

أبي... كم أنا في احتياج إليك، حين كنت تحمل حقيبتي المدرسية كنت أمشي جوارك أقفز عن يمينك وعن شمالك، أضحك كأميرة أتت لها الأرض راكعة تحت قدميها، لم أكن أشعر أن هناك ما يمكن أن يثقل على حمله، كنت فراشة تطير على الأرض وأنت راعيها، الآن أنا وحيدة من دونك، تائهة، أشتاق لك بكل ما وراء الكلمة وما فوقها من لوعة فراقك وألم فقدك، أشتاق لوجودك جواري، أشتاق للمسة يدك، أشتاق لصوتك الذي يشعرني بالأمان، أشتاق إلى نظرة عينيك، حتى إلى حذائك جوار الباب الذي كان يشعرني بأمان وجودك في البيت، أشتاق إليك شوقًا لا يبلغ منتهاه، أشتاق إليك يا أبي.

كم أحتاج هذه الذكريات وكم أتألم منها...

قطع حبل أفكاري صوت أدهم:

«لقد وصلنا إلى قصر البارون».

ثم أمسك يدي وجذبني متحركًا ناحية القصر قائلًا:

«تعالي نقترب منه أكثر».

لم أستطع أن أقاوم أو لم أكن أرغب في المقاومة... ربما...

كنت أحتاج إلى من ينتشلني من أفكاري وذكرياتي ويعيدني كومبارس في الواقع، تسللنا في خطوات هادئة تحت جنح الليل، قبة القصر تبدو غريبة الشكل وطويلة محلاة بتماثيل الإله بوذا، على جدران القصر رأيت رسومات غريبة لجماجم ونجمة داود وطلاسم أغرب، ورغم الإضاءة الضعيفة الموجودة إلا أنني استطعت أن ألمح تماثيل رائعة من المرمر لراقصات تبدو هندية، وأفيال ترفع النوافذ، وفرسان يحملون السيوف وحيوانات تبدو خيالية ليس لها وجود في الحياة متكئة على جدران القصر جوار نموذج لتمثال بوذا المميز، همست بصوت لا أدري لماذا خرج خافتًا، ربما لأننا متسللين تحت جنح الظلام:

«هذه أول مره أقترب فيها من القصر، دائمًا أراه من بعيد فقط، لم أر هذه الأشكال والتماثيل من قبل، كنت كل ما أعرفه عن القصر أنه أول مبنى أُنشئ في مصر الجديدة».

تعجب أدهم من كلامي مرددًا...

«تعيشين في مصر الجديدة طوال حياتك ولا تعرفين عنه شيئًا، هذا القصر له حكايات وحكايات، وجرائم قتل وأشباح وحوادث، ليس فقط أنه أول مبنى في مصر الجديدة».

سألته المزيد ليبعد عن ذهني أفكاري وهواجسي، وينسيني ولو للحظات كل ما يجول بخاطري من ذكريات وآلام وخوف مجهول من الأيام القادمة، اقتربنا من القصر حتى بانت ملامحه أكثر لعيني وهو يقول:

«البارون إمبان عرض على الحكومة المصرية مشروع إنشاء حي في الصحراء شرق القاهرة واختار له اسم (هليوبوليس) مدينة الشمس».

ابتسم وهو يقول... «اشترى هنا الفدان بجنيه واحد فقط، وطبعًا هو من فكر في إنشاء الترماي ليكون الانتقال سهلًا إلى الحي الجديد فيجذب الأهالي للسكن والحياة فيه، القصر من يومه وهو مبنى أسطوري، دعا البارون علية القوم من كافة الجنسيات في حفل مهيبة لافتتاح القصر، وكان على رأس الحضور سلطان مصر حينها السلطان حسين كامل، الذي اشتعلت في داخله رغبة تملّك هذا القصر من لحظة أن وطئت قدمه مدخل القصر كما قيل، وزادت رغبته أكثر واشتعلت عندما صعد مع البارون إلى برج القصر الأعجوبة في ذلك الوقت وجلس في شرفته؛ لأنه وجد البرج قد أقيم على قاعدة متحركة تجعله يدور دورة كل ساعة، وليس ذلك فقط بل لأن من كان يجلس فيه حينئذ في تلك الفترة من الزمان كان يستطيع أن يرى القاهرة كلها من مكانه، ظل يراود البارون عن قصره، وأرسل له العديد والعديد من المراسيل يريد القصر لنفسه لكن البارون كان دائم الرفض».

تسألت مستفسرة:

«لم أفهم كيف كان القصر يدور حول نفسه؟».

أجاب أدهم وهو يشير إلى قاعدة القصر وهو يتحدث:

«القصر صمم بحيث لا تغيب عنه الشمس، فهي تدخل جميع حجراته وردهاته؛ لأنه يدور فوق عجلات متحركة، أكبر قاعدة خرسانية ترتكز على رلمان بلي، لكن علاها الصدأ مع الزمن فوقف ساكنًا في مكانه لا يبارحه، قصر السكاكيني أيضًا كان يدور قديمًا لكنه تعطل بعد أن أصابه الشلل، كما أصاب كل بلادنا وحياتنا...، بالطبع هو من تصميم رجل فرنسي يدعى ألكسندر مارسيل».

تنهد في ضيق واضح على وجهه وهو يتابع...

«رغم أننا منذ القدم أعرق الحضارات في المباني والبناء، إلا أن كل مبانينا تدهورت مع الزمن، وأصبحت عشوائية دون أي مظهر جمالي ولا تمت للحضارة بصلة، أصبحت مبانينا مجرد أكوام خرسانية وحديد، أقرب لعلب أسمنتية».

سألت ونحن ندور حول القصر أتابع تفاصيل بنائه:

«هل هذه هي الحكايات التي قصدتها؟».

«بالطبع لا، هناك بضع حوادث ارتبطت بالقصر مع حكايات غريبة لا أحد يعلم هل كانت حقيقية أم مجرد أقاويل، ربما لأن ليس لها تفسير... لما كان البارون إمبان مازال يعيش فيه مع زوجته البارونة وابنتيه، كان هناك غرفة قابعة أسفل القصر في البدروم، أطلق عليها البارون اسم الغرفة الوردية أو غرفة المرايا لأن كل جدرانها قد اكتست بالمرايا، البارون كان ينزل إلى القبو ويجلس بالساعات في تلك الحجرة وكان شديد الحرص ألا يقترب منه أحد، حتى أنه حرَّم على عائلته النزول إليها، الغرفة تتصل بسرداب طويل مع كنيسة البازيليك، يصل طوله لأكثر من خمسة كيلومترات، لا أحد يعلم ماذا كان يفعل، وهل هذا السرداب مازال موجودًا أم لا...

بعد فترة وجدوا زوجته البارونة محشورة في المصعد الذي ينقل الطعام، ثم سقطت البارونة هيلانا أخت البارون من شرفة غرفتها ولقيت حتفها، كان الواضح في كلتا الحالتين أن الواقعتين تبدوان بفعل فاعل، فمن هذا الذي يحشر نفسه في مصعد الطعام وهو صغير، حجمه لا يتجاوز حجم صينية متوسطة الحجم، والبارونة الشابة لم تظهر عليها أي علامات أو رغبات انتحارية قبلها، بل أخذت يوم مقتلها تصرخ لينقذها البارون لكنه لم يفعل، وبعد موتها رفض أن يدفنها في كنيسة «البازيليك» حيث يُدفن أفراد العائلة وقام بدفنها بمكان مجهول في الصحراء الغربية، وقال بعض الخدم إنهم رأوا شبح البارونة «هيلانا» يطوف بالقصر بعد وفاتها بأيام، كما قالوا من قبل أنهم شاهدوا أيضًا شبح مصمم القصر ألكسندر مارسيل الذي يعتقد البعض أن البارون قتله خوفًا من أن يصمم قصرًا مثله لأحد !... ، لا أعلم إن كان هذا حدث فعلًا أم مجرد أقاويل لكن يبدو أنه لاقى جزاء سنمار في هذه

الرواية، المشكلة الأخرى أن ابنة البارون الصغرى «آن» شاهدت هذه الحوادث البشعة وكان عمرها عندئذ ثمانية أعوام تقريبًا».

وضعت يدي على فمى أكتم شهقة خرجت مني غصبًا:

«يا إلهي، لا بد أنها تأثرت بهذه الحادثة جدًّا، ربما طوال حياتها».

«طبعًا، حادثة كتلك ستنطبع في ذهن طفلة طوال حياتها، لكن هناك من قال إن البارون كان له طفلة أخرى مصابة بشلل أطفال منذ صغرها تدعى مريام هي من شاهدت حادثة أمها، بعدها ساءت حالتها، فأصيبت بمرض نفسي لم يعرف الأطباء له علاج، كانت تجلس بالساعات تبكي وتصرخ ولا تتوقف إلا بعد ذهابها للغرفة الوردية مخالفة أوامر والدها، تعود بعدها تقول إن صديقي الوفي داخل الغرفة كلمني وطمأنني، بعد فترة قصيرة وجدت تلك المسكينة هي الأخرى ملقاة في بئر السلم وعلى وجهها الطفولي البريء أقصى علامات الرعب».

نطقت في فزع:

«يا إلهي، ياللمسكينة».

تابع أدهم حكايته قائلًا:

«لم تنتهِ معاناة البارون وأسرته عندئذ، بل ربما بدأت خصوصًا لما كَوَّنَت آن صداقة مع سيلفيا ابنة الدوق ماريبي الذي كان يساعد البارون في تعمير مصر الجديدة وهي تقريبًا في السابعة أو الثامنة عشر، سيلفيا تلك قيل عنها إن لها علاقات شيطانية أو أنها من عبدة الشيطان وأنها أهدت آن ورقة مفضضة مرسوم عليها صليب مقلوب، فعلقتها آن على جدران حجرتها الوردية التي توجد غرب القصر، ربما لم تكن تعلم آن أن صديقتها سيلفيا تقودها إلى عبادة الشيطان أو ربما كانت تعرف، المهم أنها مع الوقت تغير حالها كليًّا، بدأت ضحكاتها تتعالى ليلًا مع صديقتها سليفيا، كانوا يشعلون بخورًا غريب الروائح، ثم بدأت تدعو أصدقاء جدد، تعرفت عليهم عن طريق سليفيا، فكانوا يقيمون ليلهم في السرداب مشعلين البخور، وينشدون ترانيم كئيبة حزينة سوداوية، لحظتها كانت آن تسترجع ذكرى موت أمها فتصاب بهياج بينما يقوم الأصدقاء باستدعاء الشيطان بقصد العبادة له، وكان البعض يزيد في الوصف قائلًا إنهم كانوا يذبحون الحيوانات والطيور وخاصة الخفافيش، ويدنسون الكتب الدينية ويقرؤونها معكوسة تمجيدًا لشيطانهم، ويتعاطون المخدرات ويمارسون علاقات جنسية شاذة وجماعية، لكني أظن أن هذه الأقاويل أضافتها العقول لتاريخ القصر بعد حوادث عبادة الشيطان التي حدثت في السنوات الأخيرة في نهاية القرن العشرين...، مع الوقت ساءت حالة آن ومع الوقت لاحظ أبوها وخادمات القصر هذا الأمر، فأشار عليه أحد الأطباء إلى ضرورة تغيير حجرتها حتى تعود إلى حالتها الهادئة كما كانت، ولكن دون جدوى، لم تتغير، وبدأت الأمور تسوء لما بدأ مقتل خادمات القصر واحدة تلو الأخرى، ست خادمات لقين مصرعهن، ومنهن مدام دي مورييه رئيسة خدم القصر، التي وجدوها محشورة في المصعد الذي يبدأ من البدروم حيث

المطبخ إلى الدور العلوي، ورأسها منفصل عن جسدها، كان الشك يتصاعد ناحية آن مع كل حادثة؛ لأنها كانت تحاول الانتحار بعد كل جريمة، كأن لها صلة بما يحدث، حتى لو كانت دون وعيها، لكن يبدو أنها كانت تشعر بذنب بعد كل حادثة فكانت تحاول التخلص من عذابها بالانتحار، من ضمن تلك الجرائم كان شقيق البارون نفسه الذي لقي مصرعه داخل نفس السرداب، البارون عانى كثيرًا من تلك الحوادث وتأزمت حالته النفسية ربما لشعوره أن ابنته لها يد في كل تلك الجرائم، لكنها ابنته ماذا يفعل؟!! لكن لم تدم هذه الأحداث إلا عامين أو أكثر قليلًا، فآن لقيت مصرعها وهي في التاسعة عشر من عمرها، بعدها عاد البارون إمبان إلى النمسا بعد هذه الكوارث وهو يعاني من أمراض نفسية كثيرة».

كانت عيناي متسعة، وفكي السفلي متدلٍّ قليلًا، من هذه الأحداث، فلم أكن أعلم كل هذا من قبل ولم أتوقعه، كل ما كان في عقلي عن القصر أنه قصر جميل الشكل والمبنى تحفة من تحف الزمان والعمارة، نطقت مذبهلة:

«هذا فوق ما يفسره العقل، لو كان هذا القصر أمريكيًّا لأخرجوا عنه عدة أفلام».

أجاب أدهم:

«في الخارج يهتمون بكل شيء حتى لو بدا للعامة بسيطًا، يحاولون بشتى الطرق أن يجعلوا لهم شأنًا وتاريخًا، حتى الأساطير أو الإشاعات لا ينكرونها بل يستخدمونها لجذب العقول، ربما كانوا جعلوا قصر البارون قصر رعب لجذب السياح، قرأت مرة عن مجموعة من الأمريكان القدامى كانوا تسيرون بلا طعام فترة ثم وجدوا ديكًا روميًّا أمامهم فجأة، فذبحوه وأكلوه واتخذوا اليوم من يومها عيدًا للشكر، أي شيء تافه لديهم يمجدونه ويجعلون له قيمة، ونحن هنا...!!! كما ترين، المهم... قصر البارون لم ينتهِ مع هذه الأحداث الغريبة، بل حاول الكثير ربطه بأساطير ومفاهيم أخرى، فتجاوز البعض قائلًا إن الشيطان اختار قصر البارون لنفسه؛ لأن القصر سداسي الأسوار وهو ما يتناسب مع الشرط الثاني لعقيدة الديمون في الاتجاهات الستة، التي في نفس الوقت مخالفة لرباعية الاتجاهات رمز الصليب المسيحي، وذلك لأن الشيطان يأبى إيفاد مبعوث له ضمن مساحة محاطة بهذا التكوين، وهناك بعض الناس يزعمون أن هناك أصوات ترتيل حزينة تُسمع ليلًا في غرفة الدماء بالقصر خلال شهر مارس من كل عام، أي نفس الشهر الذي لقيت فيه آن مصرعها، والشائعات كثيرة حول القصر، والحكايات ليست قديمة مع إنشاء القصر فقط، كان آخرها عام ١٩٨٢ حيث شاهد الكثير أدخنة تتصاعد من الغرفة الرئيسية بالقصر، ثم انتقلت إلى غرفة البرج - حيث كان البارون يفضل أن يجلس، تحول هذا الدخان إلى ألسنة لهب انتشرت في القصر كله، اتصل بعض الأشخاص بالمطافي والشرطة، وفجأة انتهى كل شيء كأنه لم يحدث ولم يبدأ، كما كان الكثير من الأجانب يأتون لزيارته بانتظام خلال الأعوام من ١٩٨٢ وحتى ١٩٨٦، وفى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، تردد بعض الشباب والشابات على القصر حيث كانوا يقيمون طقوس عبادات شيطانية وانتشرت عنهم قصص كثيرة وقضايا في تلك الفترة».

كنا ندور حول القصر وأنا أشعر أننا بتنا في منطقة منعزلة عن العالم، للحظات كنت طفلة مستمتعة بحكايات غريبة آتية من الماضي، وأنا أشاهد قصر البارون عن قرب لأول مرة في حياتي، حكايات عن أشباح لبارونات ولمهندس القصر، ونسيت تخيلي لوجود شبح أشرف الذي قتلته منذ ليلة واحدة واعتقدت أنه يدور في شقتي، أو لعله كان يدور في عقلي أنا فقط، المهم أني نسيت للحظات كل ما أنا فيه.

بدأت قطرات المطر تزداد قوة، فجرينا ضاحكين تحت الأمطار التي تزداد، عائدين صوب المستشفى، ملابسنا ابتلت مع زيادة الأمطار، أقدامنا غاصت في الطين واتسخت أحذيتنا، كنت طفلة تجري تحت المطر كما كنت أفعل وأنا لازلت في العاشرة من عمري، تعلقت يداي بذراع أدهم، فأمسك كفي في قوة حتى لا أسقط على الأرض متزحلقة، جرينا في الشوارع وسط أضواء السيارات القليلة التي تمشي على الطريق، لعلهم يتساءلون من هؤلاء الحمقى الذين يجرون تحت المطر، ولعل آخرين يظنوننا عشاق وقد بلغ بنا العشق بعض الجنون، لم أشغل بالي بكل هذا كنت أجري محاولة أن أستمتع بالجو البارد والأمطار واللحظات القليلة التي ربما لن تتكرر مرة أخرى، أحاول الاستمتاع بحلم قصير أعيشه قبل أن أستيقظ منه على مشاكلي ومشاكل دنياي وحياتي.

كانت الساعة تقترب من الثالثة والنصف صباحًا حين وصلنا أمام المستشفى، وقفنا لحظات تحت المظلة أمام مدخل المسشتفى، نتابع المطر الذي يزداد والبرق الذي يسطع في السماء ودوي الرعد يكاد يهد أركان السماء، ولازالت ابتسامتنا تملأ وجهينا وكفينا متعانقة، جذبت يدي في بطء على استحياء فتركها أدهم تنفلت من بين أصابعه، وددت لحظة لو أنه لم يتركها، سمعت صوت مفاتيح السيارة بين أصابعه وأدهم يخرجها من جيبه قائلًا:

«لم أعد أذكر أين أوقفت سيارتي؟!! لقد دخلت مسرعًا».

رفع ذراعه لأعلى محركًا إياه ذات اليمين وذات الشمال، وهو يواصل الضغط على أزرار إنذار العربية، حتى سمع صوتها من ناحية يسار مدخل المستشفى على بعد عدة أمتار، سألني:

«هل ستعودي إلى شقتك؟».

ضممت يدي حول جسدي مرتجفة قليلًا، وأنا أجيب:

«لن أعود معك، سأبقى مع ماري، لا أعتقد أني أرغب في العودة الليلة».

قال متعجبًا: «وملابسك المبتلة، ستمرضين؟».

هززت كتفي قائلة:

«سأخلع ما هو مبتل، وربما أطلب من إحدى الممرضات أن تأتي لي بشيء من ملابس الممرضات».

ظللت واقفة في مكاني أتابع بعيني المجهدة سيارته تبتعد، صعدت وطلبت من إحدى الممرضات أن تأتي لي بشيء أرتديه بدلًا من ملابسي المبتلة، الجو كان دافئًا داخل المستشفى.

جلست في مكان الانتظار في إحدى الزوايا، ولم أشعر أني غفوت إلا لما نادت عليَّ ممرضة تخبرني أن الساعة أصبحت الثامنة صباحًا، اعتدلت في جلستي، تحسست جيوبي وتذكرت أني نسيت هاتفي المحمول في شقة ماري، كنت أريد أن أتصل بأي شخص في المستشفى أطلب منه أن يطلب لي إجازة بضعة أيام، مرت الساعات بطيئة، وانتصف النهار وعلا أذان الظهر في الجوامع القريبة، ولم يأتِ أدهم، قلت لنفسي ربما لو كان معي رقم هاتفه لاتصلت به، لكني تذكرت حينذ فقط أني لا أملك رقم هاتفه المحمول، وبالطبع لم أعد أذكر رقم هاتف بيته، أين تلك الأيام التي كنا نجد أرقامنا مدونة في دليل تليفونات ضخم الحجم، متاح في كل الأماكن بما فيهم عم عبده صاحب الكشك الذي كان على ناصية إحدى شوارعنا قديمًا.

كنت قد ارتديت ملابسى التي جفت تقريبًا وجلست في مكاني أشرب كوب القهوة التي طلبته من الممرضة، لم يكن لي رغبة في طعام بعد، والوقت يمر بطيئًا مملًّا، رن هاتفي المحمول...

تعجبت حين سمعت صوته، وكنت أعتقد أني نسيته في شقة ماري، لكن يبدو أني كنت قد تركته في أحد جيوب ملابسي المبتلة التي خلعتها فجرًا.

أجبت في سرعة ولهفة دون أن أنظر من الهاتف الداعي، كنت أظن أنه أدهم لكني فوجئت بنفس الصوت الذي هاتفني بالأمس ذلك المدعو أحمد برهان، ظل يسألني في إلحاح إن كنت أعرف مكان أشرف، أو إن كنت أعتقد أنه ربما يكون موجودًا في مكان معين يحب أن يذهب إليه بين الحين والحين، وأبدى استعداده التام للذهاب والبحث عنه دون تردد، شككت أنه هناك بينهما أكثر مما أعتقده من مجرد زمالة وقلق على غياب يومين، فسألته:

«أخبرني أنت لماذا تريده بهذه الطريقة وتسأل عليه بإلحاح كأني أنا أخفيه عنك أو أنه متهرب منك ومن صديقك الذي قلت لي اسمه بالأمس».

قابلني صمت طال للحظات من الناحية الأخرى، سمعت بعده أصوات يد تجذب الهاتف المحمول في الطرف الآخر، ثم أجابني صوت شخص آخر يقول في هدوء:

«أنا دكتور ناصف سند مع حضرتك، أحب أعتذر في البداية عن الإزعاج الذي تسببنا فيه لحضرتك، لكن كان هناك موعد عمل بيننا وبين دكتور أشرف، وقد شعرنا بالقلق؛ لأنه كان يحمل أمانة تخصنا كان يجب أن يطمئنا عليها... وعليه بالطبع».

أجبت في تهكم... «أتقصد صنايق الترامادول؟!».

شعرت بابتسامة تبدو في نبرات صوته وهو يقول:

«جميل أنك تعرفي بخصوص الترامادول، لكن للأسف ما أقصده ليس الترامادول، أنا أقصد أمانة أخرى كانت في علبة أصغر كثيرًا من صناديق الترامادول».

هل هناك أكثر من الترامادول كان أشرف يخيفيه عني، سألت في سرعة:

«أحب أن أعرف ما هي تلك الأمانة ربما أعرف طريقها؟».

أجاب:

«تقدرى تسألي دكتور أشرف حين عودته، أتمنى ألا يتأخر أكثر من ذلك، عمومًا سأعاود الاتصال بكِ لأطمئن على عودته».

أغلق الهاتف بعد كلماته مباشرة ليتركني في ضيق وتوتر أكثر مما أنا فيه، جلست مكاني أفكر في ذلك الحديث، تُرى ماذا كان يقصد بتلك الأمانة، هل أشرف ذهب بها في مكان آخر قبل أن يعود، وما أهميتها عن الترامادول المكوم في مدخل شقتي؟ انشغلت بهواجسي وأفكاري التي تتخبط بأركان عقلي حتى كادت تُذهب ما بقي في من رجاحة عقل، مر الوقت وأنا في مكاني لم أتحرك، بعد العصر بما يقرب من ساعة ونصف أتى الطبيب الذي كان يتحدث مع دكتور أيمن بشارة وأدهم بالأمس، وأخبرني أن ماري استفاقت منذ ساعة ونصف تقريبًا، وحالتها مستقرة وطلب نقلها لغرفة عادية بدلًا من غرفة العناية المركزة، سألته عن رقمها وأسرعت إليها، دخلت وماري نائمة على السرير وإحدى الممرضات تعدل من وضعها وتضع خلف رأسها مخدة كبيرة، ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه ماري حين رأتني وقالت:

«الحقيقة... لم أتوقع أن تكوني هنا».

اقتربت جوار السرير وجلست على طرفه وأنا أربت على كفها قائلة:

«حمدلله على سلامتك، كنت قلقة عليكِ».

قالت في هدوء وابتسامتها في حالتها الطبيعية مرسومة مع قسمات سعادة على ملامحها التي حفرها الزمن بعناية ودقة، وترك عليها شبح ابتسامة من عمر مضى، كأنها في رحلة استجمام ولم تكن منذ ساعات رقيدة العناية المركزة:

«لا تقلقي، لقد تعودت على هذا الأمر، أول مرة حدثت لي تلك الإغماءة قال لي الطبيب إنها أمراض شيخوخة، كان وقحًا... كيف جرؤ على أن يخبرني في وجهي أني شخت».

ابتسمت وأنا أقول... «المهم أنكِ بخير الآن».

أدارت وجهها ناحية قصر البارون الذي يبدو ظاهرًا من نافذة الغرفة العريضة، وإن كان يبدو بعيدًا من هذه الزاوية وهي تقول:

«هل أخبرتك أني غنيت في قصر البارون؟!! لماذا تبتسمين هكذا؟!!

تركتها تقص عليَّ حكاياتها، وذكرياتها ربما بتفاصيل أكثر مما أخبرني به أدهم ليلة أمس، لكن الأكيد أني كنت أشعر أنها تسبح في الهواء وهي تقص عليَّ كل كلمة، كأنها ترى ذكرياتها تتحرك أمامها كلقطات لفيلم لا يراها ولا يدركها سوى عيناها، ظلت تحكي وتقص حتى وصل أدهم نحو الساعة السابعة مساءً، لم أساله لم تأخر، لكنه برر من تلقاء نفسه أنه عاد من العمل مرهقًا لأنه لم ينم ليلة أمس، وغفا ساعتين قبل أن يأتي، جلس معنا واسترسلت ماري في ذكرياتها، حتى دخل الطبيب المعالج واطمأن عليها وقال أنها تستطيع أن تخرج غدًا، بعده نهض أدهم قائلًا لماري:

«ما دمت تحسنتي واطمئننت عليكِ، سأعود للبيت، وآتى غدًا لأقلك لبيتك».

نظر إليَّ وهمَّ بسؤالي لكني أجبت قبل السؤال:

«وأنا أيضًا سأعود معك».

طوال الطريق داخل السيارة لم نتحدث، الشوارع لازالت مبتلة من أمطار أمس، صوت امرأة أمريكية تغني في كاسيت السيارة، لم أفهم أغلب كلماتها، لكن صوتها كان يحمل الكثير من الشوق والشجن، أشعر أني عائدة لحياتي التي كنت أهرب منها ليلة أمس، لذكرياتي الكئيبة، ولشقتي التي أشعر أنها مسكونة بشبح زوجي القتيل، ضاعت اللحظات التي تمنيت ألا تمر، وها أنذا أعود مرغمة إلى واقعي المر الأليم، سألني أدهم حين اقتربنا:

«هل تقدرين على العودة لشقتك؟ يمكنك أن تمضي عندي بعض الوقت، ولو أردتي أن تبيتي في شقة ماري أظنها لم تكن لتمانع».

هززت رأسي رافضة وأنا أقول:

«أريد أن أعود، سأحاول أن أتكيف وأنسى ما حدث حتى أستطيع أن أكمل حياتي، عل الله يسامحني على ما حدث، فلم يكن بإرادتي».

دخلنا شارعنا وكان مزحمًا بعدة سيارات من الشرطة وسيارة إسعاف، أنوارها الحمراء والزرقاء مستمرة في الدوران، فأضفت جوًّا من الرهبة والرعب بداخلي، هل أتوا من أجلي، انقبض قلبي

وشعرت به يسقط بين قدمي، وضعت يدي على ذراع أدهم الذي تمسك بمقود السيارة، ونحن نمر من جانب تلك السيارات وأنوارها منعكسة على وجوهنا، ونطقت باسمه في فزع مستنجدة...

«أدهم...!!»

أوقف أدهم السيارة وأنا أسأل في رعب:

«هل كشفوا ما حدث؟».

قال مطمئنًا: «اهدأي... الآن نعرف».

اتجهنا في خطوات بطيئة تجاة السيارات، لاحظت أن سيارات الشرطة تقف متجهة ناحية عمارة أدهم وليست عمارتي، وسيارة الإسعاف في مدخل عمارته أيضًا، هل اكتشفوا الأمر من ناحيته، حاول أحد العساكر أن يمنعنا من الاقتراب، فقال أدهم:

«أنا صاحب هذه العمارة».

سمعه أحد الضباط ونادى على العسكري ليسمح لنا بالمرور، حياه أدهم وسأله:

«خيرًا يا حضرة الضابط، ماذا هناك؟».

أشعر أني رأيت هذا الضابط من قبل، ملامحه لا تبدو غريبة، رد بصوت أجش ربما من تعاطي الستيرويد ليضخم عضلاته التي تبدو منتفخة بطريقة غير طبيعية تحت ملابسة الضيقة التي يرتديها:

«أهلا يا أدهم أخبارك إيه».

تذكرته أنه جارنا في هذا الشارع، لكني لا أذكر اسمه، حياه أدهم بالمثل فتابع الضابط:

«للأسف في جريمة قتل عندك في العمارة، في الدور الرابع».

نطق أدهم متعجبًا:

«من؟ مصطفى عبد الرحمن؟!».

سأل الضابط هل تعرفه:

أجاب أدهم في سرعة:

«بالطبع نحن جيران منذ الصغر».

أشعل الضابط سيجارته وعزم بأخرى على أدهم ونفثا دخانهما في الهواء البارد معًا، وأنا رغم خوفي الذي لم يزل، أحمد الله على ستره لي، لا أشعر بالحزن على من قُتل لأني لا أعرفه، لكني أشعر ببعض الارتياح؛ لأن هؤلاء لم يأتوا من أجلي.تابع الضابط حديثه مع أدهم:

«زوجته هي من أبلغت عن الجريمة، تقول إنها كانت تبيت عند أمها منذ يومين أو ثلاثة لا أذكر، ولما عادت اليوم وجدته مُلقى على الأرض والدم متفجر من رأسه، والشقة متناثر بعض أثاثها كأن هناك شجارًا حدث فيها بينه وبين القاتل غالبًا، حتى الآن لا يوجد شبه سرقة، أو ربما دخل سارق وتفاجأ بالقتيل فتشاجرا وقتله وهرب دون أن يسرق... لم نحدد بعد ماذا حدث».

لمحت المسعفين يخرجون من باب العمارة العريض يدفعون المحفة على عجلات وعليها جثة القتيل، وبينما يدخلون المحفة داخل السيارة طار الغطاء من على وجه القتيل، تعرفت على ملامحه وعلى شفاتيره الغليظة التي يعلوها ذلك الشارب السخيف، شهقت في قوة، حتى أن من حولي التفتوا ناحيتي بما فيهم أدهم الذي لم يبدُ على ملامحه أي انفعال، هتف الضابط آمرًا المسعفين أن يغطوا الجثة في سرعة ويتعجلوا في الحركة، انفض الجمع وتحركت السيارات وارتفعت أصوات السرينات المميزة لسيارات الإسعاف، وقفنا وحدنا أنا وأدهم أمام مدخل العمارة وقد بدأت قطرات المطر تعود من جديد، خرج صوتي متوترًا مرتعشًا وأنا أسأله:

«أليس هذا هو الرجل الذي رأيته عندك بالأمس».

يبدو أن الذين يعيشون مع الموت يتذوقون ثماره فعلًا.

مصطفى.

الليلة قبل السابقة...

تبًا للزواج...

ما الذي جعلني ألقي بنفسي في جحيم سجن الزواج ومشاكله، أين كان عقلي حين اتخذت ذلك القرار الغبي، وتبًا لزوجتي الحمقاء التي ما أن تمكنت من تقييدي جوارها بالزواج وبمؤخر صداق كبير إلا وتحولت إلى شخص آخر متسلط يعشق الشجار ومعايرتي بقلة دخلي كما تعشق قطط الشوارع القمامة.

هل تصورت أنها ستعيش معي في قصر؛ لأن عمي صاحب الشركة التي نعمل فيها، ربما أكون أنا السبب في هذا لأني لم أنفِ هذا الكلام الذي حاولت أن ألمح لها بشيء قريب منه، أو ربما فكرت أيضًا أنه سينفق علينا من أمواله لمجرد أنه لم ينجب من زوجته وأني أنا الوريث الوحيد له مع

زوجته العجوز، إنه لم يفكر حتى في زيادة مرتبي بعد الزواج، ولم يزرني مرة واحدة لا بعد ولا قبل زواجي، بل ربما لم يدخل شقتي هذا من يوم وفاة أبي رحمه الله، تبًّا له أيضًا من رجل بخيل.

أعرف أني لست بالرجل الجذاب الذي يمكنه أن يجعل فتاة مثل نادية أن تتزوجه، لكني لم أتصور أنها كانت تخطط وتنتظر يومًا أحصل فيه على نصيبي من ثروة عمي، وربما إدارة الشركة كلها فوق التركة، كنت أعشقها من أول يوم دخلت فيه الشركة، لكني لم أتصور أنها ستوافق يومًا على زواجي منها، لكنها فعلت، كانت تنظر لبعيد ربما، وظنَّت أن تحت القبة شيخًا كما يقولون، لكنها لم تكن أبدًا صبورة، لم تمر ستة أشهر على زواجنا إلا وبدأت طلباتها وأوامرها، وتأففها من حياتها معي وظروفي المادية، أبي لم يترك لي الكثير وقد أنفقته كله تقريبًا على تجهيز الشقة كما طلبت وعلى شهر العسل الذي أصرت على قضائه خارج مصر، لكنها صُدمت لما وجدت أني تقريبًا لم أعد أملك إلا راتبي الذي لا يشكل قيمة كافية أمامها ليلبي رغباتها وطلباتها التي لا تنتهي، لا تمر بضعة أيام إلا وتحزم حقيبتها وتحملها غاضبة تذهب عند أمها، مللت من مطاردتي لها ومحاولة إرضائها ومحايلتها لتعود معي للبيت، للأسف لازلت أحبها، تملكتني بحبها وجسدها الناعم الذي يتلوى بين ذراعي كأفعى ترقص على أنغام مزمار، حتى بعد مرور عامين على زواجنا لازلت أعشق تفاصيل جسدها، أشتهيها وهي تقف تداعب شعرها أمام المرآة وتدور حول نفسها تتأكد من ثنيات جسمها المثير أنه لايزال يحتفظ بقسماته، من اللحظة الأولى وهي تعرف أنها تملكتني، تعرف كيف تغويني، كيف تجذبني إليها ثم تتمنع عليَّ وتتدلل، لتراني أقترب منها لأنالها في شغف وعشق قاتل، حتى بعد أن أقضي وتري تعرف كيف تذهب عقلي وهي تجلس عارية على طرف السرير تتمطع وتثني جسدها وتنثر شعرها المسترسل على ظهرها وهو يكاد يصل إلى أطراف مؤخرتها التي تتأرجح وهي تسير متأودة في ضوء الغرفة الخافت، قلت لها ذات مرة إن لها مؤخرة على شكل قلب، لكن لم أجرؤ أن أقول لها إن قلبها الحقيقي ليس على شاكلة باقي قلوب النساء، لقد بلغ شغفي بجسدها العاري وتفاصيله حدًّا لم أتخيله، حتى أصبحت إحدى هوياتي أن التقط لها صورًا عارية وهي في أوضاع مثيرة بكاميرتي التي كنت أستخدمها قبل الزواج كهاوٍ لتصوير الأماكن التاريخية القديمة، كانت تتفنن في إثارتي بحركاتها وأنفاسها الملتهبة التي أشعر بها في هواء الغرفة وهي على بعد خطوات مني، كانت تعرف كيف تقبض على روحي وتتحكم في رغباتي، فألقي بكاميرتي جانبًا لألتهم جسدها بشفاهي، أتحسس انحناءات جسدها وثنياتها بأصابعي حتى أشعر بنيران جسدها الملتهب يحرقني جواره، أقبض على مؤخرتها ناعمة الملمس البضة بقبضتي وأنا أتحسس نبض وريدها العنقي بشفاهي، تتأوه بنعومة هامسة ويختلج جسدها بين ذراعي لتذيب روحي حتى أغرق معها في لحظات حب محمومة، لقد صارت تفاصيل جسدها هي تاريخي وحاضري ومستقبلي الذي لن أتنازل عنه، أشتاق الآن إلى ملمس جلدها الدافئ بين ذراعي.

من شدة ولعي بها وضيقي من تصرفاتها ورغبتي الشديدة في إرضائها تمنيت لحظات كثيرة أن يموت عمي لأرثه، أو ربما أقتله، لكني لا أجرؤ على فعل هذا، لكن... ماذا أفعل بإرثي هذا إن جاء متأخرًا وأنا في سن كبيرة، أو بعد أن أفقد زوجتي، ربما أكون قد تعودت على شجاري معها وتركها للبيت يومًا أو اثنين، لكن صعب أن أتعود على رحيلها، مجرد التفكير في هذا الأمر يخيفني، لكن

سأحاول هذه المرة أن أتركها يومًا إضافيًا ربما تشعر أني بدأت أفقد جزءًا من حبي وولعي وشغفي الشديد بها، يومًا واحدًا إضافيًّا فأنا لن أقدر على أكثر من ذلك.

كان المفروض أن أذهب اليوم لأصالحها، لكن لم أفعل، ربما أتعلل بسوء الجو والأمطار وأنا ذاهب غدًا أو بعد غد.

قضيت ليلي أتقلب في الفراش، منذ أكثر من ساعتين ربما ثلاث وأنا لا أستطيع النوم، وكيف أنام وهي ليست جواري، رفصت الغطاء عن جسدي وفتحت نافذة الغرفة أستنشق هواء الليل البارد عله يطفئ نيران شوقي لها، سندت بكتفي على النافذة وأشعلت سيجارة ووقفت أنفخ دخانها في ضيق أراقب الأمطار، الشوارع خالية لا يوجد بها إلا أصوات قطط تموء على بعضها في كومة القمامة المتناثرة على ناصية الشارع، رأيت شخصين يخرجان من العمارة يسرعان الخطى تحت الأمطار حتى دخلا العمارة المقابلة لنا، للحظات ظننت أنه أدهم جاري ابن صاحب العمارة، لكن قلت ما الذي سيذهب به إلى العمارة المقابلة في هذا الوقت، ومن سيكون معه؟

لحظات ثم أضيئت شقة الدور الثاني أمامي، ثم أُطفئ من جديد، أغلق أحدهم الستارة ثم أشعل النور مرة أخرى، فلم يظهر لي إلا خيال صغير يتحرك بين الحين والآخر، مضت ثلث ساعة تقريبًا وأنا أقف مكاني أدخن سيجارة بعد أخرى، حتى نزل نفس الشخص من جديد، وبانت ملامحه تحت أضواء أعمدة الشارع، وعرفته على الفور، شاهدته يتحرك لأول الشارع ثم اختفى على ناصيته، وبعد دقائق عاد بسيارة قديمه الموديل ووقف بها أمام العمارة المقابلة وفتح حقيبتها الخلفية، وصعد لأعلى بعد أن ترك حقيبة السيارة الخلفية مفتوحة، شعرت أن هناك شيئًا مريبًا يحدث، جريت للداخل وأحضرت كاميرتي ومعها مدفع الزووم، وقفت على الشباك أنظر ماذا سيحدث، رأيت أدهم يخرج من المدخل جارًّا خلفه سجادة، عدلت وضع الكاميرا، والتقطت لقطات متتابعة لما يحدث حتى ركب السيارة وغادر، لم أدرِ لم فعلت ذلك، لكني أسرعت للداخل وخطفت مفاتيح سيارتي ونزلت السلالم بالبيجامة قفزًا متجاهلًا المصعد حاملًا كاميرتي، وتحركت في نفس الطريق الذي سار فيه، الشوارع كانت خالية، فوجدت سيارته بسهولة، حافظت على مسافة كبيرة بيني وبينه وأطفأت أنوار سيارتي، لكني كنت أراه لأنه لم يكن غيرنا في الطريق معظم الوقت، اتخذ أحد المخارج متجهًا للطريق الدائرى فلم أتردد، كنت وراءه على نفس الطريق، رأيت اثنين على موتسيكل يطاردونه حتى أوقفوه، كان واضحًا أنهم لصوص، نزل يتكلم معهما قليلًا، ثم اتجه أحدهم لحقيبة السيارة يفتحها، مال داخلها لحظة ثم ارتد مصعوقًا للخلف ووقع على الأرض، سحبت كاميرتي في سرعة وضبطت عدساتها والتقطت صورًا لما في الحقيبة...

«يا ربي... جثة!!!».

التقطت صورًا للجثة في حقيبة السيارة وللشجار الذي يحدث، حتى رحل اللصان، وجدت إشارة على الكاميرا أن الذاكرة أصبحت ممتلئة، فمسحت بعض الصور العارية التي التقطتها لنادية، وأنا أكاد أبكي متحسرًا عليها، كان أدهم تحرك وابتعد بالسيارة حينها، فأسرعت خلفه، حتى لمحت نور

سيارته من على بعد، فضغطت الفرامل في قوة فأصدرت صوتًا عاليًا مزعجًا، وزحفت بي السيارة قليلًا على الأرض المبتلة وحادت بميلان عن طريقها المستقيم، أخرجت كاميرتي ألتقط بها صور أدهم وهو يخرج السجادة الملفوفة حول الجثة ويلقيها، وقفت بسيارتي لم أتحرك حتى ابتعد بسيارته وغاب عن الأنظار، تحركت بسيارتي حيث كان يقف ونزلت منها، رأيت السجادة ملقاة على بعد أمتار من الطريق والكلاب تحوم حولها وتتشممها، التقطت عدة صور لها ثم ركبت السيارة وقدتها عائدًا للبيت، كانت سيارة أدهم تقف جوار العمارة، صعدت لشقتي على السلم، لكن وقفت أمام باب شقة أدهم أولًا، ملت عليها بأذني محاولًا التنصت على ما يحدث بالداخل فلم أسمع شيئًا، ولم أرَ أي إشارة أو ضوءًا يدل على أن أحدًا بالدخل، دخلت غرفتي ووقفت في نافذتها مرة أخرى، وبعد ساعة لمحت أدهم يخرج من العمارة المقابلة عائدًا لعمارتنا.

أغلقت النافذة وجلست مشعلًا سيجارتي وأنا أقلب في الصور التي التقطتها وأنا أفكر بصوت مسموع:

«من هذا القتيل؟ ملامحه غير واضحة، يبدو أن أدهم كان على علاقة بزوجته واتفقا على التخلص منه وقتلاه، لا يوجد تفسير آخر، أكيد إنها المرأة التي في الدور الثاني في العمارة المقابلة حيث أُضيء النور».

ظللت أقلب في صور أدهم والجثة مرات ومرات، ثم رأيت صورة لنادية في إحدى لقطاتها المثيرة، اشتعلت الرغبة بداخلي من جديد ومعها رؤية جديدة لفكرة راودتني من قبل، ظللت في مكاني أرتب أفكاري وأدرسها بعناية حتى بزغت الشمس الدافئة من وسط الغيوم التي استمرت طوال الليل، ذهبت يومها للعمل متأخرًا، لكن قبل أن أخرج من العمارة دققت جرس باب أدهم عدة مرات فلم أجده، قلت لنفسي ربما ذهب للعمل بعد إتمام جريمته.

مر اليوم بطيئًا، أوراق وأحاديث متواصلة وأكواب من القهوة، وأعقاب سجائر دُفنت في طفايتي تكفي لإصابة شارع كامل بسرطان الرئة، وشوق بداخلي لا ينتهي لنادية، التي تمنعت أكثر ولم تأت للعمل منذ شجارنا الأخير، الأفكار والشوق يقتلان روحي ويعذباني، أنهيت يومي بنفاذ صبر وعدت مسرعًا وأنا أجهز ماذا أفعل وأقول طوال الطريق، وقفت أمام باب أدهم من جديد ودققت الجرس، مرة ومرة حتى غضبت فدققت على الباب بقبضتي وما من مجيب، هبطت على السلم لأرى إن كانت سيارته موجودة أم لم يعد بعد، ثم سمعت صوته مع أصوات أخرى تخرج من شقة ماري، أرهفت السمع قليلًا فتأكدت من وجوده بالداخل، فقلت أنتظر قليلًا ثم أمر عليه في الليل.

دخلت شقتي الباردة، وألقيت حقيبتي ونزعت ملابسي، ووقت تحت مياه الدش الدافئة كي أهدأ وأرخي من أعصابي المشدودة قليلًا، خرجت أبحث عن طعام أتناوله فلم أجد، نادية أغلب الأيام لا تدخل المطبخ ولا تطهو، وتكتفي بطلبات الطعام الجاهزة، بحثت في قوائم الطعام المتعددة المرصوصة جوار الهاتف، ألقيت قائمة المطعم التي تشاجرت معهم على الأرض، واخترت أخرى قلبت في أصنافها بعيني ثم أمليت ما أريد بالهاتف للمطعم، وصل عامل توصيل الطلبات بعد ساعة،

ناولته حسابه في ضيق وأنا أتشاجر معه على تأخره ووصوله بالطعام باردًا، جلست أتناول الطعام أمام التلفاز وعقلي مشغول بأفكاري وترتيباتي، التهمت طعامًا يكفي لثلاثة أو أربعة أشخاص تقريبًا، نهضت بعدها متثاقلًا أُعدُّ كوبًا من الشاي، تناولته على مهل، نمت في مكاني دون أن أشعر، واستيقظت لأجد الساعة قد أصبحت الحادية عشر والنصف مساءً.

أفقت على صوت أحد المذيعين المزعجين الذي يصرخ على شيء ما يبدو أنه حدث في الساعات الماضية ولم أدرِ ما هو، نهضت مرهقًا كمن خرج توًّا من شجار طاحن تكالب عليه فيه الناس وأوسعوه ركلًا وضربًا بالتناوب، ارتديت ملابسي على عجل بعد أن غسلت وجهي كي أستعيد انتباهي وتركيزي قليلًا، فتحت الباب ووقفت في مكاني لحظات، ثم عدت للداخل، أوصلت كاميرتي بالكومبيوتر، تركت نسخة من الصور عليه، ووضعت أخرى على هاتفي المحمول الذي حملته معي ونزلت مسرعًا، وقفت أمام باب شقة أدهم ألتقط أنفاسي في بطء، وضربات قلبي تتسارع كأني مقدم على عراك، دققت الباب مرة ومرة حتى فتح أدهم الباب، لمحت الاستغراب على ملامحه لكنه لم يبد قولًا ولا فعلًا، قلت محاولًا بسط سيطرتي على الوضع قائلًا:

«ألن تدعوني للدخول؟».

رد عليَّ بسؤال يحمل بعض الوقاحة...

«هل هناك سبب للزيارة في هذا الوقت يجعلني أدعوك للدخول؟».

لم أتردد كثيرًا، قررت أن أبدأ من النهاية على الفور، أخرجت هاتفي المحمول وعرضت الصورة الأولى على شاشته وقربت يدي قرب وجهه متعمدًا كي يراها في وضوح، لم يظهر على وجهه أيٍ انفعال تقريبًا وأنا أحرك الصور، أو ربما أخفاه في سرعة ولم أنتبه إلى انفعاله، لكني لمحت ضيقًا في عينيه أكثر منه خوف أو حتى توتر، قال في هدوء وكأن الأمر لا يعنيه:

«لم أفهم ماذا تقصد؟!!!... مع ذلك ماذا تريد؟».

رددت وأنا أضع هاتفي في جيبي:

«هل سنتحدث على الباب هكذا؟! ربما يسمعنا أحدهم؟».

أفسح الطريق أمامي وأشار لي بالدخول وهو يقول:

«اخلع حذاءك أولًا؟».

ارتسمت على وجهي علامات التعجب وأنا أسمع طلبه، لم أفهم ما يقصده من طلبه لكني رددت في استغراب:

«لماذا أخلعه؟ حذائي نظيف».

رد في سرعة:

«الأمر بسيط تخلع حذاءك تدخل، لا تخلعه لن تدخل ولا داعي لاستمرار هذا الحوار».

خلعت حذائي في غيظٍ، وأثارني أكثر أنه دفع شبشبًا أمام قدمي وهو يقول:

«ارتدِ هذا».

هتفت في ضيق: «كمان!!!»

تحرك أمامي ودعاني لغرفة الجلوس، حيث جلس أمامي وقد وضع ساقًا فوق الأخرى وهو يسأل:

«الآن ماذا تريد؟».

«ألن تدعوني إلى كوب شاي أو حتى فنجان قهوة؟».

رد في سرعة وبرود: «لا».

حاولت أن أبدو خطيرًا وأنا أشعل سيجارتي في بطء أمامه، دون أن أعزم عليه بواحدة، تحدثت في بطء كي أكون واضحًا:

«عندى نسخ أخرى من هذه الصور، والواضح منها أن هناك قتيلًا... جريمة قتل وربما خيانة، أنا لا أريد الفضيحة لأحد ولا أريد أن أفشي أسرار جاري العزيز وصاحب العمارة التي أسكن فيها مع جارتنا العزيزة في العمارة الـ...».

قاطعني في سرعة قائلًا في حزم:

«دعها خارج حديثنا».

تابعت قولي موافقًا كلامه بهز رأسي:

«حسنًا، المهم... كلامي ربما يبدو غريبًا، أنا نفسي لا أعرف كيف فكرت فيه، لكن هناك منفعة ستعود علينا منه، أتخلص من الصور وأمسحها كأن لم يكن لها وجود، وأنسى أنا ما رأيت...».

قاطعني من جديد، بطريقته المستفزة:

«في مقابل...؟!».

أطفأت سيجارتي رغم أنها لم تنتهِ وأنا أتحدث:

«ربما يبدو الأمر صعبًا في البداية، لكنك أصبحت تحمل بعض الخبرة عني... أريدك أن تساعدني في التخلص من عمي كما تخلصت من الزوج المغدور به والمأسوف على شبابه».

نهض واقفًا في غضب شديد بدا على ملامحه وفي نبرات حديثه:

«أجننت... أتريدني أن أساعدك في عملية قتل...!!».

حافظت على هدوئي وتمالكت أعصابي حتى لا أبدو متوترًا من غضبته:

«الحقيقة أريدك أن تفعلها بمفردك؛ لأني أريد أن أكون بعيدًا عن أي شبهة تطولني...».

قاطعني مرة أخرى:

«اسمع يا بني آدم أنت، عرضك مرفوض من قبل أن تتمه، ومن الأفضل أن تتصرف الآن...».

قاطعته أنا هذه المرة وأنا أقف أمامه وأشير إليه أن يهدأ:

«يبدو أنك لا ترى الأمور جيدًا، لو قمت بإبلاغ الشرطة مع هذه الصور ستكون قضية مهمة وسهلة، ربما تصل فيها الأمور أن تتأرجح على حبل المشنقة أنت وصديقتك...، جريمة أخرى لن تضرك أكثر مما فعلت الأولى، بالعكس ستحافظ على سمعتك وسمعة جارتنا وعلى مستقبلك ومستقبلها هي أيضًا».

«قلت لك دعـ...».

قاطعته من جديد قبل أن يسترسل في كلامه:

«فكِّر جيدًا قبل أن ترد، يمكننا أن نتفق، وحين توافق سنقوم بترتيب الأمر كي تكون جريمة نظيفة متكاملة كالتي فعلتها، حينها ستكون على علم بجريمتي كما أعلم أنا عن جريمتك، سنكون متورطَين فيها معًا بشكل أو بآخر، المهم أننا سنكون طرفًا واحدًا، فلن تخشَ حينها أني سأحتفظ بالصور أو أضرك بعدها؛ لأنه ببساطة يمكنك أن تضرني أنا أيضًا، وليكن في معلومك...».

قاطعني جرس الباب هذه المرة، الذي يدق في سرعة بطريقة متلاحقة كأن هناك أمرًا جللًا، أشار إليَّ أدهم بالصمت وتحرك في سرعة يفتح الباب، وقف أمامه فلم أرَ مَن القادم، لكني سمعت صوتًا

أنثويًّا متلاحق الأنفاس، لكني لم أستطع تفسير ماذا تقول، اقتربت منهما ووقفت قريبًا من الباب وأدهم يقول:

«اهدأي ماذا حدث؟؟».

ردت عليه مَن دقتِ الباب وهي تلهث في قوة:

«يبدو أن ماري بها شيء».

قررت أن أظهر أمامها حتى تراني، فجذبت الباب ومررت أمام أدهم وأنا أقول:

«سأتركك الآن ونكمل حديثنا في وقت لاحق».

ارتديت حذائي وصعدت درجات السلم، وأنا أشعر بنظراتهما تلاحقني من الخلف وتطعنني في ظهري كسهام حانقة يملأها الغضب.

كان من الواضح أن حديثي مع أدهم لم يكن ناجحًا، أو ربما لم يكن ناجحًا لأني لم أكمل حديثي معه كما ينبغي، ولم أتوصل لاتفاق معه كما كنت أبتغي وأتوقع، أعرف الآن أن الأمر سيكون صعبًا، ليس من السهل إقناع أحدهم بجريمة قتل، ربما مع التهديد المستمر أنجح، ربما أيضًا لو تواصلت مع تلك المرأة ونجحت في إفزاعها تستطيع هي أن تقنعه بالأمر حتى لا تُفضح هي أيضًا، لا توجد امرأة تخشى من الفضيحة أكثر من زوجة خائنة وقاتلة، ومن المؤكد أنها هي تلك المرأة التي دقت جرس الباب، سمعت أصواتهما تهبط الدرج وأنا لازلت أقف أمام باب شقتي، بعد أن دخلت سمعت صوت أدهم يتحدث مع دكتور أيمن جاري في الشقة المجاورة، ثم لحق به بعد قليل، يبدو أن ماري أصيبت بغيبوبة جديدة كما حدث لها من قبل، تابعتهم من شرفتي وهم يتحركون بالسيارة مبتعدين، ظللت واقفًا بعد رحيلهم أسحب أنفاس سيجارتي في توتر، وأنا أشعر بشيء من الغضب بداخلي لعدم تمكني من الوصول لما كنت أريد، لكني سأنجح، وأتخلص من عمي دون أن أتورط وأرثه، حينها سألبي كل رغبات نادية حتى ترضى عني وتكف عن طريقتها وإلحاحها في طلب الأشياء، لن أحرمها من أي شيء مهما كان، سأجعلها ترى الدنيا كلها بكل مباهجها، وسأنالهما كما أريد وكيفما أريد... وكلما أريد، ستظل معي ولن تتركني وتبتعد عني حينها، اشتعلت الرغبة في داخلي لها، تهت في أفكاري تلك حتى لسعتني السيجارة التي أحملها بين أصابعي.

ثم رأيت أفعى تثب حتى علو ست أقدام أمام رجل، سددت له ضربة في وسط بطنه وبجزئها الخلفي سيطرت على ذراعيه، وانقضت عليه ملتهمة رأسه.

دانتي أليجييري

أدهم...

أشعر أني شخصٌ آخر... لم أكنه من قبل.

عقلي يقول شيئًا، وتصرفاتي فعلت شيئًا آخر...

ما يحدث لي فاق جميع توجساتي وخيالاتي التي كانت تنتابني في أشد لحظاتي شططًا، كل لحظة تمر عليَّ منذ عودة غادة لحياتي... بل اقتحامها لحياتي، وأنا أقتحم أبواب جزء مجهول بداخلي وبأعماقي لم أدرِ بوجوده من قبل، أحداث تتعاقب عليَّ تجذبني داخلها كمدٍّ في بحر هائج، عاصف، متلاطم الأمواج، يصاحبه هزة أرضية تتخلل حياتي وتخلخلها من جذورها الهادئة، تتدمر الحدود التي رسمتها حولي، وتبدد الهدوء الذي لا أبغي سواه، ربما كان تفاعلي أشر مما توقعت، لكن مَن قال إن النفوس الكامنة بمنأى عن الشرور، ربما تخفيها لوقت الحاجة، ربما انحرفت بأحلامي لكن ذلك كان طوعًا، كان بإرادتي الكاملة، تركت نفسي تجوب الدرب الذي وجدت نفسي فيه، أحترق بلسعه وسياطه وخداعه، ملأت رئتي بغبار ذلك الطريق عن طيب خاطر ولم أشعر بالاختناق.

بل شعرت أني أتغير مع كل لحظة تمر، أتقبل ما يحدث رغم شذوذه عن حياتي وعن أفكاري، ربما كانت الألفاظ والمعاني في عقلي الباطن لكن لم تجد الصحف المناسبة لتوضع عليها من قبل، وفي يومين وضعت كلماتي الأولى في صفحات القتل والدم.

سألتني غادة ونحن جالسين في شرفة شقتي، بعد أن أصرَّت على الصعود معي:

«وماذا حدث بعد ذلك؟ هل تقابلتما بعد أن تركتني في المستشفى وعدت أنت هنا؟».

كنت أدعك جبهتي بكفيَّ وأنا أشعر بصداع يكاد يشق رأسي، تجاهلت سؤالها، ونهضت وأنا أقول:

«سأشرب قهوة وأحضر مسكنًا لرأسي، هل تشربين معي؟».

هزت رأسها أن نعم، فتوجهت لمطبخي أعد القهوة، ابتلعت قرصين من المجرانيل مع كوب ماء بارد من الثلاجة، دقائق قليلة غبتها في المطبخ وعدت فلم أجد غادة في مكانها، ناديت عليها فسمعت صوتها يأتي من غرفتي، انتابني ضيق مفاجئ من دخولها غرفتي، جريت مسرعًا خلفها في غرفتي، دفعت الباب في قوة، رأيتها واقفة أمام كتبي تمسك في يدها إسطوانة من إسطواناتي، وتقلب في كتبي الموضوعة على مكتبي في عناية ودقة، شعرت بغضب شديد يجتاحني لأنها أمسكت بأشيائي، حاولت ان أكتم غضبي بداخلي، لكنه ظهر رغمًا عني وأنا أجذب منها ما في يدها وأقول:

«ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ لا أحب أن يدخل أحد هنا، ولا أحب أن يمسك حاجياتي أي شخص، أرجوكي ارجعي مكانك».

خرجت مسرعة وهي تتأسف عما فعلت، رأيتها تتجه ناحية باب الشقة خارجة، لكني جذبتها من ذراعها قائلًا:

«لا داعي لتصرفات الأطفال تلك، تغضبين وترحلين».

وقفت لحظة ألتقط أنفاسي محاولًا السيطرة على أعصابي المشتعلة، وهي تكاد تختنق بدموع في عينها من الموقف المحرج الذي وَضَعَتْ فيه نفسها، ثم قلت:

«لقد تصرفت بحماقة، لكن الوسواس يتملكني أكثر داخل الحدود التي رسمتها لنفسي، ولا أحب أن يقتحمها أحد، وحاجياتي تلك داخل هذه الحدود، أرجوكي انتظرى في الشرفة كما كنتي».

تركتها تعود للشرفة، وذهبت للمطبخ وأحضرت فوطة مبللة وبعض المياه، ومسحت الإسطوانات التي كانت في يدها بعناية، وأغلفة الكتب التي كانت على مكتبي، ولم أنسَ أن أمر بالفوطة على المكتب نفسه وباب الغرفة وحتى مقبض الباب ومفتاح الإنارة.

عدت للشرفة، جلست أمامها وهي تمسح دموعها المنسابة على خديها بمنديلها الورقي حتى لا أراها، كررت اعتذاري وأنا أشرح لها أني في كثير من الأحيان لا أستطيع السيطرة على أعصابي بسبب الوسواس القهري الذي أصبح يتملكني، قلت:

«ربما تعرفين عن ذلك الأمر نظريًا لكن لم تجربيه من قبل، حين يبدأ الوسواس يتملكني تكون الأفكار في عقلي كالديدان التي تنهش الجسد، بل كذئاب جائعة تنهش الجسد وهو حي، لا أستطيع السيطرة على تلك الأفكار والقضاء عليها إلا باتباعها، هذا ما جعلني أتعصب عليكِ وأُخرجك من غرفتي وأعود أمسح وأنظف كل شيء لمستيه، أو ربما حتى ما أعتقد أنك لمستيه...».

همَّت بقول شيء ما، فأشرت إليها مقاطعًا:

«أعرف أنه ليس هناك شيء بك، لكن المشكلة فيَّ أنا ليست فيكِ».

تساءلت:

«ولم لم تحاول أن تتعالج؟».

ابتسمت وأنا أقول:

«ومن قال أني لم أحاول، ذهبت لعدة أطباء نفسيين مختلفين، وكلٌّ منهم كتب لي أصنافًا مختلفة من الأدوية، أتحسن عليها فترة ثم أعود مرة أخرى، ربما تقل وساوسي عن قبل، لكنها لا تختفي».

«وما السبب؟».

«كلامهم كان واحدًا، انخفاض مستوى السيروتنين في المخ، وأن بعض الأجزاء في الدماغ تتأثر بنقص السيروتونين فيؤدي ذلك للإصابة بالوسواس القهري.يبدو أن هذه المشكلة تتعلق بالقنوات

الدماغية التي تربط المنطقة المسؤولة عن الحكم على الأمور والتخطيط، بالمنطقة التي تقوم بتصنيف وغربلة الأوامر الدماغية المتعلقة بتحريك أجزاء الجسم المختلفة...».

قالت:

«أعرف هذا... أقصد لماذا لا تختفي؟».

هززت رأسي يمينًا ويسارًا:

«لا أعرف، حاولت أن أبحث بنفسي في هذا فوجدت أن أغلب مرضى الوساوس القهرية قلما يشفون منه نهائيًّا، حقًّا لا أعرف، ولم أعد أريد أن أعرف...، ولا أعرف لماذا لم أعد أريد أن أعرف...، هاورد هيوز بسبب وساوسه اعتزل الدنيا وانعزل بشكل نهائي ربما أكثر من عشرين أو ثلاثين عامًا لا أذكر بالضبط».

صمت لحظة ثم تابعت:

«كل مرة أحاول رفض هذه الأفكار أشعر أنني في حاجة قاتلة للتنظيف، والعودة للحال الذي اعتدت عليه داخل حدودي التي رسمتها بعقلي، شيء يسيطر على أجزاء جسدي وكياني ويرغم إرادتي على ذلك».

أشعلت سيجارة ووقفت مستندًا على سور الشرفة أنفخ في توتر وضيق، مرت الدقائق بطيئة صامتة، احترمت فيها غادة ربما عدم رغبتي في استمرار الحديث عن هذا الموضوع، عدت أجلس وقد برد فنجاني القهوة أمامنا، عدت للداخل وأعددت غيرهما، وجلسنا نرتشفهما في صمت، السحب رغم كثرتها في السماء إلا أن ضوء القمر كان ينفذ بينهما متسللًا على خجل واستحياء، يريد أن يؤكد وجوده رغم الحواجز التي وضعتها السحب والغيوم، وضعت غادة فنجانها، وأنا أُدير فنجاني في يدي وأبتلع بقايا البن في قاع فنجاني فسألتني:

«لماذا تشرب بقايا قهوتك؟».

«أحب ألا أتركها».

ردت بنبرة تهكم:

«يمكنك أن تأكل البن إذن!».

قلت: «أحيانًا أفعل، أستخسر ترك البن وحيدًا في قاع كوبايتي أو فنجاني».

سألت من جديد:

«وهل تحب شرب القهوة في كوب أم فنجان».

ابتسمت وأنا أقول:

«لا يهم، ذلك لا يحدِث فارقًا، البعض يفضل شرب القهوة في فنجان على اعتبار أنه كييف ويريد كمية كبيرة، لكنها لا تفرق من الممكن أن أشرب قهوتي في فنجان كبير، البعض يعتقد أنه هكذا سيبدو كييفًا وهو يحمل القهوة في كوب، أعتقد الفنجان يكون حمله أفضله وإحساسي في القهوة معه أفضل، المهم أن يكون أبيض لأرى لون القهوة فيه».

فركت كفيها في بعضهما جلبًا لبعض الدفء وهي تسأل:

«مازلت لم تخبرني بما حدث بينك وبين جارك... مطصفى كما عرفت منك».

نظرت خارج حدود الشرفة وسرحت لحظة فيما حدث، لقد حدثت الأمور كعادتها معي على غير ما أرغب، جرفني التيار فسبحت معه، كنت أظن أنني على أقصى تقدير سأنهي معه الموضوع وأمسح الصور، بعد شجار صغير لن يصمد فيه أمامي، بعد أن ألقنه درسًا في الملاكمة أترك فيه بصماتي على وجهه، وربما بضع كدمات على جسده، وأزين عينيه بإطار أزرق... لكن ما حدث زاد عما توقعت.

كان في انتظاري بشرفة شقته رغم أن الوقت كان متأخرًا، ولم أكن أتوقع اللقاء أن يكون سريعًا هكذا، واضح أنه كان في شوق لإنهاء الموضوع على طريقته والحصول على اتفاق، أشار إليَّ بطول ذراعه وأنا أُوقف السيارة أمام العمارة، وهبط ليلقاني أمام باب شقتي...

«كنت في انتظارك، لم أنم، أعرف أنك ستعود بعد ترك جارتنا العزيزة ماري في المستشفى واطمئنانك عليها، لكنك تأخرت كثيرًا عما توقعت، يبدو أن المدام التي كانت معكم لم تقدر على تركك تغادر بسهولة، بالمناسبة كيف هي الآن؟».

ارتسم الضيق على وجهي فتابع في سرعة:

«أقصد مدام ماري... كيف هي الآن؟ بخير؟».

قلت في ضيق بان في صوتي وأنا أقول:

«استمع لي جيدًا أيها الأحمق... لا تحاول استفزازي بكلامك أكثر، أنا أفهمك جيدًا، دعها وشأنها خارج أي حوار بيننا أفضل لك، أما بخصوص ما تريده...».

قاطعني وهو يضع يده قرب فمي قائلًا بطريقة مسرحية:

«ششششش... لا داعي لنشر غسيلنا المتسخ على الملأ، تعالى إلى شقتي فليس لي مزاج لخلع حذائي في هذا البرد، ولا تقلق سأتركك تدخل بحذائك رغم الطين الذي يحمله، لكن امسحه جيدًا قبل الدخول».

فكرت أن شقته ستكون مكانًا ملائمًا لعلقة ساخنة، أهد بها مفاصله وأركل مؤخرته السخيفة حتى يكف ويبتعد عني، دخلنا شقته وجلسنا في غرفة الاستقبال، ملابسه ملقاه في عدة أماكن بطريقة همجية، وبقايا الأكل الذي كان يتناوله في الأطباق البلاستيكية ملقى على المنضدة في حجرة الاستقبال، جوار الأكياس البلاستيكية التي جاءت فيها، وذبابتان أو ثلاثة تطير عليها، كيف يستطيع شخص أن يعيش في مثل هذه الفوضى، تساءلت إن كان هذا حال غرفة استقباله فما بال غرفة نومه، لا بد أنها مأساة...

جلس أمامي ووضع ساقًا فوق أخرى وأشعل سيجارة وعزم عليَّ بأخرى فرفضت، سحب بضعة أنفاس منها في بطء ثم قال بإيقاع هادئ وصوت يحمل نبرة تهديد واضحة وعيناه تحمل الكثير من التحدي والإصرار:

«لا تنسَ في البداية أن الصور التي معي ستجلب عليك....».

وابتسم في سخرية أكثر وهو يلوح لي بأصابعه التي تحمل السيجارة المشتعلة...

«وعلى آخرين... وبالًا كثيرًا ومصائب كثيرة أنت في غنى عنها، ربما تصل إلى أن يتأرجح عنقك على حبل المشنقة...».

أخمد لهيب سيجارته في الطفاية أمامه قبل أن تنتهي، واعتدل في جلسته ليميل بجسده ووجهه ناحيتي وتابع:

«وأنا لا أنصحك بهذا في هذا الجو البارد، يمكننا أن نتعاون ليحصل كل منا على ما يريد».

ملت ناحيته أنا أيضًا وقلت مقلدًا طريقته:

«وماذا تريد... أنت؟».

ابتسم وعاد يستند بظهرة إلى الأريكة فاستندت أنا أيضًا وهو يقول:

«هكذا تعجبني... أريدك بمنتهى البساطة أن تخلصني من شخص عزيز عليَّ كما تخلصت أنت وجارتنا من زوجها وغريمك».

اعتدلت في جلستي محذِّرًا فقضم جملته ورفع يديه باسطًا كفيه وهو يقول:

«حسنًا... حسنًا...، المهم أن نتفق ونتعاون...».

سألت في اهتمام:

«مَن هذا الشخص وماذا ستستفيد من قتله وتخلصك منه؟».

أشعل سيجارة أخرى وهو يقول متوترًا:

«عمي... أعتقد هكذا ستفهم أيضًا ماذا سأستفيد».

هززت رأسي متفهمًا وأنا أسأل:

«سترثه».

زاد توتره كأن الكلام يثير الخوف في قلبه، فسحب نفسًا قويًّا من سيجارته الجديدة وتابع الكلام في سرعة وتوتر حتى كاد أن يسعل، وهو يرفع كفه محذرًا:

«ليس فقط... أنا وريثه الوحيد تقريبًا... مع زوجته، وسأدير الشركة بعد رحيله».

ابتسمت ساخرًا من كلمة «رحيله» بدلًا من أن يقول «قتله» ليخفف على نفسه أثر جريمته، صمتُّ لحظات أفكر ثم سألتُ:

«وماذا سأستفيد أنا؟».

أطفأ سيجارته وابتسم قائلًا:

«فهمتك... لن نختلف سأجعلك تحصل على نسبة من الأموال التي سأحصل عليها...».

ثم تابع محذرًا بنفس الأصابع التي تحمل سيجارته الملتهبة...

«لكن ليس كثيرًا... لا تكن طماعًا، بالإضافة إلى تخلصك من الصور التي معي... ولا تنسَ أن رقبتك ورقبة جارتنا الجميلة بين يدي هذين».

وقبض راحتي كفيه أمام وجهه كأنه يعصر شيئًا بهما، نهضت من جلستي واقفًا وأنا أقول:

«ما دمنا وصلنا لمرحلة العصر، إليك ردي، يمكنك أن تبلغ الشرطة إن أردت أو توزع الصور التي بحوزتك في الطرقات وعلى النواصي لا يهم».

ملت قليلًا للأمام ناحيته وأنا أقول في سخرية...

«لا، إليك ما يمكن أن تفعله أفضل... يمكنك أن تطويها وتضعها في مؤخرتك».

نهض بعينين متسعتين فزعًا وهو مستغربًا من كلامي:

«ماذا تقصد؟».

وضعت يدي في جيبي بنطالي وأنا أرد ببرود مقصود:

«أقصد أن ما تريد لن يحدث أبدًا، والصور التي معك لا تثبت شيئًا، مجرد شخص يحمل سجادة تحت الأمطار ويلقيها في الشارع، لا توجد صورة واحدة واضحة لي مع الجثة مباشرة، وحتى تتحرك الشرطة بعد إبلاغك لتبحث عن الجثة، ستكون الذئاب والكلاب قد تكفلت بها مع الأمطار التي ستمحو أي أثر لي هناك، وببساطة أكثر وبمنتهى السهولة يمكن أن أذهب هناك مرة أخرى أبحث عن الجثة وأدفنها أو أنقلها بعيدًا وأدفنها أيضًا...، المرة القادمة حين تهدد أحدًا تأكد أن سلاحك فعال».

قبض بكلتا يديه على ملابسي وهو يتكلم مهددًا برذاذ يخرج من بين شفتيه بطريقة مقززة، وعيناه تتسعان غضبًا وضيقًا:

«لن أتركك تفعل أيًّا من هذا، ستنفذ ما طلبته منك، يجب أن تعرف أن لي أصدقاء في الداخلية وسأجعلهم يتحركون في سرعة و...».

ربما كل كلامه وتهديداته وحتى الصور التي يحملها معه على هاتفه المحمول لم تضايقني بقدر ما ضايقني أن يمسك ملابسي بيديه القذرتين، ويقترب من وجهي بأنفاسه سيئة الرائحة، مع رذاذ كلماته الذي غمرني، أمسكت يديه في قوة أنزعهما عن ملابسي، ولكمته في فكه بقوه فتراجع للخلف ووقع على الأريكة، صرخ في غضب:

«هل جننت؟... كيف تجرؤ على ضربي؟!! وفي بيتي!!».

نهض أكثر غضبًا والزبد يسيل من بين شدقيه كذئب مسعور، حمل طفاية سجائره من فوق المنضدة، فتناثر رماد السجائر عليها وعلى الأرض، وألقاها ناحيتي، فتفاديتها، لترتطم بالحائط وتتكسر وتسقط بقاياها في دوي شديد، هجم عليَّ بكامل جسده منقضًّا معتقدًا أن في إمكانه السيطرة عليَّ بجسده الذي يبدو أكثر ضخامة مني، لكن أنا من بدأ الشجار وأنا من أتحكم فيه وأنهيه كما أريد، هكذا تعودت، بمعنى آخر عندما تسحب سلاحك لا تكن أول من يموت، تفاديت هجمته بسهولة فتجاوزني ووقع على الأرض كالجوال، زاد غضبه ونهض يكاد وجهه ينفجر من الغيظ الذي ملأ كيانه، عاود الهجود عليَّ كفحل جاموس أحمق، عدلت وقفتي لاستقبال هجمته الشرسة الهمجية هذه

المرة، وعاجلته بلكمة في بطنه ودرت حوله في خفة وأنا ألتقط ذراعه اليمني وألويه، ثم أدور خلفه وأدفعه ليسقط أمامي على الأرض، لم يستسلم في سهولة ولم أعتقد أنه سيفعل، بل نهض واستشاط غضبه أكثر، حتى بات ثورًا هائجًا، وهو يصرخ:

«وديني لن أتركك يا عرص أنت وبنت القحبة الخائنة».

تحرك ناحيتي مرة أخرى مهاجمًا منٍ جديد، وقد استفزني سبابه في شدة، اعتصرت قبضتي في قوة واستقبلت هجمته بلكمة قوية في فكّه من أسفل لأعلى، فارتد جسده للخلف وهو يصرخ صرخة مكتومة ساقطًا فوق المنضدة التي توسطت جلستنا في غرفة المعيشة، ليكسر زجاجها في قوة، وقد جحظت عيناه وخرج منه صوتًا متحشرجًا، وقد استقر على بقايا المنضدة والزجاج دون حراك، خمدت حركته تمامًا وبدا سكون جسده ولم تبدُ أي مظاهر لالتقاط نفس على صدره، وقفت متصلبًا في مكاني مشدوهًا، لم أتوقع أن تكون لكمتي بتلك القوة، لم تكن كذلك في عز شبابي وفتوتي وأنا أمارس الملاكمة أيام الجامعة، تمنيت أن يقف ويعاود سبابه من جديد... لكن لم يحدث، مرت الثواني بطيئة، وصوت عقرب الثواني في الساعة الكبيرة جوار باب غرفة المعيشة يتحرك في إيقاعه الرتيب المستفز بطريقة مزعجة، كنت أشعر أن صوته يُسمع الجيران ومَن في الشارع.

اقتربت منه في بطء ووضعت يدي تحت أنفه فلم أشعر بأي أنفاس، تحسست وريده العنقي، شعرت فقط ببرودة في جسده تتسرب لجسدي، اعتدلت واقفًا والتقطت أنفاسي في قوة لأتمالك أعصابي محاولًا أن أهدأ، أسرعت ناحية المطبخ، وأحضرت فوطة كانت هناك، رغم أنها قذرة، إلا أني تناولتها متقززًا محاولًا السيطرة على وسواسي ولو للحظات، محاولًا تنبيه نفسي أن هذا خارج حدودي وأني سأعود لحدودي مرة أخرى بعد فترة قليلة، وأنظف يدي وجسدي وملابسي من جديد.

مسحت أدراج المطبخ، ومكان جلوسي وأي مكان ربما أكون تركت بصماتي عليه، حتى عنق مصطفى مسحته، بحثت في جيوبه وأخذت الهاتف منه، لم يكن مغلقًا بكلمة سر، يبدو أنه لا يملك ما يخفيه عن زوجته، رغم عدم خبرتي مع تلك الهواتف الذكية، إلا معرفة مكان الصور كان أمرًا سهلًا، مسحتها على عجل، فكرت لحظات أن أعيد الهاتف لضبط المصنع، لكني عدلت عن ذلك لأنه ربما يكون مثيرًا للريبة لأحدهم، مسحته جيدًا ثم أعدته للجيب مرة أخرى.

بحثت في الشقة حتى وجدت جهاز كومبيتر مكتبي في غرفة النوم، كما توقعت فوضى عارمة وملابس في كل مكان، الدولاب مفتوح ومنثور أمامه ملابس حريمي ورجالي، أكثرها ملابس داخلية حريمي، ضغطت على زرار إشعال الكومبيوتر وجلست أمام شاشته منتظرًا الويندوز السخيف ينهي خطوات التحميل الأولى، لم يكن هناك أماكن كثيرة أبحث فيها، كان الهارد ديسك مقسم إلى درايفين فقط، الأول مساحته صغيرة نسبيًّا مكتوب اسمه system، واضح أنه يحمل بيانات نظام التشغيل، والدرايف الآخر يسمى my sweaty، لا يحوي سوى الصور التي التقطها لي، وفولدر آخر يحتوي على عشرات بل ربما مئات من صور عارية وشبه عارية لزوجته، استغربت من الأوضاع المثيرة التي تفعلها في الصور، رغم أني كنت أراها من قبل حين كنت

أصادفها في مدخل العمارة امرأة شبه جادة لها ابتسامة تحمل الود مع ملامح بريئة هادئة شديدة الجمال لا يمكنها أن تتصرف بهذه الطريقة، مسحت الصور التي التقطها لي، ثم قمت بنسخ بعض الصور من داخل الفولدر ووضعتهم خارجه وأعدت إدخالهم وكررت هذه الحركة عدة مرات، احتياطيًّا، حتى لا يقوم من يأتي بعدي بعملundo delete، ثم مسحت ال history وكل الخطوات الأخيرة، أطفأت الجهاز وانتظرت حتى أظلمت شاشته، ثم مسحت لوحة المفاتيح والمكتب بالفوطة، ولم أنسَ مسح مفتاح الإنارة ومقبض الباب، تحركت ناحية باب الشقة، وقفت خلفه لحظات أتابع من العين السحرية خلو السلم، فتحت الباب بالفوطة، ثم وقفت والأفكار تقتحم عقلي وتغزو كل خلية من خلايا وتلافيف مخي، ربما لم أمسح آثاري جيدًا، ربما تركت بصمة لي على لوحة مفاتيح الكومبيوتر، أغلقت الباب في هدوء وعدت للداخل مسحت لوحة المفاتيح مرة أخرى وعدت للصالة مسحت كل مكان وطئته قدمي أو لمسته بأصابعي أو حتى أشك أني لمسته، وقف جوار باب الخروج أنظر في الشقة بعيني وأمسحها بنظرى جيدًا ربما أغفلت بقعة ما، أغلقت عيني في قوة متعصبًا وأنا أعصر قبضتي بيدي في قوة ثم أدعك فروة شعري في عصبية من أفكار الوسواس التي تكاد تقتلني وتفترسني من الداخل، زرار شاشة الكومبيوتر ربما لم أمسحه، مفتاح إنارة المطبخ أعتقد أني نسيته، كذلك ربما أكون تركت بصمة لي وأنا أمسك الفوطة، وعدت في عصبية مسحت زرار شاشة الكومبيوتر ثم مسحت الكيبورد مرة أخرى، وكذلك مفتاح تشغيل الجهاز نفسه، ثم مسحت المكتب مرة أخرى ومقابض الأدراج رغم أني لم ألمسها، تحركت في عصبية للمطبخ مسحت زر الإنارة والمكان الذي أخذت منه الفوطة التي أمسح بها، ثم مسحت زر الإنارة مرة أخرى وأنا أغلقه، وعدت في خطوات بطيئة ناحية باب الشقة وأنا أجول بعيني في أرجاء الشقة...

هل مسحت مطفأة السجائر؟!! هل لمستها فعلًا أم يهيأ لي؟!!

هل مسحت بصماتي من على الذراع الخشبي للكرسي الذي كنت أجلس عليه؟؟!

هل؟! هل ؟! هل؟! هل؟!

اللعنة... يكاد عقلي يُجن وأكاد أفقد أتزاني من تسارع الأفكار الوسواسية لعقلي وكياني، عدت ومسحت كل شيء مرة أخرى وأنا أفكر بالترتيب وأستعيد في ذاكرتي خطواتي خطوة خطوة ولحظة بلحظة منذ أن دخلت هذه الشقة الملعونة وحتى عدت أقف مرة أخرى جوار باب الشقة، فتحت باب والأفكار تعاود الهجوم تذكرني باحتمالية أماكن قد أكون لمستها أو لمستها بالفعل ولم أمسح بصماتي عنها جيدًا، أحطت رأسي بذراعي وانحنيت راكعًا وأنا أكتم فمي بالفوطة القذرة وأصرخ فيها، فتحت الباب في قوة بالفوطة وأغلقته خلفي ليحدث صوتًا قويًّا دون أن أُبالي بهذا، أسرعت الخطى نزولًا وأخذت الفوطة معي، اتجهت إلى الشارع، ثم وقفت أمام باب العمارة ألتقط أنفاسي ثم سرت في خطوات طبيعية دون استعجال أتنفس الهواء البارد في عمق، أدعه يدخل صدري في قوة، ألقيت بالفوطة وسط القمامة وعدت لشقتي، نزعت ملابسي عن جسدي وألقيتها داخل الغسالة وأدرتها على وضع التشغيل، وقفت تحت مياه الدش تغسل ما أشعر به من أوساخ على يدي وعلى جسدي، ربما تغسل معها ما ارتكبته من أفعال في هذا اليوم وفي الأيام السابقة.

«هذا كل ماحدث...، ألم أقل لك من قبل إن جرائم القتل معظمها لا تحدث عن عمد أو للاستمتاع».

نطقتها وأنا أشعل سيجارة أخرى، ألتقط مع دخانها أنفاسي في هدوء، كأن ما حدث كان حلمًا واستيقظت منه، قلت وأنا أتابع السحاب الذي بدأ يتجمع من جديد:

«أحيانًا قبل النوم أفكر وأحلم بأشياء أودها أن تحدث، أعيش تفاصيل هذا الحلم، أشعر بكل شيء فيه وأنا لازلت مستيقظًا لكن في مكاني على سريري في غرفة نومي، حتى أن عقلي يصدقه، فيبدأ في التفكير وترتيب حياتي في الفترة القادمة على أساس المعطيات الجديدة التي دخلت حياتي، فأفكر أني سأفعل كذا وسأبدأ التصرف هكذا، ثم أفيق من أحلام اليقظة تلك لأجد نفسي لا أزال في مكاني، الغريب أن هناك أحداثًا تحدث لي فعلًا أشعر بعدها أنها كانت حلمًا لم يحدث قط، شيء شاهدته وأنا مغمض العينين ولن يترك أثرًا بعد ذلك».

سألتني في اهتمام

«لم أفهم».

أجبت وأنا أشعر بشيء يجول في صدرى: «لما مات أخي...».

قاطعتني متعجبة: «هل كان لك أخ آخر وتوفي».

تسرب حزن كنت أحاول أن أنساه إلى صوتي وأنا أتحدث:

«نعم... كان توأمي».

شهقَت وهي تضع أصابعها على فمها:

«لم أكن أعرف من قبل... البقية في حياتك».

ابتسمت ابتسامة باهتو وأنا أردد:

«لا البقية في حياتي ولا حياتك الباقية... البقاء لله».

همست... «ونعم بالله».

تابعت قولي: «المهم... لما مات أخي... رغم أني كنت واعيًا ومتفهمًا لما حدث، إلا أنه كان ينتابني لحظات أنسى فيها أمر موته نهائيًّا، فكنت إذا رأيت شيئًا ما أو فعلت أمرًا ما أقول لنفسي، لن يصدقني أخي حين أعود وأحكي له ما حدث، ربما كان عقلي الباطن يحاول التعايش مع أمر موته بنسيان موضوع الموت ولو لفترة، فينتابني الإحساس بأن موته كان حلمًا لم يحدث وأنه غائب عني فقط، اليوم وأنا أحكي لك ما حدث مع مصطفى ينتابني نفس الإحساس، أني لم أقتله ولم يمت، وأنه سيعود بتهديداته وطريقته الحمقاء ووجوده المستفز وشاربه السخيف».

انتهيت من كلامي وانتبهت أن غادة تنظر بعينها إلى الشارع أمام العمارة، تتابع سيارة وهي تقف أمام عمارتها، نزل منها شخصان يرتديان ملابس عادية ثقيلة أحدهما -وهو من كان يقود السيارة- يبدو واضحًا عليه عصبيته المفرطة وتوتره في حركات جسده، والآخر يبدو أكثر ثقة وهدوء يمسك غليون بيده يسحب منه أنفاسًا بين الحين والآخر، صوت الأول كان عاليًا وهو يتحدث، لكن لم أفسر عما كان يتحدث، الثاني كان يرد عليه بهدوء بصوت غير ظاهر، دخلا العمارة المقابلة، وغابا فيها دقائق، نظرت لغادة أسألها:

«هل تعرفيهما».

هزت رأسها في بطءٍ شديدٍ أن نعم، والرعب يكاد يخرج من عينيها، جاوبت بصمت مبحوح:

«إنهم أصدقاء أشرف وزملاؤه في العمل».

سألت في اهتمام:

«وهل هم معتادان على زيارتكما؟ على الأقل دون موعد سابق أو اتفاق؟».

هزت رأسها من جديد لكن بالنفي هذه المرة:

«لم يزورونا من قبل على الإطلاق».

سألت محاولًا التأكد من شخصيتهما:

«وكيف عرفتيهما بهذه السهولة».

أجابت بصوت مخنوق:

«أذكرهما لأنهما كانا معيدين في الكلية حين كنت طالبة؛ أحمد برهان وناصف سند، كما أنهما حضرا عرسي».

صمتت لحظة، ثم شهقت كأنها تذكرت شيئًا وقالت:

«لقد نسيت أن أخبرك أنهما اتصلا بي».

هتفت مندهشًا:

«اتصلا بك!! لماذا؟ وماذا كانَا يريدان؟ ولماذا لم تخبريني من قبل؟».

دفنت رأسها في كفيها وبصوت حمل الكثير من التوتر:

«نسيت... نسيت نهائيًّا... نسيت كل شيء وانشغلت بما حدث لماري، وما حدث هنا في العمارة وما ورطتك فيه، والشرطة والإسعاف الذين ملئوا الشارع».

وضعت يدي على كتفها:

«اهدئي... اهدئي... ماذا قالا لك؟ هل سألا عن أشرف؟».

تحدثت بصوت مخنوق بالدموع:

«المرة الأولى وأنا عند ماري بالأمس تحدث إليَّ دكتور أحمد برهان سأل عن أشرف وقال هناك موعد بينهم ولم يأتِ، اليوم حدثني مرة أخرى، كان يسأل بإلحاح كأنه يعرف شيئًا، ثم تحدث معي دكتور ناصف كما لو كان يستمع للمكالمة التي تدور ثم خطف الهاتف من دكتور أحمد، سألني عن أمانة تخصهما كانت مع أشرف...».

لمحت الرجلين يخرجان من باب العمارة، فأشرت لها فصمتت، أخفت جسدها خلف سور الشرفة تحاول أن ترى بنصف عين ما يفعلان، سندت أنا ذراعي على السور، وأشعلت سيجارة أدخنها بطرقة طبيعية كأي شخص يقف مدخنًا سيجارته في شرفة شقته، أخرج الشخص الهادئ فيهما هاتفه المحمول من جيبه وضغط عدة أزرار ووضعه على أذنه، دق جرس هاتف غادة الموضوع على المنضدة جوارنا في الشرفة كصرخة طفل ينزل من رحم أمه في منتصف ليل هادئ وسط صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، هتفت بصوت غير مسموع لهم... «اللعنة».

خطفت غادة الهاتف تكتم صوته وهي تصرخ بصوت هامس:

«ياللمصيبة... ياللمصيبة».

حافظت على ثبات وقفتي وأنا أسحب دخان سيجارتي، أتابع بعيني الرجلين يتلفتان حولهما بحثًا عن مصدر صوت الهاتف، قلت متأكدًا أنهما لا يرون ملامحي من هذه المسافة ويدي التي تحمل السيجارة مشتعلة أمام فمي:

«ادخلي الشقة وردي عليهما، قولي لهما أنك في زيارة عند جارتك».

امتثلت لقولي، ودخلت شبه زاحفة من الرعب الذي تملك من أطرافها ومفاصلها حتى باتت أطرى من العجين بعد تخمره، فتحت الخط وأجابت بصوت مرتعش:

«ألو».

تابعت الرجل الذي يحمل الهاتف مستمرًّا في التلفت من حوله وهو ينظر لعمارتي باحثًا عن صاحبة الصوت ومصدر الجرس، كنت شبه متأكدًا أنه على الأقل يعرف أن مصدر صوت الهاتف هو نفس العمارة التي أقف في شرفة إحدى شققها، كان صوت غادة المتوتر يصلني وأنا أتابع حديثه معها على الهاتف:

«لا لم يعد بعد... لا أعرف...، ليس له أقارب...، فعلًا أفكر في تقديم بلاغ، أنا لم أفهم المكالمة الأولى عن الأمانة التي تحدثت عنها...، حاضر... حاضر... أعدك أني سأتصل بك بنفسي حين يعود...، أو حتى إن اتصل...، حسنًا... حسنًا...، مع السلامة».

ضغطت زر الإغلاق في حذر كأنه سيسمع صوت ضغطتها وهو في الشارع، ونادت هامسة:

«هل انصرفَا».

أجبت وأنا على نفس وضعية المدخن ساندًا بذراعي على الشرفة... «توْ».

ظلَّا واقفين يتحدثان، الأول بطريقته العصبية وصوته العالي غير المُفَسَّر، يلوح بيديه بحركات تشنجية يكاد يقفز كالقرد الغاضب، والآخر يمسك غليونه بين أصابعه وبين فمه، يدخن كقاطرة بشرية، يدور بعينيه على عمارتي وعلى العمارات المجاورة، أكاد أقسم أني لمحت شبح ابتسامة ارتسمت على شفتيه وهو ينظر إليَّ.

بعدها تحرك يفتح باب السيارة وهو يشير للعصبي أن يقود، أدار السيارة حتى زأر محركها وعلا صوت محركها يحرق الكثير من البزين، وذلك العصبي يعصر دواسة الوقود أسفل قدمه، تحركا مبتعدين واختفت السيارة عند الناصية القريبة.

تنفست غادة الصعداء وارتمت على كرسيها، ألقيت عقب سيجارتي في الخارج وعدت أنا أيضًا لمكاني على الكرسى أمامها، وأنا أقول:

«أكاد أشك أن الذي كان يحدثك على الهاتف عرف أنك كنتي هنا».

فزعت غادة ونطقت بخوف:

«أنا لا أحتمل رعبًا وتوترًا أكثر مما أنا فيه، كيف يعرف أني هنا».

أجبت ونظري سارح مفكرًا:

«يبدو أن صوت الهاتف كان أوضح مما توقعت، أو ربما أنا لم أكن مقنعًا في وقفتي كما تصورت».

سألَت بتوتر يزداد في صوتها الذي بدأ يتقطع من فزعها فأصابها فَواق:

«وما... هأ... العمل... هأ... ماذا... هأ... سنفعل هأ...؟».

ابتسمت رغمًا عني وأنا أناولها كوب ماء:

«لا أعرف... سننتظر ماذا يحدث ونرى».

ثم تابعت قبل أن تتحدث بصوت متقطع بالـ «هأ»:

«الأفضل أن تبيتي هنا الليلة... لا أعتقد أنك بهذا الحالة من التوتر والعصبية والخوف تقدرين على المبيت في شقتك بمفردك وبعد يومين فقط مما حدث... واحتياطيًّا من زيارة غير متوقعة من هذين

الشخصين».

لم تفكر كثيرًا في الرفض وهي تقول: «موافقة... هأ».

ربما وافقت بسبب الخوف الذي يهز قلبها بعد أن تملكه الفزع والخوف مما يحدث لها طوال يومين متتابعين، وربما لأنها تشعر بعدم قدرة عقلها على التفكير برجاحة تحت هذا الضغط النفسي والعصبي الذي تتعرض له منذ يومين وربما أكثر على حد قولها، أشعر بذلك من ملامحها التي تفصح عما يبدو لي ضياعًا داخليًّا لا حدود له، امرأة تائهة وحيدة تشعر بوحدة، قتلت شخصًا ومتورطة في جريمة أخرى بشكل أو بآخر، محاصرة بين نفسها وبين عقلها الباطن وبين شخصين يلاحقانها ربما بسبب ما فعلت وربما لسبب آخر لم نعرفه بعد، كل ذلك ولم تجد غيري أنا تلجئ إليه، وهي لا تعرف أني أكثر منها احتياجًا لشخص يبعد عني مشاكلي قبل مشاكلها، وينتشلني من كل الحياة التي أحياها بمللها، ورتابتها، ووسواسها الذي يخنقني ويقتلني كسم زعاف بطيء، يتسرب تحت جلدي ويقتل خلاياي واحدة بعد أخرى كل دقيقة وكل لحظة، يمزق كل شعوري بالحياة، وكل صلة لي بدنيا كنت أشتهيها، فأصبح حاضري صعبًا متعبًا، والمستقبل أمامي هشيمًا تذروه الرياح، ربما حياتي وراحتي بمفردي كانت وهمًا أحاول أن أعيش وأتعايش معها، لكنها من المؤكد أنها كانت أفضل من الفوضى التي أتخبط فيها هذه الأيام.

حاولت أن أقتل الصمت الذي ساد بيننا، فخرج صوتي كئيبًا على الرغم مني:

«لا يوجد طعام عندي، سأخرج أحضر ما يمكن أن نتعشى به».

أزاحت رأسها عن يديها بعد أن كانت تستندها عليها وقالت في ضعف ويأس ساد نبرة صوتها:

«لا... ليس لي شهية لأي شيء أو أي طعام».

نهضت من مكاني أستعد للخروج:

«هذا أمر... نتناقش فيه بعد عودتي».

فتحت باب الشقة وهممت بالخروج، توقفت لحظة مترددًا في مكاني، ثم أغلقت الباب وعدت للشرفة من جديد، ترددت في الكلام لحظات، فسألتني:

«ماذا هناك؟»... ثم وقَفَتْ في فزع قائلة:

«هل هناك أحد بالخارج».

هتفت في سرعة لتهدأ وقلت محاولًا أن أبدو لطيفًا:

«لا، لا شيء...».

ترددت من جديد ثم تمالكت نفسي وقلت:

«لكن أردت أن أطلب منك ألا تتجولي في الشقة وتمسكي أي شيء فيها، أعلم أنه يبدو أمرًا وقحًا، لكني أعتقد أنك تتفهميني».

ابتسمت في ضعفٍ وقالت:

«حاضر... سأجلس مكاني ولن أغادر الشرفة، لا تقلق».

هبطت في المصعد لأقرب محل بقالة، تبضعت خبزًا ونوعين مختلفين من الجبن وزبادي، ولم أنسَ سجائري وبعض البن الذي اقترب على النفاد، لم تعد أنواع البن المتاحة في الأسواق تجدي، كلها تبدو مغشوشة بالفول السوداني المحروق، حتى لو اشتريتها من المطحنة نفسها وطُحنت أمامي.

حاولت رغمًا عن إرادتي وأنا في طريق عودتي أن أنظر إلى الشرفة جيدًا لأرى غادة إن كانت نفذت ما وعدت به وما زالت جالسة في مكانها أم غادرت الشرفة، لكن لم أنجح في التأكد، فتحت باب الشقة في هدوء، ودخلت متسللًا، وجدتها جالسة في مكانها لم تتحرك كما قلت، شعرت بالضيق من نفسي، أغلقت الباب في قوة لتعرف أني عدت ودخلت المطبخ وضعت ما أحمله، وأفرغته في أطباق نظيفة، بعد أن غسلت يدي عدة مرات، سمعت صوت غادة يأتي من خلفي يقول:

«هل هناك ما أساعدك فيه؟».

قلت في خجل قليل: «الحقيقة... نعم... في».

ابتَسَمَتْ في وهن قائلة: «أنا سيدة بيت ماهرة».

كنت أشعر بحرج شديد مما أطلبه منها، لكني أعتمد على تفهمها لما أنا فيه:

«لا ليس هذا... أريدك فقط أن تغيري ملابسك تلك التي كنتي بها في الخارج وتغتسلي قبل العشاء».

همت بقول شيء فقاطعتها في عجل قبل أن تنطق:

«سأحضر لك تريينج نظيفًا، أنتِ الآن تعرفي ما أنا فيه».

تركتها تتجه للحمام وأحضرت لها ما قلت ووضعته على كرسي أمام باب الحمام، وعدت أنا لغرفتي غيرت ملابسي واغتسلت في الحمام الصغير، وجهزت العشاء.

تناولنا طعام العشاء وسط كلمات وتعليقات مجاملة قصيرة، كان واضحًا عليها المعاناة التي تعانيها، سواء من نظراتها الزائغة أو من طريقة مضغها البطيئة للطعام، تمسك اللقمة بين أصابعها وهي تلوك الأخرى على مهل، وعينها شاردة، بدا ذلك واضحًا أكثر لما انتهينا وتركتها جالسة أمام التلفاز، لأحضر الشاي، عدت فلم تنتبه حتى لجلوسي معها، ناديت عليها مرتين وأنا أمسك كوب الشاي أناولها إياه، أرتشف منه رشفات صغيرة وهو ساخن، بعين تنظر لما يحدث في التلفاز دون أن تدرك ماذا فيه، حاولت أن أبعدها عما يدور في عقلها وعن أفكارها التي يبدو أنها تقتلها ببطء وتميت الروح بداخلها، نظرت لشريط الأخبار الذي يمر أسفل الشاشة فوجدت مكتوبًا فيه، الاجتماع الأول للمجلس الاستشاري واختيار منصور حسن رئيسًا للمجلس، قالت دون أن تلتفت إليَّ:

«أعتقد أن أغلب القتلة المتسلسلين ربما يكونوا مصابين بوساوس قهرية».

نظرت إليها وسألتها:

«تقصدين مثلي؟».

قالت في سرعة: «بالطبع أنا لا أقصد أنك قاتل متسلسل أو قاتل محترف، بل أقصد أنهم يهتمون بإزالة كل ما يمكن أن يدل على شخصيتهم أو يكشفها؛ لذلك هناك قتلة متسلسلون كثيرًا لم يتم الكشف عنهم».

فكرت لحظة فيما تقول:

«ربما، لكنه في هذه الحالة سيبقى وقت أطول بكثير مما يتوقع وهو يتخلص من بصماته وآثاره لدرجة أنه من الممكن أن يفقد عقله للحظة ويقتل نفسه من شدة توتره بالوساوس القهرية التي ستنهش في خلاياه وجسدة كذئاب شرسة تزداد شراستها كلما شمت رائحة الدم».

حاولت أن أغير الموضوع لعدم شعوري بالراحة في متابعة تفاصيل عما أشعر به، فسألتها وأنا أشير للتلفاز:

«ما رأيك فيما يحدث في البلد هذه الأيام؟».

ردت في توهة متعجبة... «وماذا يحدث؟!».

أجبت مبتسمًا:

«أقصد كل ما يحدث... مظاهرات وغضب وفوضى وانتخابات وإخوان وليبراليون وجماعات مختلفة وكل شيء، كنت أراكِ في البدايات كل جمعة تحملين علمًا وتخرجين، مؤكد كنتي تذهبين لميدان التحرير».

وضعَتْ كوب الشاي وابتسمت وردَّتْ:

«كنت...».

«ثم؟!».

تابعت قائلة:

«لا أعرف... شعرت أن الأمور الشخصية لبعض الناس والحركات أو الجماعات، ورغباتهم، خصوصًا مَن تصدروا الإعلام منهم وشاشات التلفاز طغت على ما كنت أتمناه في البداية، الأمر لم يكن قاصرًا على خلع رئيس، بل خلق حياة ومجتمع أفضل، المجلس العسكري أدار البلاد بطريقة شعرت أنها خاطئة، والميدان مع الوقت تم احتلاله من أُناس آخرين، أصبحت أرى وجوهًا غريبة، حتى أصبحت أشعر أني أنا الغريبة هناك، فامتنعت عن الذهاب، كنت أذهب بمفردي لم يكن زوجي يأتي معي، أحيانًا كنت أتقابل مع بعض زميلاتي في العمل هناك، كن يأتين بغرض النزهة أكثر».

وضعت كوبي أنا أيضًا وانتهزت استرسالها في الحديث لأجعلها تتكلم فعاودت أسئلتي:

«لم تنزلي من أول ما الأحداث؟ أقصد من يوم الخامس والعشرين؟».

«لا... بدأت من يوم التاسع والعشرين، صراحة لم أتوقع أن يحدث شيء لما سمعت عن دعاوى المظاهرات في البداية سواء من الحديث بين الناس أو على الفيسبوك، لكن بعد ما شاهدت على القنوات الفضائية ما يحدث يوم الثامن والعشرين قررت النزول، لكن يومها حدثت الفوضى ورأيت الناس يجرون في الشوارع والكلام الذي قيل عن هروب المساجين وخلافه، فضلت أن أبقى يومها في البيت وأنتظر، وفي اليوم التالي عدت من العمل على التحرير مباشرة...، وأنت ما رأيك؟».

نفخت دخان سيجارتي التي أشعلتها وهي تتحدث:

«لا... أنا لم أنزل لا في البداية ولا في النهاية» ابتسمت وأنا أقول:

«أنا من حزب الكنبة كما يقولون، أو حزب الكرسي حيث أجلس، اكتفيت بالمتابعة، أنا فقدت الأمل من قبل أن يحدث أي شيء، وصعب أن أجد ما يحيي الأمل فيَّ من جديد، سواء في حياتي أو في البلد من حولي، البلد ليست مشاكلها حكم وسياسة، البلد مشاكلها تعليم وسوء أخلاق وتغير في الطباع... والكثيـــــر والكثيـــــر من الغباء، وكل هذا ظهر أكثر بوضوح بعد الثورة، ليس لأنه لم يكن موجودًا من قبل، بل كان موجودًا، لكن أصبح واضحًا أكثر، ربما أكثر مما ينبغي، المشكلة الأكبر أن كل من يريد حرية رأي يريد حرية رأي له فقط وليس لغيره، الكل يريد ديموقراطية، لكن يريد الديموقراطية من وجهة نظره فقط، لا يهم ما رأيك ومَن أنت، المهم أن أفعل أنا ما أريد، حتى كل مَن يتحدثون عن رغبتهم في الحكم، كلهم يريدون أن يحكموا كما حكم مبارك قبلهم، وليس كما

يحكم الرؤساء في البلاد الديموقراطية على حق، يريدون ديموقراطية الفرد الواحد، الكل بلا استثناء يريدون مبدأ اتبعوني وأطيعوا أمري».

هزت رأسها موافقة.

«معك حق... لم لا تفكر أن تكتب هذه الآراء... حتى ولو على مدونة أو على الفيسبوك... هل عندك فيسبوك وتويتر؟».

ضحكت من تحولها المفاجئ وقولها وأجبت:

«المهم الرغبة... الرغبة في الكتابة، الاحتياج لقول شيء، وأنا لا أرغب، أما عن الجزء الثاني فلا ليس عندي فيسبوك أو تويتر، ولا حتىsmart phone، أنا أحمل موبايل عفا عليه الزمن، بالكاد أستخدمه للاتصالات، وكثيرًا من الأحيان أتركه في البيت وأسير دونه، مالي أنا ومال الفيسبوك ومشاكل الناس وآرائهم عليه، الكومبيوتر الذي أمتلكه، عندي منذ أكثر من عشر سنوات كنت أدخل به على النت بالـ dial up، ولم أحاول أن أدخل له الـ dsl حتى، زملائي في الشركة يتشاجرون تقريبًا بسبب الفيسبوك كل يوم».

اعتدلت وأنا أغير نبرة صوتي محاولًا تقليد طريقتهم في الحديث:

«أنت كتبت بالأمس وسببت المجلس العسكري وقلت كذا وكذا، لا... أنت تقصد أن تشوه صورتي وتفضحني بسبب كذا وكذا...، أنت إخواني...، أنت عميل وخائن...، وأنت مدعٍ ومنافق».

عدت لطبيعتي وتابعت:

«والكل منهم مدعٍ ومنافق، عم عبدالحميد الساعي لدينا يخبرني أنهم يقضون أغلب الوقت يلعبون المزرعة السعيدة على كومبيوترات العمل، الكل يحاول أن يقدم شو استعراضي يزين به نفسه».

أشرت لما يعرض في التلفاز، حيث كانت المذيعة مستضيفة أحد الملحدين يتحدث ويحاول إثبات عدم وجود الله، المذيعة كانت متحفزة تحاول أن تكون غاضبة، وقلت:

«حتى هنا الكل يبحث عن شو إعلامي يجذب الناس والإعلانات، الملحدون موجودون في هذه البلد من قبل الثورة، هل انتبهوا لوجودهم فقط الآن، وحتى لا تقولي إنهم كانوا يخشون من أمن الدولة، هم الآن في مواجهة مع الناس الأكثر عنفًا؛ لأنهم يصطدمون مع جماعات أفكارها متشددة وأقرب للإرهاب الفكري وربما الإرهاب الفعلي، وهذا الملحد نفسه...!! إذا كان ملحدًا لماذا يشغل عقله بإثبات عدم وجود الله لغيره، لماذا يشغل نفسه بالبحث في دين الآخرين ليثبت أنهم مخطئون، هل يريد أن يثبت هذا لنفسه أم لهم، لم لا يكتفي برأيه لنفسه وإيمانه بما يقول إن كان فعلًا مؤمنًا بما يقول ويصمت ويتبع آرائه ويستمر في حياته، هل يريد أتباع له كما كان يفعل الأنبياء مثلًا؟!!...، لا

أعرف ماذا يريد، أشعر أنه يحاول أن يثبت أنه ليس بمفرده في هذه الاعتقاد يحاول أن يثبت خطأ غيره قبل أن يثبت صحه رأيه».

كان الفتى الملحد لحظتها يتحدث عن القرآن ويقول إن قراءة القرآن قديمة متواترة، وهم بقول شيء ما، لكن المذيعة هبت فيه وصرخت في وجهه:

«أنا لا أسمح لك أن تقول كلمة عن القرآن وأن كلماته متوترة، لا تقول مثل هذا الكلام في برنامجي...».

ازدادت الحدة في كلامهم وتبادلوا السباب تقريبًا وانتهى الأمر بأن طردته، هزت غادة رأسها متأسفة لما ترى وقالت:

«المذيعة الحمقاء جاهلة لا تدري الفرق بين متواترة ومتوترة، ظننت أنه يسب ويطعن في القرآن، الآن... اكتمل الشو الإعلامي بطرد الملحد الكافر من أرض المعركة».

تبادلنا الحديث والكلمات عما يحدث في البلد، ونسينا أو ربما تناسينا ما يحدث لنا هذه الأيام وما يجرنا إليه القدر لحظة بعد أخرى، وما يخبئه لنا، انسحب بنا الحديث وبدأت تحكي لي عن عملها وما تعانيه فيه، والمشاكل التي تشعر بها من جراء تحول الصيادلة والأطباء في المستشفى لموظفين روتينيين، كما لو كانوا من أصحاب وحاملي «الدبالين»، انتقلت إلى ذكرياتها في الجامعة وإلى صديقتها آية التي التقت بها منذ يومين، وهي في زيارة لطبيب نفسي، لم تنسَ في وسط حديثها أن ترشحها زوجة مناسبة لي، ثم حكت لي عن الطبيب النفسي الذي كتب لها الدواء كما لو كانت تعاني من مغص في معدتها أو صداع مزمن، مرت الدقائق سريعة حلوة، للحظات انتهى كل شيء، وزال كل خطر، حتى صوت الأمطار الذي عاد بالخارج كان ممتعًا كما كان من قبل....

واصَلَت سرد ذكرياتها ثم ابتسمت وقالت:

«لقد أصبَحَتُ مسنة أحكي ذكريات الماضي وأتحسَّر عليها».

قلت مداعبًا:

«الزهرة الكاملة فقط هي التي يعتبرها البستاني مسنة».

ابتسمَتْ خجلًا لقولي، ثم نهضَتْ من جلستها كأنها في بيتها، وقالت إنها ستعد الشاي هذه المرة، أخبرتها ألا تضع لي سكرًا.

الوضع بالنسبة لي الآن أفضل وأكثر أريحية بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسها؛ لذلك لا أشعر بالتوتر من حركاتها داخل حدود بيتي المرسومة بعناية، عادت بعد قليل تحمل صينية عليها أكواب

الشاي، في طريقها وقفت أمام صورة لي وأنا صغير مع أبي وأمي ومع إخوتي، سألت وهي واقفة أمامها محدقة فيها بقوة:

«هذه الصورة كانت أمام العمارة هنا؟».

أجبت وأنا في مكاني لم أتحرك:

«نعم... حين كانت الحديقة لا زالت مزهرة».

اقتربت بعينها من الصورة ودققت فيها بعناية، رأيتُ ملامحها تغيرت قليلًا وتوترت دفعة واحدة وعلا وجهها بعض الصفرة، ثم تحركت وعادت مكانها حيث كانت تجلس وثبتت عينيها في الأرض كما لو كانت تهرب من نظرتي، ناولتني كوب الشاي وعادت تجلس مكانها ترتشف الشاي في بطءٍ، وأنا أشعر أنها تختلس النظر إليَّ بين الفينة والفينة محاولة ألا تلفت انتباهي، سألتني وهي تحاول أن تهرب بعينيها مني:

«أتعلم!... نحن نعرف بعض من سنوات ولا أعرف أسماء إخوتك».

أجبت في بساطة:

«أخي الكبير اسمه رفيق والصغرى مريم».

سألت في اهتمام أكثر: «وتوأمك ماذا كان اسمه؟».

احترت قليلًا في مغزى أسئلتها وأنا أجيب: «يوسف».

هزت رأسها في تفهُّم، صمتت لحظات ارتشفت فيها عدة رشفات من كوبها، ثم عادت وسألت من جديد في لهفة بدت واضحة:

«أدهم... هو أنت اسمك أدهم إيه؟».

شعرت أني بدأت أفهم فابتسمت وأنا أجيب:

«أدهم نبيل فوزي».

وضعت كوب الشاي على المنضدة قبل أن تنهيه وسألت:

«أدهم... هو أنت مسيحي؟!!!».

أي بني، هوذا تفسير ما تنبَّأوا لك به؛ هي ذي الأشراك التي ما برحت تخفيها عليك دورات للأفلاك قليلة، لا تحسدنَّ مع ذلك أبناء وطنك، فحياتك تنخط في قادم الزمن أبعد من عقوبة خيانتهم.

دانتي ألجييري

ماري.

من المؤلم أن يشعر الإنسان أنه يعيش آخر أيام حياته...

والأكثر إيلامًا أن يعيش تلك الأيام وحيدًا، لا أحد جواره من أبنائه أو أهله.

والآن...

أجلس منزوية في هذا الركن البعيد من العالم، وأنا في آخر أيام حياتي، أتذكر أحلامي التي تكسرت على صخور الواقع، وسحبتها أمواج الحياة بعيدة عني...

وكأني لا جئت، ولا على هذه الأرض خطوت...

لا أحد يتذكرني، ربما لا أحد يعرفني، البعض تعمَّد أن ينساني ما دام لم يستطع أن ينتفع بوجودي في هذه الحياة...

الكل تخلَّى عني وابتعد عني وعن طريقي...

اقتربت النهاية، واقتربت مواجهتي نزول ستائر الخاتمة...

لكن ليس على المسرح هذه المرة.

بعدها ككثير ممن وجدوا على هذه الأرض...

لن يتذكر أحد وجودي لأني لم أترك فيها ذكرى أو أترك فيها أثرًا...!!

أشعر أن النهاية قريبة، امرأة عجوز، مريضة، منهكة القوى، وحيدة في انتظار إغلاق ستارة النهاية على حياتها، امرأة لم تر ابنها الوحيد الذي يربطها بكل تلك الدنيا منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، وربما هو الإثبات الوحيد على أنها كانت موجودة فيها يومًا ما، لم يعد يربطنا معًا سوى مكالمة كل أسبوع وأحيانًا كل أسبوعين.

خمسة وثلاثون عامًا مرَّت ربما أكثر لم أرَ ولدي الوحيد فيها ولو مرة واحدة وجهًا لوجه، لم أحضر زفافه، ولم أبكِ يومها فرحًا، بل بكيت حزنًا وشوقًا، لم أرَ زوجته الكندية التي تزوجها هناك، لم

ألمس حفيدي أبدًا، لم أشم فيه رائحة الأطفال، تلك اللحظة التي تتمناها كل جدة، لم أحتضنه بين ذراعي حين وُلد كما يفعل الأجداد بأحفادهم، لم أره أو أرَ فيه المستقبل الذي لن أعيشه، أذكر الآن أحد الأيام منذ ستين عامًا مضت، في آخر أيام العهد الملكي، كنت عند أحد الأصدقاء وقرأ لي شعر إبراهيم ناجي، لم أفهمه حينها لكنه ظل محفورة كلماته بداخلي، لم أنسها، لا أزال أذكرها جيدًا...

يا ساعة الحسرات والعبرات أعصفت أم عصف الهوى بحياتي

ما مهربي ملأ الجحيم مسالكي وطغى على سُبُلي وسد جهاتي

جفت على شفتي الحياة وحلمها وخيالها من ذلك الينبوع

قد هدَّني جزعي عليك وادعى أني غداة البين غير جزوع

وأريد أشبع ناظري فأنثني كي أستبينك من خلال دموعي

هان الردى لو أن قلبك دار أأموت مغتربًا وصدرك داري

كأنه يتأسى على أيام حياتي التي مضت عليَّ وأنا وحيدة في شوق لرؤية ابني وحفيدي، ألمح أثر الزمن قد حفر بصماته على وجهي، وترك في روحي شروخًا كبيرة لن تلتئم.

يقولون إن أقسى الأصوات هو نحيب أم على ابنها المتوفى، لكن أحيانًا يكون الصمت أقسى، والصمت هو ما أحيا فيه منذ أن صرت وحيدة منعزلة في شقتي، لم ينقذني منه سوى أدهم في السنوات الماضية بزيارته لي وسؤاله عني.

أدهم...!!

وحيد مثلي أرى فيه صورة حفيد لم ألقه، هوَّن عليَّ وحدتي كثيرًا، لكن زياراته مهما طالت لم تكن تتجاوز ساعة أو اثنتين على الأكثر بعدها يعود الصمت كئيبًا يسكن صدري قبل أن يسكن جدران بيتي، أشعر أني أصبحت عبئًا عليه، لا يمر إسبوعان أو ثلاثة على الأكثر إلا ويحملني كالطفلة إلى المستشفى لينقذني من مصير مظلم وموت أصبحت أتمناه وأنتظره، كان جل ما أخشاه يوم أعطيته المفتاح أن أموت وأنا بمفردي، ولا يدري عني أحد إلا بعد أن يشتموا رائحة جثتي المتعفنة، فيتقذذون مني ومن رائحتي وهم يحملونني ويدفنونني في مأواي الأخير، لا أريد أن تكون تلك آخر ذكرى لي مع الحياة، امرأة ميتة وحيدة جثتها متعفنة.

أشعر في كثير من الأحيان أن أدهم صورة مصغرة مني، بدأ وحدته مبكرًا، لكن هناك أمل أن يجد من تشاركه بداية جديدة يخرج بها من وحدته، لا أتمنى له المصير الذي أحياه، لما أتى لزيارتي بالأمس مع غادة شعرت للحظة أن تلك اللحظة اقتربت والأمل تجدد، أعرف أني رأيتها من قبل عدة

مرات في الشارع، وأنها تسكن العمارة المقابلة لنا، لكني لا أعرف عنها شيئًا، فطالما كنت منعزلة عن الشارع والجيران، كان يتحدث بطريقته المعهودة وبساطته إلا أني كنت أرى سرًّا كامنًا في صدره، لمحت في عينيها له نوعًا من المودة والعرفان يقتربان من الحب، أعرف تلك النظرات جيدًا، عشتها من قبل، ولازلت أذكرها وأذكر معناها، والأصعب أني أذكر إحساسها، لاحظت حركاتها المتوترة، المشدودة، كل خلجاتها تحمل آية فزع واضطراب، ربما تخفي شيئًا ما، أو تخاف من أمر ما، لن أحاول أن أسأل ما هو، لكن كان واضحًا أن أدهم يشاركها ذلك السر، ما يكفيني أني رأيت لَمعة في عين أدهم لم أرها من قبل، يبدو أنه يحمل لها بداخله الكثير أو على الأقل كان يحمل لها ذلك من قبل، وآثاره وبقاياه مازالت عالقة داخله، عُدت وخاب أملي لما لمحت في إصبع يدها اليمنى دليل الزواج.

كالعادة كنت أقص عليها حكاياتي وذكرياتي، دائمًا أستمتع وأنا أتحدث عن الماضي كأني أعيشه من جديد، لكن نظراتها أحيانًا كانت تضيع وسط شيء يشغل عقلها، ويطغى على تفكيرها، ملامحها التي كانت ترسم عليها ابتسامة باهتة مصطنعة، تخفي خلفها بحورًا وأمواجًا قلقة لا تستطيع الاستقرار، حتى في لحظات هدوئها، تستمع إليَّ بأذنها وأشعر أن عقلها يدور في دنيا أخرى.

كنت سعيدة للحظات أن هناك من سيبيت معي ليلتي حينها في شقتي باردة الجدران، قلت لنفسي أخيرًا سيتسع فيها مكان لأنفاس أخرى دافئة في لياليَّ الباردة دائمًا، وستمر عليَّ ساعات أقضي فيها على الصمت المعشش في أركان البيت كالعنكبوت، لكن القدر لم يدعني أهنأ بليلة واحدة مع إنسان، سقطت في غيبوبة شيخوختي من جديد، وبت ليلتي بمفردي كالعادة بين جدران العناية المركزة الأبرد من بيتي، عزائي الوحيد أني أفيق وأقضي ليلة أخرى أشاهد قصر البارون من نافذة غرفتي التي أطلب بقائي فيها كل مرة، كنت في انتظار أدهم ليعيدني إلى البيت، لم أكن أطيق البقاء في المستشفيات أكثر من ذلك، أكره المرض، وأكره العجز الذي أنا فيه، لا أدري كيف مرت كل هذه السنوات من عمري، كيف تركتها تمر وتتفلّت من بين أصابعي هكذا؟ لماذا لم يتمهَّل بي القدر قليلًا ويبطئ سرعته أكثر.

جلست أتابع قطرات المطر التي تسيل على نافذة حجرتي، وبخار الماء يكسو سطح زجاجها البارد، أكاد أسمع صوت ارتطام الأمطار بالأرض في الخارج، ممتزجًا مع البرنامج الذي يدور في التلفاز عن الطبيعة والغابات، يبدو أنه برنامج مُعد يتم تكراره لكل المرضى ليبعدهم عن التوتر والحياة العصيبة التي نحياها، في محاولة للوصول بهم إلى الهدوء النفسي.

لكن من أين يأتي الهدوء؟! والنفس مشتعلة داخل الصدور، والأنفاس مضطربة، والروح قلقة، من أين يأتي الهدوء؟! والنفس تشتاق لمن ليس مقدرًا لها رؤيته، الزمن يمر، والأيام والعمر يمضيان برتابة وإيقاع ممل بطيء، يخنق النفس، ويقتل الأمل.

تعالى صوت دقات هادئة على الباب، التفت وقد دخل أدهم مبتسمًا بشوشًا كعادته دومًا كلما لاقاني، نطق سعيدًا:

«حمد لله على سلامتك، اليوم تبدين أحسن وأجمل، نمسك الخشب حتى لا نحسدك».

دلفت خلفه غادة على استحياء مختبئة خلف عدسات نظارتها الشمسية رغم الجو الغائم، حركاتها متوترة، مختلفة، ربما غريبة، واضطرابها أكثر اليوم عن اليوم التي أمضته معي، احتضنتني كأنها تلقي بنفسها بين ذراعي تختبئ بينهما، للحظة شعرت بنحيب تخفيه بداخلها، احتويتها بين ذراعي وربتُّ عليها، لمحت عيونها المنتفخة من خلف نضارتها الغامقة، وهي تعدِّل من وضعها على أنفها، هناك شيء جديد حدث أربكها، حتى أدهم رغم طريقته المعتادة، إلا أنه يبدو متكلفًا أو متصنعًا كأنه يخفي أمرًا هو الآخر، ربما لا أعرف غادة جيدًا، لكني أعرف أدهم كما أعرف ابني الذي نما في حضني، ظلت غادة جالسة جواري على السرير تحتضن يدي بين أصابعها، تتلمس فيها الأمان ورأسها منكسة قليلًا، جلس أدهم على كرسي جوار طرف السرير وهو يقول:

«تأخرنا عليكِ قليلًا حتى تكوني استعددتي للخروج من المستشفى، والعودة معنا لبيتك، العمارة مظلمة من غيرك».

ابتسمتُ مجاملة، وعيناي تتحركان بينه وبين غادة، أخشى السؤال عما هناك؛ لأني أخشى أن يصدمني الجواب، هناك ما لا يودان أن يشركاني فيه معهما، وأدهم كتوم بطبعه لا يشكو ولا يخبر أسراره لأحد، ضغطت بأناملي على أصابع غادة لتنظر إلي، وأسألها هامسة:

«ما بك يا غادة؟ أنتِ بخير؟».

هزت رأسها أن نعم، دون أن تحرك لسانها ولا شفتيها بكلمة واحدة، أدهم كان يتحدث بطريقته المعهودة وبساطته إلا أني كنت أرى فيه أمرًا مختلفًا، لا أدري ما هو، هناك ما حرك سطح الماء الراكد كما يحدث عند إلقاء حجر في بحيرة، حدثني عن كلامه مع الطبيب قبل دخوله، وعن تحسن حالتي واستقراره، فقلت:

«ليس بالإمكان أفضل مما كان، إن هي إلا أيام وأعود».

ردت غادة بصوت أقرب للحزن:

«لا تقولي هذا، ستكونين بخير إن شاء الله، ولن أتركك بعد الآن، سأكون جوارك دائمًا أنا أيضًا».

احتضنتها في صدري وقبلت رأسها، أشعر بالصدق في كلامها، لكن أشعر معه بالخوف والحزن، كما أشعر بدموعها التي تسيل على وجنتيها، مزيج عجيب لا أعرف كيف يجتمع في نبرة صوت واحدة، لكني عشت في هذه الحياة ما يكفيني لأعرف ما تخفيه القلوب وأشعر بمكنون نبرات الأصوات، أستطيع حتى أن أميز الأشخاص من نظرات أعينهم، وغادة طيبة، لكن ضعيفة، وحيدة، هشة، تحتاج إلى أحد جوارها، الأيام لم تقوِّ عودها بعد، وربما تجد الصعوبة في مواجهة رياح الحياة، ربما تقول كلامها وهي في احتياج لوجودي جوارها أكثر من احتياجي لوجودها جواري.

خرج صوت أدهم مخنوقًا متأثرًا وهو يقول:

«لماذا كل هذه الأجواء التراجيدية، ما رأيكم أن نتغدى اليوم في الخارج، الجو ممطر لكن الأجواء ممتعة».

وافقته بعد أن سألت غادة عن رأيها فلم تمانع.

خرجنا من الغرفة متأبطة ذراع غادة اليسرى، ومتكئة على ساعد أدهم الأيمن، سرنا في خطوات بطيئة، يودعنا الممرضات اللائي يلاقوننا في طريق خروجنا، جلست في الكرسي الخلفي وجلست معي غادة، تحرك أدهم بالسيارة، وغادة تحتضن ذراعي كأني أمها بالضبط، ربتُّ على ساقها وأنا أبتسم لها، تذكرت مطعمًا قديمًا تعودت الذهاب إليه، طلبت من أدهم أن يذهب بنا إليه، كان قريبًا من المستشفى ومن قصر البارون، فوصلنا سريعًا، جلسنا جانب جداره الزجاجي الذي يطل على الشارع، للأسف كانت معالمة متغيرة عما تعودت عليه، أنا لم أزره منذ أكثر من عشرين عامًا ربما، أو أقل قليلًا، كنت بمفردي لكن كان لا يزال يحمل طابعه العتيق الذي يحمل جمال تاريخه، اليوم أصبح مكانًا باهتًا رغم بهرجته، وألوانه، وديكوراته التي تحاول أن تبدو قيمة أنيقة.

تركت غادة تطلب لي على ذوقها، لكن لم أستطع تناول سوى بضع لقيمات مما وضع أمامي، حاول أدهم أن يضفي روح المداعبة في كلماته، وغادة كانت أكثر تحفظًا في حديثها معه عما رأيتها من قبل، طلبت قهوة، فحاول أدهم أن يمنعني بود؛ لأنها من الممنوعات التي وضعها الطبيب، فابتسمت وأنا أقول:

«اعتبرها أمنية من أمنياتي، سنوات لم أتذوق طعمها».

تشممت رائحة القهوة وهي تعانق أنفاس المساء والشتاء، تلك الروائح مجتمعة شفاء للروح، تأملت بُخارها المتصاعد، ارتشفت رشفة بطيئة، أغمضت عيني وتذوقت بلساني الطعم الذي كدت أن أنساه يسري في أوردتي، أداوي بها جرحًا صنعته الحياة، تبعث الدفء في أوصالي وفؤادي، تُجمعني وتلملم ما تناثر مني عبر الماضي، أرتشفها... رشفةً بعد رشفةً، مرٌّ مذاقها كحياتي، تمزج بداخلي الأحاسيس، تارةً تحملني أعانق السماء، وتارةً تأخذني إلى حافة جنوني، وبين هذا وذاك أتأرجح على ذكرياتي، وأرتشف قهوتي وأتحسس بلساني مرارة مذاقها.

عقارب الوقت مضت وأخذت معها لحظات قليلة جميلة...

خرجنا عائدين للسيارة، نظرت للشوارع المبتلة، الغارقة بمياه الأمطار، الطرقات والأرصفة تبدو مغسولة، رغم برك الماء الصغيرة الباقية عليها، أوراق الأشجار الخضراء ازدادت بريقًا ولمعانًا، وأينعت، قلت لأدهم:

«لا تذهب إلى البيت مباشرة، دُرْ بنا في الشوارع قليلًا، لست في عجلة للعودة للبيت».

أشعر بحزن خفي مع حنين جارف يجتاحني، كل شارع وكل حي في مصر الجديدة مشيت فيه يومًا، ولي ذكرى فيه، أعيش فيها حتى من قبل أن أنتقل إلى شقتي الحالية، أذكر الطرقات النظيفة والشوارع التي كانت تبدو خاوية واسعة وعريضة، لم يكن هناك كل تلك السيارات وعوادمها التي تخنق الشوارع وتمنع الحركة والتمشية بحرية حتى على الرصيف، المترو الذي كان نظيفًا وعرباته لامعة أنيقة، اللونا بارك، نادي هليوبوليس قديمًا بملاعب البولو والجولف، ذكرياتي الجميلة مع مضمار سباق الخيل بمنشآته، تلك الأيام لن تعود أبدًا...

مرت الأيام وانطوت كالخيال، خلَّفَت همومًا وذكريات ورحلت مع الفرح والأحباء، تركتني بين أرق ودموع وعذاب وحدتي، يبدو أني عشت عمري آسفة على الماضي ومتحسرة على الحاضر.

الشمس لا زالت غائبة خلف سحب سوداء تحمل نذير أمطار كثيرة قادمة، تضفي على روحي كآبة، قطرات المطر عادت من جديد تبلل الشوارع وتزين زجاج السيارة الأمامي، لا يزيلها سوى حركة مساحات العربية الرتيبة، كأنها أرض معركة تنزف عليها الدماء، ما أن تُمسح آثارها حتى تعود وتحتل الزجاج من جديد، كالأحزان والذكريات التي ما أن تنطفي جذوتها حتى تعود وتشتعل، تنتفض من سباتها كعنقاء تُبعث من وسط الرماد، حية متوقدة، ترفرف بأجنحتها فتثير الماضي وتُقلِّب عليَّ أوجاعي، وتثير حزني وشجني، نسمات الهواء البارد التي تتسلل من زجاج السيارة تثير الرجفة في جسدي، وفي داخلي، تهز أعماقي كأمواج بحر مضطربة تستعد لعاصفة قادمة، الشوارع من حولي مألوفة لكن أشعر بغربة وأنا أراها جالسة داخل السيارة، لم أعد أقدر على السير والشعور بخطوات قدمي تدق على هذه الشوارع كما كنت من قبل.

اقتربنا من البيت، أشعر باختلاجة جسد غادة وهي تميل عليَّ، لكن هل تشعر هي بالتقلبات داخلي، بشوقي للماضي ولذكرياتي وللحب الذي مضى، وللابن الذي غاب، وللحفيد الذي لم ألقه، لا يحيطني سوى الوحدة والسكون والهدوء المميت في بيتي، سأعود للبيت وأغمض عيناي وأحلم بهم كالعادة وأنا مستيقظة، سأحلم بهم وبأصواتهم تحيط بي، بحركتهم من حولي، بدفء وجودهم قربي، سأشعر بوجودهم وقربهم رغمًا عنهم حتى مع بعدهم بالمكان عني، هكذا هو القُرب، شعور لا حضور.

أغمضت عيني، أكاد أراهم أمامي يقتربون مبتسمين، سعداء، يفتحون أذرعهم وأحضانهم في شوق إليَّ، أرى من غاب، أرى أمي قادمة ناحيتي مبتهجة سعيدة، ها هي آني قد عادت... لا زالت صغيرة كما كانت، لكنها فَرِحة، أخويَّ الذين لم أعي وجودهما جواري وقتلوا بجانبي وهما في عهد الصبا، يمسكون في يد جديِ أرتين وهو يحتضن كتف جدتي التي أتت لي بالتوت في يدها، وخلفهم أبي ينظر إليَّ في شوق، أبي الذي لم أره ولا حتى في الصور، لكني عرفته، عرفته من الحب الخالص في عينيه، من شوقي أنا إليه وإلى حضنه، إلى ارتماءة لم أحظَ بها من قبل في حضنه، أشعر بها وأشعر به يغمض عليَّ جفنيه، وينتشلني من هذا العالم الكئيب، أشعر بدموعي الدافئة تسيل فرحًا على خدي، وقلبي يكاد يرقص طربًا للقياهم، لن أعود بمفردي من جديد، لن أكون وحيدة بعد الآن، انتهى ذلك العهد، كما انتهى العالم بالنسبة إليَّ من قبل، بعد أن سرق مني ألوان الفرحة،

وتركني وحيدة أسمع أصوات الماضي تنادي عليَّ، وتقتلني، مهلًا... لا زلت أسمع شيئًا، أسمع صوتًا ينادي عليَّ بـإلحاح...

إنه صوت غادة قادم من مكان بعيد، لم تنادِ عليَّ وأنا وسط أهلي وأحبتي؟! تلفتُّ حولي فلم أرها، ارتفع صوت أدهم ممتزجًا مع صوتها ينادون في فزع باسمي...

ماذا يريدان مني الآن؟!!

وماذا ينتظر العالم مني بعد هذه اللحظة...

هل يخشون على رحيلي بمفردي، ألا يرون أهلي يستقبلوني بالفرح والحب والترحاب، ألم يروني وأنا أُلقي بنفسي في صدر أمي التي اعتصرها الهم والشيب من قبل، حتى نسيت وجهها المبتسم، اليوم أراه...، اليوم أراه مبتسمًا.

ألم يشاهدوني أُقبِّل يد أبي الذي عرفته بقلبي دون أن أراه من قبل وأحتضنه رغم أنه يبدو أصغر مني عمرًا، كنت أحلم طوال عمري بعودته، وأنتظر تلك اللحظة، كنت أعرف أنه يبحث عني، وعن أمي وعن أختي، اليوم بعد أن وجدته يريدني أن ألبي نداءهم وأتركه.

أخواتي وأختي يتقافزون من حولي، أطفال سعداء على وجوههم معاني البراءة والنقاء والحب الصافي بلا مقابل، ضحكاتهم تدوي في الفراغ من حولي حتى باتت تطغى عليَّ صوت نداءات غادة وأدهم.

ربما يخالجني حزن أني لم أودعهم، وربما يحزنون، لكن الدنيا لم تكن عادلة معي من قبل، فكيف أنتظر منها عدلًا الآن...

لا... لن أجيب على أحد، لا أريد... وربما لا أستطيع...

لم يعد هناك حياة على من ينادون.

غادة

فجأة لم تعد جواري، اختفت من الوجود من حولي رغم جسدها الذي يميل على كتفي.

أنادي عليها ولا تجيب.

لحظات فارقت فيها الحياة وابتعدت

وفي لحظات لم تعد جواري بعد أن علقتني بها في يومين بليلتين قضيت واحدة منهما جوارها في المستشفى.

لحظة كانت تجلس جواري ولحظة أتى ملك الموت يجلس جوارنا، أخذها من بيننا وأنا أمسك بيدها، لا تقدر أن تعترض، ولم تترك يدي، فقط أراحت رأسها على كتفي.

مضى عمر كامل أعيش قريبة منها في نفس الشارع ولم ألتقِ بها وأتعلق بشخصها إلا في آخر يومين في حياتها.

الدنيا أصبحت قاسية بشكل لا يُطـاق.

لم أعرف ماذا أفعل وماذا أقول، كنت أسمع أدهم ينادي على ماري وهو يقف بالسيارة في منتصف الطريق وأنا أصرخ باسمها أنادي عليها، أبكي ودموعي تنزف على خدي تكاد تحرقني، نسيت كل ما أعرفه عن محاولات إنعاش المُحتضر، كل ما فعلته أن احتضنتها أكثر وضممتها أكثر كما ضممت أمي يوم وفاتها.

هبط أدهم من السيارة وفتح بابها الخلفي، أراح رأسها وتحسس عنقها، ومال برأسه على صدرها يسمع وجود نبض في قلبها الذي سكن كصخرة صماء متحجرة بلا أمل، ثم جلس متكئًا على ركبتيه خارج السيارة وسط المطر الذي انهمر علينا، وقد ابتلت ملابسه وسط نفير السيارات المزعج التي تعترض على وقوفنا وسط الطريق.

بينما روحها تصعد لأعلى مع صحبتها ترمقنا من علٍ.

أدهم

لم أرتب من قبل لما يحدث من حولي.

رغم أن ماري نفسها كانت تتوقع موتها بين لحظة وأخرى، إلا أني لم أفكر أبدًا فيما سأفعله حين تموت.

الأعداد من حولي في صفوف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية قليلة، ربما لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، ماري ليس لديها معارف أو أصدقاء أو أهل، اليوم أنا فقط كل أهلها، ربما غادة التي تقف جواري متشحة بالسواد وتخفي عيونها الباكية بنظاراتها السوداء الضخمة، هي أقرب معارفها اليوم.

حتى د.أيمن الذي ساندني اليوم لجهلي بما يجب عليَّ أن أفعله في هذا الظرف، كان صلته بها لا تتجاوز الجار الطبيب، الذي لا يلقاها إلا حين تمرض.

بقية الأشخاص القليلين لا أعرفهم أو ربما رأيتهم في الشارع أو الحي، مما كانوا موجودين صدفة بالكنيسة.

غادة شاركت في غسل ماري وإلباسها قَبل الدفن، رغم أنها لا تعرف عن الطقوس الكاثوليكية شيئًا، وُضع جسد ماري في أفضل الملابس التي اختارتها بنفسها منذ زمن، ورتبتها في مكان مميز في دولابها، وأرتني إياها يوم أن عهدت إليَّ بمفتاح شقتها، وعُطّر جثمانها بالروائح الطيبة.

المعتاد في مثل هذه الأمور أن الأسرة والأقرباء هم من يقومون بغسل الميت حسب التقاليد، لكن غادة كانت أقرب الحاضرين لماري.

صوت الكاهن بالصلاة كان يتردد في جنبات الكنيسة على الميت بطلب الغفران على روحها قائلًا:

«طوبى للأموات الذين يموتون في رضا الرب، فليستريحوا من المتاعب، لأن أعمالهم تصحبهم، وأن الذي أقام يسوع المسيح من بين الأموات، يحيي أيضًا أجسادنا الفانية بروحه الحال فينا...».

تذكرت حين ذلك يوسف توأمي الذي رحل عن عالمنا وتركني وحيدًا، أشعر بفقدانه أكثر الآن وصوت الكاهن لازال يتردد حولنا.

«... الذين يموتون في نعمة الله وصداقته ولم يتطهروا بعد تطهيرًا كاملًا وإن كانوا على ثقة من خلاصهم الأبدي، يخضعون من بعد موتهم لتطهير يحصلون به على القداسة الضرورية لدخول فرح السماء كما جاء في كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية...».

أكاد أختنق بدموعي التي لا تريد أن تنزف على خدي.

«... ليشرق عليهم يا رب نورك الأزلي، مع القديسين إلى الأبد فإنك أنت الرؤوف، الراحة الدائمة أعطهم، يا رب، والنُّور الدائم فليضئ لهم، وليكن إيماننا أن موت الأبرار هو دخول في السلام وفي الراحة الأبدية وفي النور، وأن نرى في الموت ربحًا ما دام المسيح حياتنا، وأننا نرغب في أن ننطلق لنكون مع المسيح، الذي بموته وقيامته تغيرت المفاهيم عن الموت، فالمسيح المنتصر يضيء من الآن فصاعدًا الشعب الجالس في ظلال الموت، فقد حررنا من شريعة الخطيئة والموت، التي كنا مستعبدين لها حتى ذلك الزمان، فبعد أن كان الموت مصيرًا مقلقًا، أضحى الموت تطويبًا...

فطوبى للأموات الذين يموتون في رضا الرب، فليستريحوا منذ اليوم الأول من المتاعب، ولننتظر مجيء المخلص يسوع المسيح الذي يبدل جسدنا الحقير فيجعله على صورة جسده المجيد، فننتصر بذلك على الموت وندخل مجد السماء وندرك التمتع بالخالق الفادي، آمين».

الصلوات كانت في مثابة وضوء رمزي لجسد ماري المسجَّى في تابوته.

أكمل الكاهن صلواته وحديثه بينما كاهن آخر يرش الماء المقدس على التابوت، وسط نحيب غادة الذي لم ينقطع كأنها كانت تعرفها منذ الصغر، كنت تائهًا في أفكاري وأفقت على صوت الكاهن وهو يتابع:

«....لكن الكتاب يشجعنا ألَّا نحزن لأن المؤمن عنده رجاء أنه بعد الموت سيذهب الى الرب، كما ذكر الرسول بولس في رسالته الأولى الى أهل تسالونيكي - ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين لكِ لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم؛ لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضًا معه - وأيضًا علينا تذكير الخطاة الحاضرين أثناء الدفن من كلمة الرب، أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله، لأنه لا نفع لأي صلاة بعد الموت إذا كان الميت خاطي والأمثلة كثيرة فلك نوح، لعازر والغني، اللص على الصليب...».

انحشرت دموعي في مقلتي، فلم تنزف إلا القليل، ليتها فاضت بالدموع كي تريحني من الألم الذي أشعر به، تذكرت لحظة صراخ غادة بالنداء على ماري وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، كانت تحرك شفتيها وتهمهم بكلمات غير مفهومة كأنها تحدث آخرين في العالم الآخر، لحظتها ضغطت على فرامل السيارة في قوة وسط الطريق ووسط النفير الغاضب من السيارات خلفي، لكن كان ملك الموت أسرع من نزولي من السيارة وفتح الباب الخلفي.

عدت بالسيارة للبيت وغادة لا زالت على جلستها تضم إليها جسد ماري الضئيل، أزحت ذراعيها التي تلفهما حواليها، وحملت جثمان ماري وصعدت بها إلى شقتها، وأرحتها على سريرها، وقفت جوارها متصلبًا أنظر إليها، وأنا لا أعرف كيف أتصرف في هذا الموقف.

سمعت غادة تسألني وهي باركة على الأرض جوار سرير ماري محتضنة كفها بين أصابعها تسألني:

«ماذا سنفعل الآن؟».

نظرت إليها شاردًا، ونطقت في خفوت «لا أعرف».

دقائق فقدت فيها عقلي قدرته على التفكير، عاجز عن اتخاذ قرار أو فعل أي شيء، قالت غادة:

«اذهب وأحضر د.أيمن؟».

نعم، بالفعل هذا ما يجب عليَّ فعله الآن، هذا كل ما أقدر عليه في تلك اللحظة، ثوانٍ وكنت أقف على عتبة بابه أدق عليه الباب حتى فتح بملابس البيت، ليراني متجهم الوجه، مضطربًا.

ويبدو أنه توقع أو كان متوقعًا من البداية ما سيحدث فسأل في تردد:

«هل حدث شيء لماري؟».

رددت بلسان مذهولٍ وصوت مخنوق... «ماتت».

خفض عينيه قليلًا وسحب سماعته من حقيبته جوار الباب، وأمسك بذراعي يحركني جواره، عدنا إلى غرفة نوم ماري وغادة لا زالت على وضعها ونحيبها، جلس على الناحية الأخرى ووضع السماعة على صدر ماري وحركها عدة مرات، ثم وقف وقال:

«فليرحمها الله، سأرتدي ملابسي وسأقوم بعمل اللازم لا تقلق».

عاد صوت الكاهن يعيدني إلى الواقع وهو يقول:

«... لأن الغفران يا أحبتي هو هنا على الأرض وقبل الموت (هو ذا الآن وقت مقبول هو ذا الآن يوم خلاص)، ولأن فرصة قبول الرب يسوع كمخلص شخصي تُعطَى في هذه الحياة فقط، (اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم).لكن بعد الموت يكون قد فات الأوان وأغلق الباب، فنوح بقي يكرز للناس مئة وعشرين سنة فترة بناء الفلك، والناس لم تتب لكن عندما انتهى الفلك ودخل نوح وعائلته والحيوانات إليه أغلق الرب الباب ولم يعد هناك فرصة ثانية».

شعرت بشخص يقترب ويقف جواري، ويهمس في إذني:

«البقية في حياتك».

التفت لأرى من هو، ففوجئت بنفس الشخص الذي كان يدخن الغليون جوار السيارة وهو يحدِّث غادة على الموبايل، رددت وأنا ألتفت خلفي لأرى الشخص الآخر الذي كان معه يقف في الصف خلفنا مباشرة.

«حياتك الباقية».

«... إن الله يحب كل العالم ويريد أن كل إنسان يقبل الخلاص، ولكن الذين يتجاهلون ويرفضون الفرصة المعطاة لهم في هذه الحياة، ولا يتوبون، فإنهم تحت غضب الله الذي يمكث عليهم، ينبغي أن نصلي لأجل المؤمنين...».

في نفس اللحظة وجدت فتاة تحيي غادة وتسلم عليها وتقبلها قائلة:

«ازيك يا غادة، شدي حيلك».

سلمت غادة عليها ووجها يعلوه الدهشة رغم أنه من الواضح أنها تعرفها، فقد ردت عليها بالتقبيل وهي تقول وسط دهشتها.

«آيـة!!! ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟!! هل كنتي تعرفين ماري؟!!!».

«... بل عظوا أنفسكم كل يوم ما دام الوقت يدعى اليوم».

فردت عليها الفتاة التي عرفت أن اسمها آية:

«لا، كنت أعرف أشرف زوجك المختفي، والذي لا نعرف له طريق».

«....اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم».

زادت دهشة غادة وهي تسأل «تعرفي أشرف؟! تعرفي أشرف من أين؟!! ولم لم تخبريني من قبل أنكِ تعرفينه؟!!».

«... إن الخلاص مقدَّم لنا اليوم في هذه الحياة فقط وليس فيما يعد، فإذن يضل من يقول بالصلاة من أجل الموتى غير المخلصين؛ لأن الله لا يسمع هذه الصلوات؛ إذ إنها تناقض إرادته».

رد الرجل الذي يقف خلفي هامسًا في توتر:

«لا وقت لهذا الكلام الآن هنا، نريد أن نعرف أين زوجك؟ وأين العلبة؟».

«... فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، وقال يسوع: لا يقدر أحد أن يقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني».

همت غادة بقول شيء، لكن من كان جواري قاطعها وقال:

«ليس الآن، إكرام الميت دفنه، سنتابع كل حديثنا بعد الدفن ومراسمه».

«... ليس أحد يأتي إلى يسوع إلا الذي يجذبه الآب، والله لا يرغم غير المخلصين».

ثم ختم قائلًا:

«أيها الرب يسوع، آتي إليك كما أنا، أنا نادم على خطاياي، وأتوب عنها، أرجوك أن تغفر لي...

باسمك أغفر أنا أيضًا للآخرين كل ما أخطأوا به إليَّ:

أنا أكفر بالشيطان والأرواح الشريرة وكل أعمالهم...

أعطيك ذاتي كلها إلى ربي يسوع، أقبل به سيدًا وإلهًا ومخلصًا...

اشفني، غيرني، قويني في جسدي ونفسي وروحي...

تعال أيها الرب يسوع، غطني بدمك الثمين، واملأني بروحك القدوس...

أحبك ربي يسوع، أمجدك يا يسوع، أشكرك يا يسوع، وسوف أتبعك في كل يوم من حياتي...

مريم يا أم الأحزان، وملكة السلام، أيها القديسون وأنتم يا جميع الملائكة أرجوكم أن تساعدونا أجمعين.

آمين....

خرجنا من الكنيسة نحمل التابوت الراقد فيه جثمان ماري المتصلب البارد، تحت السماء الداكنة التي تغطي سماء الأيام كالهم الثقيل، الغريب أن هذين الشخصين ساعدانا وحملَا معنا التابوت حتى السيارة المخصصة لنقل التابوت للمقابر، اتجهت لسيارتي، فأمسك الأول بذراعي وقال:

«سنتبعك، سنكون خلفك في سيارتنا».

هززت رأسي أن نعم وأنا أنظر إلى غادة الحائرة ما بين حزن وخوف واضطراب وقلق يكاد يخنق روحها، داعيًا إياها لتركب جواري في سيارتي، بينما صعد د.أيمن إلى سيارته.

تحركنا تحت الشمس الغائمة سائرين خلف سيارة نقل الموتى، متجهين ناحية مقابر الأرمن الكاثوليك بمنطقة مجمع الكنائس بمصر القديمة، كما أوصت ماري بدفنها هناك.

سرنا في الطريق على سرعة متوسطة، ونحيب غادة لا ينقطع دون أن تتحدث، سالت دموعها غزيرة كالسماء التي بدأت ترسل قطراتها محذرة من الأمطار القادمة.

مقابر الأرمن الكاثوليك بمنطقة مجمع الكنائس بمصر القديمة مقابر شبه منسية، خالية من الزوار، حولها الحدائق والتماثيل وصور شخصية لأشخاص مجهولة غير مشهورة منتشرة في كل مكان، تراث ضائع يعود لـ مئة عام مدون على المقابر، التي لا يعرف أحد أصحابها أو ماذا كانوا يعملون في مصر، ما أدهشني حين وصلنا أني وجدت من يقوم على الدفن رجل مسلم لا يعرف هو أيضًا أغلب أصحاب هذه المقابر، لكنه كان يعرف ماري وأخبرني حين وصلنا أنها كانت تتصل به بين الحين والحين.

سرنا وسط مقابر الجبانة التي تبدو قديمة جدًّا ربما يرجع تاريخ إنشائها إلى عام ١٨٥٠ ومدون على كل مقبرة تاريخ واسم وفاة الشخص، ماري كانت حالتها متيسرة لها في مقابر الأغنياء، التي تستطيع أن تعرفها بمبانيها وتماثيلها المصنوعة من الرخام، والصور على المقابر.

كان هناك مقابر أخرى لمتوسطي الحال مدفنين في «أدراج»، موضوع عليها لوحات رخامية باسم العائلة، كذلك هناك مقابر للصدقات ممن لا يملكون مقبرة، وينتمون إلى الطائفة.

وقفنا أمام المقبرة حتى أنهى عم محمد الدفن وغلق المقبرة، أعطيته قليلًا من المال نظير ما قام به، وتركنا واقفين أمام القبر ورحل.

غادة نحيبها كان يرتفع، أعتقد أنه خوف من الشخصين الواقفين على القرب منا مع تلك الفتاة التي ترتدي ملابس زاهية الألوان أكثر من حزنها في هذا اللحظة على ماري، تلك الفتاة آية بدت لافتة للناظرين من لحظة دخولها الكنيسة وحتى الآن في وقوفها بملابس زاهية الألوان معنا وسط المقابر، بينما الشخصان الآخران يرتديان نفس الملابس التي كانا يرتديانها تلك الليلة التي حدثا فيها غادة، وأحدهما ينظف الغليون ويعاود ملئه بالتبغ، لماذا أشعر أن تلك الليلة كانت من فترة ليست بالقريبة، رغم أنها كانت بالأمس فقط.

مضت دقائق لم يتحرك فيها أحد، حتى تحرك د.أيمن وسلم عليَّ معزيًا وهو يميل عليَّ سائلًا في خفوت، وهو يختلس النظر إلى الواقفين خلفنا:

«من هؤلاء الأشخاص؟».

ملت عليه وأنا أهمس:

«غالبًا من معارفها أو من معارف ولدها الذي في كندا».

انتظرت دقائق حتى رحل د.أيمن مغادرًا بسيارته، والتفت ناحية الواقفين، وغادة تحاول أن تخفي نفسها خلفي من أعينهم محتمية بجسدي منهم تحت قطرات المطر التي بدأت تزداد.

سألت بصوت حاولت أن أجعله قويًّا غير مهزوز وأنا أقول:

«أعتقد الآن من حقي أن أعرف من أنتم؟ وماذا تريدون؟».

رد من يحمل الغليون في فمه بملامحه الجامدة وهو يقبض على الغليون بين أصابع يديه المرتدية قفازًا من الجلد الأسود، يدخنه بشراهة وينفث دخانه كقاطرة بخارية:

«غادة تعرفنا، كان الأولى أن تسألها منذ البداية، عمومًا أنا د.ناصف سند وهذا صديقي د.أحمد برهان، وهذه الفتاة الجميلة د.آية...». ابتسم وهو يتابع:

«زوجتي».

شهقت غادة وبدا على ملامحها الاندهاش، لكني مددت أصابع كفي تلمس كفيها لتهدأ، جال بخاطري لماذا تقع الجميلات دائمًا في غرام الأشرار؟! وأنا أسأل ناصف...

«وماذا تريد من غادة؟ هي قالت أنك وصديقك اتصلتم بها تسألان عن زوجها وهي لا تعرف مكانه».

تحرك أحمد برهان في عصبية وهو يصرخ في حدة:

«ماذا تعني بأنها لا تعرف مكانه هل هناك زوجة لا تعرف أين اختفى زوجها؟».

وضع ناصف يده على كتفه وهو يقول في هدوء وسط الدخان الذي يخرجه من فمه:

«تلك هي المشكلة يا أستاذ أدهم، أليس هذا اسمك؟ لا تستغرب لقد تابعناكم اليوم بأكمله تقريبًا وتقريبًا عرفنا عنك كل شيء...».

وانتقل بنظره إلى غادة وهو يتابع «وعنها».

سألت عاقدًا حاجبيَّ رغمًا عني: «ماذا تعني بكلامك؟!!».

رد في سرعة:

«أعني أن أشرف ليس من عادته السفر المفاجئ ولم يختف بهذة الطريقة كل هذه الفترة من قبل، ووجودك مع غادة الأيام الماضية من لحظة سؤالنا على أشرف، وربما من لحظة اختفائه...».

وهمس متهكمًا وهو يهز رأسه كأنه يوافق على ما يقول:

«كما أتوقع... يوحي أن هناك شيئًا غريبًا في اختفائه، وجود رجل مع امرأة متزوجة وطبعًا ليست زوجته، في شقته مع اختفاء الزوج...».

ورفع يديه في أداء مسرحي وهو يُكمل:

«إنه الثالوث الشهير، الزوج المخدوع والزوجة الخائنة والعشيق... القاتل».

هتفت في غضب وأنا أتحرك خطوة للأمام:

«انتبه لحديثك واحذر من كلامك قبل أن تتفوه به».

همت آية التي وقفت على نفس حالتها من البداية واقفة لا تتحدث مكتفية بالمتابعة من خلف عدسات نظارتها الشمسية السوداء التي ترتديها منذ البداية تحت الأمطار التي زاد انهمارها، وبللت شعر رأسنا وملابسنا بقول شيء، لكننا فوجئنا بأحمد برهان يصرخ وهو يخرج من خلف ظهره مسدسًا يلوح به في وجهنا غاضبًا وقطرات المطر تغرقه وتسيل على فوهته:

«قف مكانك، هل تظن أن الموضوع بسيط وأننا جئنا نتحقق من حقيقة علاقتك بتلك المرأة السافلة، نريد العلبة... العلبة التي كانت مع أشرف...».

قاطع ناصف حديث برهان:

«نحن لا يهمنا ماذا يحدث بينكما، ولا يهمنا حتى إن كنتما قتلتما أشرف، هذا أمر لا يعنينا، بل ربما كان في مصلحتنا... من يدري؟!! المهم الآن بالنسبة لنا العلبة... أين هي؟؟!».

نظرت إلى غادة الواقفة خلف كتفي وتمسك به وهي تهتف وسط دموعها:

«أقسم بالله أنا لا أعرف عماذا تتحدثون، ولا أعرف شيئًا عن العلبة أو أين هي».

خرج ناصف عن هدوئه هذه المرة وصرخ فيها:

«كفاية كذب، أنا لا أكره في حياتي أكثر من الكذب والكذابين ومن يحاول خداعي، أنا لست بمغفل، أشرف أخبرني في آخر لقاء معي أنك عرفتي كل شيء... كل شيء، وأنه تشاجر معك بسبب هذا، وأنت قلتي إنك تعرفي بموضوع الترامادول، ومن المؤكد أنك تعرفين الباقي، كيف تنكرين الآن معرفتك بتجارته وعمله وبالعلبة الذي استلمها هو بنفسه وعاد بها إلى البيت؟ في نفس الليلة التي انقطعت اتصالاتنا به، إياكي أن تحاولي خداعي وإلا سأقتلكما أنتما الاثنين هنا، وأدفنكما جوار صديقتكما العجوز».

بكت غادة بحرقة أكثر وهي تصرخ «والله ما أعرف شيئًا».

تحرك برهان ناحيتي وهو يلوح بفوهة مسدسه محاولًا ضرب غادة وهو يصرخ هو أيضًا في غضب:

«لقد اختنقت من بكائك وسئمت من كذبك ومن الموضوع الذي طال يا بنت ال...».

قابلت ذراعه الذي حاول أن يضرب به في غشم على ذراعي الأيسر وقابلته بلكمة بيمناي أودعت فيها كل قوتي في بطنه، فصرخ من الألم في شدة وهو ينثني من الألم وقطرات من الدم تتناثر من فمه في وجهي وعلى ملابسي، تراجع خطوة للخلف وأنا ألمح ناصف يهاجمني في سرعة ليباغتني فتفاديته وأنا أضربه بيسراي على فكه ليسقط أرضًا، وأنا أسمع صرخة غادة محذرة:

«احترس يا أدهم».

التفتت في سرعة لأجد آية تقابلني بحقيبة يدها الثقيلة في وجهي، لا أعرف ماذا كانت تحمل فيها، لكنها كانت ثقيلة، ومباغتة وغير متوقعة، حتى أن الدنيا دارت لحظات بي، وسقطت أرضًا بين الثلاث ذئاب الجائعة لدمي ودم غادة.

كان ناصف ينهض من سقطته وأنا أسقط أرضًا، بينما يعتدل برهان متحملًا لكمتي في معدته، حاوَلَتْ غادة أن تهاجم آية لكنها قابلتها بصفعة نسائية على وجهها وأدارتها وكتفتها ممسكة إياها من رقبتها، تلك اللعينة يبدو أنها قوية، ليست هشة مثل غادة.

هجم على برهان وأنا أحاول النهوض وركلني بقوة في جانبي؛ لأسقط مرة أخرى وسط الطين والأمطار، نطق ناصف وهو يمسح دمه الذي يسيل على طرف فكه، وقد أغرقته الأمطار ولوثت الطين ملابسه وقال:

«لقد كتبت نهايتك يا أستاذ أدهم، عمومًا نحن لسنا بحاجه إليك، سنكتفي بالزوجة الخائنة، ولا أظنها ستتحمل كثيرًا حتى تخبرنا حتى بما لا تعرفه، إن هي إلا لحظات وينتهي كل شيء وتلحق بصديقتك العجوز».

اقترب برهان وهو يسحب مشط مسدسه، وينحني ناحيني قائلًا:

«تلك اللحظة أنتظرها منذ البداية، سأنتهي منك بطلقة، أما غادة فلن أكتفي معها بطلقة، فهي لديها من المؤهلات التي تجعلني أرغب فيها، وحتى لو لم أرغب فيها، فسيكفيني أنك ستموت وأنت تعرف أني سأفترسها وأتذوق حلاوتها...».

التفت برأسه ناحية غادة والمسدس لا يزال مصوبًا ناحيتي:

«أشرف سيشكرني غالبًا؛ لأني عاقبت زوجته الخائنة، ربما يكـ...».

انتهزت تلك اللحظة رغم الدوار الذي أشعر به، ودرت بقدمي وفردت ظهري على الأرض أركل ساقي برهان ليسقط جواري، طاشت طلقة من مسدسه في الهواء بعد أن ضغط على الزناد خطأً، اعتدلت في سرعة وأحطت عنقه بساعدي، وقد لوثني الطين وملأ وجهي، لكن الأمطار التي ازدادت أسقطت بعضًا من شعري على وجهي وأزالت بعضًا من الطين عن عيناي، مع ذلك كانت الرؤية مشوشة أمام عيني التي تحرقني بسبب الطين الذي ملأها ولوث وجهي، اعتصرت رقبته في قوة وأمسكت يده القابضة على المسدس في قوة.

أسرع ناصف لينجد صديقه، حاول أن يلكمني فلم يستطع، فدار خلفي وبدأ في تكتيفي وحاول فك ضغط ذراعي عن رقبة برهان، وهو يسحب يدي الأخرى للخلف لتكتيفي منها، كنت كالطعام بين

فكين، كمن وقع بين شقي الرحى، غادة تصرخ باسمي عاجزة وهي مكبلة بين قبضتي آية التي أرغمتها على الركوع على الأرض وسط الطين والأمطار ممسكة بشعرها، وهي أيضًا تصرخ على ناصف زوجها مشجعة ليقضي عليَّ.

إنها اللحظات الأخيرة في حياتي، سأموت وحيدًا بين أعداء لم أكتسبهم، وسأُلقى ميتًا جثة هامدة وسط القبور حتى تأكلني الكلاب الضالة ليلًا أو تأكل بعضًا مني، حتى يكتشفني عم محمد حارس المقابر، وهو يسمع عواء وشجار الكلاب حول لحمي.

تذكرت توأمي الذي مات هل ألقاه صغيرًا أم أن الصغار يكبرون بعد موتهم في الحياة الأخرى، هل سألقاه بعد موتي مباشرة أم في يوم الآخرة؟ هل...؟!!!

لكن...

يموت الجبناء مرات عديدة قبل أن يأتي أجلهم...

أما الشجعان فيذوقون الموت مرة واحدة.

وأنا لم أمت بعد...

جال بعقلي لحظة دانتي يقول: «إن الذي يقهرك لهو قوة لا يصمد أمامها أي شيء»، وأنا لم يقهرني شخص أو شيء حتى الآن حتى حبي اخترت أن أفنيه وأقضي عليه بيدي.

استجمعت قواي وشددت من عضلات ساعدي، خبطت جبهتي في رأس برهان أمامي، وأعدتها للخلف في قوة لتصطدم بأنف ناصف تكسرها في قوة حتى أني سمعت صوت طقطقتها، ارتخت عضلات برهان وناصف معًا، فقلَّت مقاومة برهان لذراعي الأيمن دفعة واحدة في نفس اللحظة التي قلَّت قوة جذب ناصف لنفس الذراع، فارتددت للخلف في قوة وسرعة وانطلقت طلقة من فوهة المسدس مرة أخرى تخترق منتصف وجه ناصف ويسقط صريعًا على الأرض كالصخرة الصماء وسط الطين والأمطار.

صرخت آيه «ناااااصف»، وأنا أُدير برهان ناحيتي وألكمه لكمتين متتاليتين في وجهه ليسقط على الأرض جوار ناصف زائغ العينين دون أن يفقد وعيه، ارتمت آية على صدر ناصف الملقى جثة هامدة يملأ الدم وجهه، تمسكه من ملابسه وتنادي عليه، بعد أن تركت شعر غادة الذي كان بين أصابعها.

أمسكت ذراعي غادة وهي لا زالت زائغة النظرات كأنها لا تدري أو تعقل ما حدث وما يحدث حولها، ناديت عليها باسمها مرات وأنا أهزها في عنف لتفيق، حتى وجهت عينيها ناحية عيني لحظة، ثم ناحية من خلفي وصرخت «انتبه».

بالطبع لم أجد الفرصة السانحة لألتفت وأرى ما القادم من خلفي، فقد قفزت آية فوق ظهري وأنشبت أظافرها كالمخالب في وجهي، حتى أدمتها وانتزعت أجزاءً من جلدي تحت أظافرها، أمسكت شعر رأسها وجذبتها منه وهي تصرخ في إصرار لا تريد أن تفلتني ومستمرة في غرس أظافرها في وجهي وفي رقبتي، غادة كانت تضربها بقوة هشة كضرب طفلة غاضبة ترى أحد أقاربها يُضرب، تراجعت للخلف وآية على ظهري، لأصدمها في جدار أحد المقابر، صرخت في قوة، وتخلت عن نشب مخالبها في لحمي لحظة، فجذبتها من ملابسها وشعرها وألقيتها أمامي على الأرض، لكن اللعينة نهضت في سرعة وقوة كلبؤة شرسة تريد أن تنتقم من قاتل أسدها الذكر، هجمت عليَّ قافزة تريد أن تكرر حركتها السابقة لكني استقبلت جسدها بكلتا يدَّي هذه المرة وأدرتها وأنا أحرك جسدي أتفادها، ودفعتها لترتطم بظهرها في أحد التماثيل لينكسر، سقطت جواره على الأرض، ووقع نصف التمثال على رأسها الذي انفجرت منه الدماء، لا أدري إن كانت صُرعت أم فقدت وعيها فحسب، لكني لا أعتقد أن إصابتها ستكون هينة لو أنها لم تمت بعد.

جذبت ذراع غادة، وجريت بها وسط القبور تحت الأمطار الغزيرة المنهمرة كغضب السماء، ناحية سيارتي الواقفة بجوار بوابة الجبانة، وأنا أقول:

«هيا بنا قبل أن يأتي أحد، ربما ظن الحارس أن أصوات الرصاص أصوات رعد، لكن ربما يخرج لأي سبب ما».

كنت تقريبًا أحمل جسد غادة التي لا تقوى على الجري، تلك الفتاة هشة أكثر مما توقعت، وعانت في يومين الكثير، أغلب الظن ستعاني من آثار نفسية بسبب تلك الأيام لفترة طويلة، بينما نحن نقترب من السيارة دوت خلفنا أصوات رصاص المسدس من جديد ليرتطم بجدران المقابر على يميننا ويسارنا، خفضت رأسي ودفعت برأس غادة لأسفل قليلًا دون أن نتوقف.

كان أحمد برهان قد أفاق واستعاد توزانه وسلاحه الذي صوبه علينا في سرعة وغضب فطاشت رصاصته كلها حولنا، أو ربما هو ليس بالمهارة الكافية ليصيبنا من هذه المسافة غير البعيدة.

أخرجت مفتاح السيارة من جيبي بيدى الملوثة بالطين، وانتبهت أني في تلك اللحظات تناسيت كل شيء عن وسواسي القهرية، تمامًا كما حدث في اللحظات وأنا أتخلص من جثة أشرف، فتحت السيرة بالريموت ودفعت غادة في الكرس الأمامي جوار السائق بعد أن فتحت الباب، وجريت ألقي بنفسي أمام مقود السيارة وبرهان يقترب وهو يغير خزانة مسدسه بعد أن طاشت كل رصاصته خلفنا، أدرت السيارة وحركت المقود مبتعدًا عن المقابر وعن برهان الذي وقف ثابتًا هذه المرة وأطلق الرصاص ليصطدم بجسم السيارة من الخلف، وكسرت إحدى الطلقات الزجاج الخلفي واخترقت أعلى كتفي الأيمن، فاندفعت للأمام من قوة الإصابة واصطدمت بالمقود ودارت السيارة حول نفسها وتزحلق العجل على الأسفلت الغارق بالمياه.

الناس والسيارات في الشارع تحت الأمطار كانت قليلة، ابتعدوا مع صوت الطلقات وبعضهم لم يبالِ مع تعودهم في الشهور القليلة الماضية على أصوات الرصاص والطلقات في الشوارع.

تمالكت نفسي واعتدلت وسط صراخ غادة الذي لا ينقطع، وضغطت دواسة الوقود لتنطلق السيارة مرة أخرى ومحركها يزأر في قوة مع احتراق كمية البنزين الكبيرة، ومع صراخ العجلات على الأسفلت الغارق، مبتعدة وبرهان يتابع إطلاق رصاصته حتى فرغت خزانة مسدسه من جديد.

دفنت غادة وجهها بين كفيها وهي تصرخ وتئن وتبكي، كان يبدو أن عقلها وقلبها يحوي مزيجًا عجيب من الغضب والخوف والقلق والاضطراب والرعب، كل ذلك في آنٍ واحد كفيل بتحطيم أقسى الرجال أو النساء.

حاولت تهدئتها وناديت عليها باسمها عدة مرات حتى انتبهت قليلًا، فاعتدلت وسألتني منفعلة وسط نشيجها وهي تبكي:

«أأنت بخير؟؟ لقد أصبت بطلقة... لقد رأيت الدم».

طلبت منها أن تهدأ وأخبرتها أني بخير:

«لا تقلقي لقد خرجت الطلقة، فأنا أرى الدم يخرج من الأمام، لا تفزعي، هي أقرب لإصابة سطحية، ليست عميقة».

حاولت أن أبتسم لأهدئها وأنا أقول: «لا تخشي علي، لن أموت اليوم».

قالت وهي تضع رأسها بين كفيها:

«لا تقول هذا، لا تتحدث عن الموت مرة أخرى، لقد رأيت منه ما يكفيني هذه الأيام دفعة واحدة».

ضغطت على زرار فتح الزجاج جواري ليندفع قليلًا من الهواء البارد في الخارج مع الأمطار على وجهي، رغم برد الجو القارص إلا أني أشعر بسخونة في جسدي بعد ما حدث، نظرت إلى مقود السيارة ، وذراع السرعة اللذين تلوثا بالطين، لا أعرف لكن ربما الأدرينالين الذي ينفجر في جسدي ويجعله منقبضًا ونابضًا في شدة، قضى على وسواسي في هذه اللحظات وأبطل تأثيره القوي علي، لكني أعرف أنه لن يلبث أن يعود بقوة فور عودة الأمور إلى هدوئها.

أفقت من أفكاري على صوت سيارة مرتفع تقترب في سرعة وترتطم بنا من الخلف، صاحبت الخبطة صراخ غادة، كادت عجلات السيارة أن تفلت من بين أصابعي ومن تحكمي فيها، لكني تشبثت بالمقود في قوة وأنا أصرخ في غادة:

«شدي حزامك بسرعة».

ذلك الوغد اللعين برهان لحق بنا في سيارته، عاود الاصطدام بنا مرة أخرى من الخلف ونحن نندفع للأمام ونعود للخلف بفعل الصدمة، عدت أصرخ في غادة من جديد وأنا أشد حزام الأمان على

جسدي أنا أيضًا:

«شدي الحزام يا غادة».

جذبت الحزام عليها في سرعة عدة مرات والحزام يقاومها، فمددت يدي في سرعة أجذبه من يدها وأشده عليها وأغلقه، زدت من سرعة السيارة دفعة واحدة فتفادينا صدمة جديدة من سيارة برهان، الطرقات كانت شبه خاوية من السيارات ربما بسبب الجو وربما بسبب الأحداث المتلاحقة في البلاد وخوف الناس على أنفسهم وعلى أهليهم وذويهم.

تحركت بين السيارات القليلة في الطريق متجاوزًا إياها، وبرهان خلفي أعرف أنه لن يتركني أنا وغادة إلا جثتين هامدتين.

كنا قد اقتربنا من ميدان عبد المنعم رياض فاتخذت يساري فجأة لكن اللعين كان بارعًا ولحق بي، درت في الميدان وأخذت مطلع كوبري السادس من أكتوبر المتجهة ناحية الجيزة، ظننت للحظة أن برهان سيعتقد أني سأتخذ المطلع المتجه ناحية مصر الجديدة، فبحركتي المفاجئة أنال منه وأخدعه وأفلت منه، لكنه داس فرامل سيارته في قوة، صرخت إطارات سيارته في حدة وهي تتزحلق على الأسفلت الغارق في مياه الأمطار ودارت نصف دائرة، وسط نفير السيارات القليلة في مجرى الطريق وشتائم بعضهم له، ثم انطلقت تتبعني.

يبدو أن برهان هذا سائق ماهر، لن نفلت منه بسهولة، سيلحق بنا إن آجلًا أو عاجلًا، اقترب منا في سرعة ونحن على الجزء العلوي من الكوبري فوق النيل، والسيارات القليلة جدًّا على الطريق تبتعد عنا، وهي تطلق نفيرها في حدة وغضب، صدمني من الخلف في قوة فمالت السيارة لحظة مني، وغادة على صرخاتها المتواصلة، لكني استعدت سيطرتي عليها في سرعة، تجاوزني وأصبح جواري في لحظة وصدمني من الناحية المجاورة لي في قوة عدة مرات فدفعني على الرصيف الخالي من المارة تقريبًا في تلك اللحظة، أصبحت أسير بعجلتين فوق الرصيف وعجلتين على الأسفلت، وسيارته ملاصقة في جانب سيارتي يصدمني ويدفعني بها في قوة ناحية سور الكوبري حتى كدت أصدم شخصًا وحيدًا كان يتنزه في غباء تحت هذا المطر فوق الكوبري في هذه الساعة المشئومة، لكنه قفز في سرعة وتعلق في السور من الخارج فنجا، ودون مقدمات فتح برهان زجاج سيارته الأمامي المجاور لي ورفع سلاحه وأطلق الرصاص ناحيتي، وهو مستمر في دفعي بسيارته ناحية السور في قوة، ضغطت على دواسة الفرامل في قوة فهدأت سرعتها، وتراجعت عن سيارته قليلًا حتى أصبحت على بعد عدة أمتار قليلة منه، مالت سيارته فجأة نتيجة الفراغ المفاجئ جواره وصعدت على الرصيف فأصبحت أمامي وارتطمت بسور الكوبري وهي على سرعتها العالية، ضغطت دواسة الوقود بكل قوتي لتصرخ السيارة وتئن وهي تنطلق في قوة خلف سيارة برهان السريعة المندفعة وتصطدم بها وترفعها عن الأرض من الخلف لتنقلب للأمام دفعة واحدة، ثم ترتفع عن الأرض وتتجاوز سور الكوبري، محطمة جزءًا منه لتطير في الهواء للحظات وتسقط في النيل.

لم أقف لأنظر ماذا حدث، بل زدت من سرعتي لأبتعد بأقصى سرعة ممكنة عن مكان الحادث، وأنا أصرخ في غادة لتكف عن صراخها الذي لم ينقطع، اتخذت نزلة الزمالك، وسرت عدة أمتار ووقفت على جانب الطريق بضغطة فرامل قوية، جذبت غادة لتواجهني وصفعتها على وجهها لتفيق مما هي فيه، لأجنبها صدمة من الممكن أن تعاني منها.

انهارت على كتفي تجهش بالبكاء، وأنا أقول لها:

«اهدأي، لقد انتهى كل شيء».

لم أنتظر سوى ثوانٍ معدودة بعدها وتحركت بالسيارة أبتعد وأبتعد، وصعدت على كوبرى ١٥ مايو، حاولت أن أرى ماذا يحدث على كوبري أكتوبر المقابل لنا في الناحية الأخرى لكني لم أتبين شيئًا، ولم أستطع أن ألمح أي شخص يعوم أو يحاول الخروج من النيل.

اتخذت الطريق المؤدي إلى مصر الجديدة، لكني أدرت مقود السيارة فجأة عند أول دوران للطريق وعدت من الاتجاه الآخر وسط دهشة غادة التي قالت متسائلة:

«هل ستعود لترَ ماذا حدث؟».

لم أجب، كنت أحاول أن أرتب أفكاري، لأعرف ماذا يمكن أن يحدث في الأيام القادمة، وكيف يجب أن أتصرف الآن لأحمي غادة وأحمي نفسي...

لم أكن قادرًا على الاختيار لأني لا أعرف ماذا حدث وماذا سيحدث...

والآن بعدما عرفت ماذا سيحدث وماذا سأفعل لم أعد قادرًا على الاختيار...

كنا لازلنا قريبين من منطقة وسط البلد، اتخذت الطريق المؤدي إلى محطة قطار رمسيس، وغادة تعاود السؤال:

«ماذا تفعل يا أدهم؟ أين سنذهب؟».

وقفت بالسيارة أمام باب المحطة، وجذبت حقيبتها من الكرسي الخلفي للسيارة ووضعتها على ساقها وأنا أقول:

«كنتِ تنوين الذهاب إلى عمتك أو إحدى قريباتك في الإسكندرية».

أجابت في سرعة «عمتي، ولكنـ...».

قاطعتها قائلًا:

«الآن ستذهبين إليها، ولن تعودي إلى بيتك أو إلى القاهرة حتى نعرف ماذا حدث».

هبطت من السيارة وفتحت بابها ودعوتها للنزول فردت في غضب باكية:

«لن أذهب إلى أي مكان حتى أفهم ماذا تريد أن تفعل».

جذبتها من ذراعها خارج السيارة وأغلقت الباب في قوة قائلًا:

«سأخبرك».

أمسكت بكفها بين أصابعي وتحركت معها في خطوات سريعة، لداخل المحطة الشبه مزدحمة رغم الأمطار والشوارع الخاوية بالخارج، ناحية شباك التذاكر، وأنا أتابع:

«ناصف الوحيد الذي أستطيع أن أقول إني متأكد من موته، أما صديقتك والرجل الآخر لا أستطيع أن أجزم، لكن الأكيد أن أحدًا منهم لن يتصل بالشرطة ولن يبلغ أحد منهم عما حدث، ولو مات برهان هذا في سيارته غرقًا أو من الصدام فلن يربطنا به شيء، المشكلة في الذي مات في المقابر، أو الذين ماتوا في المقابر لو كانت صديقتك ماتت هي الأخرى...».

وقفت أمام شباك التذاكر وطلبت من الموظف تذكرة للإسكندرية سائلًا:

«متى أول موعد للإسكندرية؟».

فرد وهو يطبع التذكرة:

«بعد دقائق، القطار على الرصيف، أسرع حتى تلحق به».

وأشار إلى مكان الرصيف وهو يخبرني برقمه:

نقدته ثمن التذكرة واتجهت ناحية رصيف القطار الذي أشار إليه، وأنا لازلت أحتضن كف غادة بين أصابعي وأتابع حديثي معها:

«... حارس المقبرة هو الوحيد الذي سيعرف أن القتلى وسط المقابر هم شخصين حضرَا جنازة ماري، فالمقابر خاوية لا يزورها أحد تقريبًا، ولا أعتقد إن كانت هناك جنازات أخرى اليوم، ربما يكتشف الجثة اليوم بعد انتهاء الأمطار، أو غدًا صباحًا على أقصى تقدير... ها هو القطار اصعدي».

صَعَدت غادة للقطار ووقفت على الباب وناولتها التذكرة في يدها وأنا أسألها:

«هل معك ما يكفي من مال؟».

هزت رأسها أن نعم، وهي تربت على حقيبة يدها وتقول:

«نعم ومعي كارت الفيزا أيضًا».

قلت لها: «لن تخبري عمتك عن أي شيء... أخبريها أنك تشاجرت مع أشرف وأنه صفعك أو ضربك فتركت له المنزل وذهبتي إليها، وأنك وقعتي أو تزحلقتي بسبب المطر والطين، المهم ألا تعودي قبل أن أتصل بكِ».

سألَت وسط دموعها: «وأنت ماذا ستفعل؟».

انطلقت صفارة القطار وبدأ في التحرك البطيء، وأنا أقول محاولًا أن أرسم ابتسامة على ملامح وجهي:

«كما قلت لكِ حارس المقبرة سيخبر الشرطة أنهم كانوا في جنازة ماري، وسيأتون ليسألوني ويسألوا د.أيمن، وسأخبرهم كما أخبرت د.أيمن، أنا لا أعرفهم ربما من معارفها أو من معارف ابنها المهاجر إلى كندا، المهم أن أطمئن أن لا أحد سيعاود مطاردتك بعد اليوم».

همست في صوت مبحوح:

«أدهم أنا لا أعرف ماذا أقول لك... أو كيف أشكرك، لا أعرف حتى...».

قاطعتها وسط صفير القطار الذي زادت سرعته قليلًا:

«لا تقولي شيئًا، انسي كل ما حدث في الأيام الماضية، رغم كل هذه الأمطار وهذا الجو إلا أننا لا زلنا في فصل الخريف، وآخر أيام الخريف حملت لنا أحداثًا أكثر مما يجب، ربما أول أيام الشتاء تحمل لنا أحداثًا أفضل».

نطقت ودموعها تخنق صوتها...

«أدهم... أنااا... أنا أحبك».

زادت سرعة القطار وأنا أخبرها مبتسمًا:

«أنتِ لا تحبينني... أنتِ فقط ممتنة لوجودي جواركِ، وهذا ما يفعله الأصدقاء».

ظللت أنظر إليها وهي تقف على باب القطار، وهو يتحرك مبتعدًا في بطء مغادرًا محطته...

لم أجد ما أفعله غير أن أرفع يدي مودعًا...

فلوحت بيدها مودعة.

نظرت بياتريس إليَّ بعينين ممتلأتين بشرارات حب لربوبية قد اختفت، فهربت فضيلتي وأصبحت كالخاسر مخفض العينين.

دانتي ألجيــيري

تمت بحمد الله.

كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 /01001872290

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية

يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:

Kayanpublishing